المدخل الى علم الإنسان

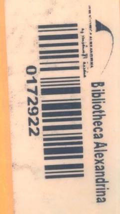
دكتور
سعيد فالح الغامدي

دكتور
عبد الله عبد الغني غانم

دكتور
حسن محمد صالح

١٤١٠هـ - ١٩٩٠م

المكتب الجامعي الحديث
محطة الرمل - اسكندرية
ت/ ٤٨٣١٥٢٧



المدخل إلى علم الإنسان

دكتـــور
عبد اللـه عبد الغنى غـانم

دكتـــور
حســن محمد صـالح

١٤١٠هـ - ١٩٩٠م

المكتب الجامعي الحديث
٢٢ شارع الدكتور على رامز
محطة الرمل - إسكندرية



مقدمة الكتاب

أحمد الله الذى علم بالقلم . علم الانسان مالم يعلم . واشكره على فضله وتوفيقه وارجو منه المزيد فهو القائل « لئن شكرتم لأزيدنكم » .. والصلاة والسلام على نبينا وامامنا وشفيعنا يوم لاينفع مال ولابنون سيدنا محمد بن عبد الله ، وعلى آله وصحبه وسلم ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين . وبعد :

.. فمنذ مطلع عام ١٤٠٦هـ وهى الفترة التى بدات فيها عملى كرئيس لقسم الاجتماع بجامعة الملك عبد العزيز بدات التفكير مع الزملاء بالقسم فى اصدار مجموعة من الكتب ذات الصبغة الجماعية ، بحيث يشترك فى كل كتاب فى حقل معين مجموعة من المتخصصين فيه ، وتم عرض هذه الفكرة على مجلس القسم ، حيث وافق أعضاء المجلس عليها . وشكلت لجان عمل ثلاث الاولى لجمع مادة مبادىء علم الاجتماع ، والثانية لمادة علم النفس ، والثالثة لمادة الانثروبولوجيا «علم الانسان» . على ان تكون المؤلفات مناسبة مع كون هذه المواد الثلاث لها صفة مبادىء العلم الاولية التى يستطيع الطالب فهمها بسهولة ، خاصة وانها اضافة الى كونها مداخل للعلوم الثلاثة المشار اليها تدرس كمواد حرة لطلبة الجامعة وعلى الاخص مادتى مبادىء علم الاجتماع ومبادىء علم النفس .

وكنا نهدف من وراء ذلك ايضا الى الغاء المذكرات التى يقوم باعدادها بعض اساتذة تلك المواد كل فيما يخصه ، والتى قد تختلف مفرداتها باختلاف رؤية الاستاذ وكيفية اختيار عناصرها الامر الذى يؤدى الى نوع من اللبس لدى الطالب الذى قد يدرس هذه المادة او تلك عند اكثر من استاذ فى حالة عدم تمكنه من اجتيازها بنجاح فى اول مرة ، او فى حالة رغبته فى اعادتها مع آخر .. وفى الوقت الذى لم تتمكن فيه لجنة تاليف مبادىء علم الاجتماع وكذا لجنة تاليف مبادىء

علم النفس من اكمال عملهما ـ لاسباب منها : انشغال بعضهم وسفر الاخر وعدم قبول اللجنة لمساهمات البعض ـ فان لجنة تاليف وجمع مادة المدخل الى الانثروبولوجيا العامة التى فضلنا تعريبها الى « المدخل إلى علم الإنسان » قد تمكنت من انجاز عملها بطريقة مقبولة تضمن اعطاء الطالب والطالبة مبادىء العلم الاساسية فى هذا الكتاب . على اننا نامل أن نتمكن من انجاز العلمين الآخرين فى وقت لاحق . وهما : علم الانسان الثقافى وعلم الانسان التطبيقى ..

وقد شكلت لجنة هذا الكتاب من كل من الدكتور / عبد الله عبد الغنى غانم . والدكتور / حسن محمد صالح . والدكتور / سعيد فالح الغامدي . وثم توزيع العمل على النحو التالى : الفصل الاول والثامن اعدهما الدكتور / سعيد الغامدى والذى اسندت اليه ايضا مهمة مراجعة محتويات الكتاب ومتابعة تنفيذه حتى اصبح على هذا النحو .. الفصل الثانى والثالث . اعدهما الدكتور / حسن صالح أما الفصول الرابع والخامس والسادس والسابع فاعدها الدكتور / عبد الله غانم . وبهذا يكون هذا الكتاب مكون من ثمانية فصول على النحو التالى :

الفصل الاول .. وهو عبارة عن نبذة تاريخية .. حاولنا من خلالها تعريف علم الانسان ، تطرقنا من بداياته الاولى ، حيث لاحظنا ان دراسة الانسان والثقافة لم تكن حكرا على العصر الحديث كما يذهب البعض اليه ـ بل ان تاريخ الانسان لم يخل من اهتمامات متعددة لدراسة الثقافة الانسانية ، ومرورا بالعصور القديمة فانه ينبغى ان نتوقف قليلا عند القرن الخامس عشر الميلادى ، الذى يسمى «بعصر الاكتشافات الكبرى » والذى تراكمت فيه كميات كبيرة من المعلومات الانسانية عن طريق ماجمعه الرحالة والمبشرون والتجار والجنود ، بحيث امتزج هذا الكم القليل من الحقائق الكثيرة من الحكايات والاساطير . الامر الذى يجعلنا نعتقد بان ثقافة الانسان قد تعرضت

لكثير من التحريف تبعا لاتجاهات الرواد وثقافاتهم ، حيث نظر كل منهم الى ثقافات الشعوب الاخرى من منظار ثقافة مجتمعه التى يتعصب لها احيانا كثيرة . ولكن على الرغم من ذلك فقد اعتبرت تلك للعلومات الركيزة الاولى التي نهض عليها علم الانثروبولوجيا الحديث .

ومع مطلع القرن العشرين بدات تتضح الملامح الاكاديمية للدراسات الانثروبولوجية ، حتى اصبحت تخصصا اكاديميا واصبحت مادتها تجمع عن طريق باحثين مدربين ميدانيا . والملاحظ ان الانثروبولوجيا فى معناها الحقيقى ارتبطت فى منتصف القرن التاسع عشر مع الحركة الاستعمارية وخاصة حركات الاستعمار البريطانى حيث بدأ الباحثون الانجليز يدرسون الشعوب المستعمرة للتعرف على خصائصها المختلفة والاستفادة من تلك المعرفة اما لاحكام سيطرتها على تلك الشعوب واما لرسم سياسة لتعديل بعض اوضاعها بفرض استمرار سيطرتها واستمرار استعمارها لتلك الشعوب .. وفى هذا الفصل ايضا اشرنا الى بعض مجالات للانثروبولوجيا . حيث نجد انه امكن الاستفادة من نتائج البحوث الانثروبولوجية فى مجالات الصناعة وخاصة تلك الدراسات التى عنيت بالعلاقة بين الادارة والعمال فى المصانع ومجالات العمل المختلفة . وكذلك فيما تعلق بمشروعات الاسكان والتوطين وفى مجال تنمية المجتمع والتنمية الاقتصادية ، كما انه يمكن الاستفادة من اساتذة هذا العلم والباحثين فيه فى دراسة المشروعات الصحية وعمليات التكيف فى المجتمعات التى تتجه نحو التصنيع ، وخاصة تلك التى تعتمد فى ذلك على عمالة بدوية او ريفية .. ومن خلال ذلك اوضحنا العلاقة بينها وبين بعض العلوم الاخرى كعلم الاجتماع وعلم النفس والبيولوجيا . وفى نهاية هذا الفصل اشرنا الى القسمين الرئيسيين لهذا العلم وهما : الانثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية ثم الانثروبولوجيا الفيزيقية . واشرنا الى خمسة

فروع اخرى لهذا العلم هى : الانثروبولوجيا الاقتصادية ، والتطبيقية، والسيكلوجية ، والطبية ، ثم انثروبولوجيا التنمية .

.. الفصل الثانى - وهو يمثل نسبيا امتدادا للفصل الاول من خلال عرض للدراسات التطورية للنظم الاجتماعية البدائية ، ويركز هذا الفصل فى عرضه على (عصر التنوير ومابعده) وخاصة منذ بدء الصراع بين العلم والكنيسة فى أوروبا . الامر الذى قاد الى ماسمى بفكرة التقدم فى التاريخ الانسانى ، ولذلك فقد اتخذ هذا الاتجاه مداخل مختلفة لدراسة التقدم الاجتماعى حيث حاول البعض دراسته من خلال تطور العقل البشرى ، بينما اهتم آخرون بجوانب التقدم المادى والتقنى وعلاقته بتقدم النظم الثقافية والاجتماعية مثل الاسرة والزواج والنظام السياسى . ولذلك فانه يمكن اعتبار كل ذلك جزءا هاما واساسيا فى تراث الانثروبولوجيا وتكوين نظرياتها وقواعد المنهج فيها . حيث اعتبر بعض تلك بمثابة آراء فلسفية . بينما بعضها الآخر لازال بشكل امتدادا آخر . وظهر بعد ذلك نوع من الصراع أدى الى ما عرف بالنظريات التوفيقية التى حاولت أن تجمع بين الاراء المتناقضة تؤمن بفكرة التقدم وفى نفس الوقت تتمسك بمفهوم الاستمرارية فى النظم التقليدية . ومعنى ذلك أن أصحاب تلك النظريات يرفضون فكرة التغير الجذرى ويعتقدون بان التغير لابد أن يتم فى حلقات متصلة تربط بين الحاضر والماضى والمستقبل ايضا . وهو اتجاه يتلاءم مع طبيعة النظام الاجتماعى الذى نشأ فى اوروبا بعد الثورة الصناعية والثورة الفرنسية وقد عرضنا فى هذا الفصل لبعض ابرز المفكرين فى تلك المرحلة مثل John Locke و Anne Robert Turgot و Voltaire و Edevard Gibbon Montesquieu و Adam Ferguson و John Millar و william Robertson و Condorcet . وغيرهم من المفكرين وخلاصة افكار هؤلاء تدل على أن عصر التنوير شهد قيام الافكار العقلانية التى انتقدت النظم الاجتماعية التى كانت سائدة آنذاك وعالجتها من حيث التقدم بمعيار

المنطق والعقل ، ورفض تلك الافكار التى لاتعترف بقدرة العقل الانسانى على التقدم • وكذا رفض مقولة (القوانين الطبيعية) التى توجه حركة التاريخ وبالتاكيد فان كل ذلك مهد لظهور نظريات ودراسات انثروبولوجية حديثة فى القرن التاسع عشر •

الفصل الثالث : وهو فصل خصص لعرض عدد من النظريات والدراسات الانثروبولوجية فى القرن التاسع عشر واشرنا فى هذا الفصل الى نظرية (Darwin) التى ضمنها كتابة الذى نشر فى عام ١٨٥٩ بعنوان اصل الانواع (Origin of Species) ثم فى كتابه عام ١٨٧٤ بعنوان : أصل الانسان (De ent of man) وهى النظرية التى عرفت بنظرية النشوء والارتقاء •• ونستمر فى هذا الفصل فى عرض نظريات وافكار أخرى واهمها نظرية المماثلة العضوية التى نادى بها هيربرت سبنسر H. Spencer والتى عقد فيها مماثلة بين المجتمع والكائن الحى • وحاول أن يربط بين مفهومة للتقدم فى المجتمع ونمو الكائن الحى من خلال المماثلة حيث يرى ان المجتمع البسيط ينمو ويظل حتى يصل الى مرحلة من التعقيد ، ثم يعود يتلاشى حتى ينتهى وكذلك الحال بالنسبة للكائن الحى • ويمضى هذا الفصل فى عرض آراء سبنسر ونقدها ايضا ثم عرض افكار Tylor و Bachoyer و Henry maine و Tonnies وغيرهم من العلماء الرواد فى مجال الدراسات الاجتماعية والانثروبولوجية مع شىء من التفصيل الملائم لمدارك المبتدئين فى مثل هذا النوع من الدراسات •

•• والفصل الرابع خصص للانثروبولوجيا البيولوجية ، حيث يبدأ الفصل بمحاولة تعريف الانثروبولوجية البيولوجية ومجالاتها وتاريخها • ولما كانت الانثروبولوجيا البيولوجية تهتم فى الإساس بتفسير الاختلافات البيولوجية عند الإنسان المعاصر من ناحية ومع إنسان الماضى من ناحية اخرى ، ولذلك فقد جمع الكثير من المعلومات التى توضح هذا الاختلاف ، حتى أصبح الباحثون الان يواجهون

مشكلة من نوع آخر . تتمثل فى انه لم يعد هنـاك من شك فى موضوع الاختلاف ، ولكن المشكلة هى فهـم ذلك الكـم الكبير الذى جمعتـه الاسلاف وفق منطق «اجمع ماتستطيع من معلومات ودع التفسير فيما بعد » ويمضى هذا الفصل فى محاولة القـاء الضـوء على مـا يمكـن القيام به فى هذا الخصوص من خلال التعاون بين فروع مختلفة مـن الانثروبولوجيا كالتماذج بين البيولوجيـة والثقافية مثـلاً ثـم عرض الوراثة وقوانينها ، ثم مجموعات الدم بتوسع ملحوظ .

.. أما الفصل الخامس ، فهو فصل خاص بـ (الانثروبومترية) القياس البشرى ، ويعرض هذا الفصل عدد من المجـالات التى يفيـد فيها القياس البشرى وهى : الدراسات الكمية للانسان . ودراسـة بقايا الحفريات ، واخيرا الاستـخدام التطبيقى للقياس فى مجال الصناعات المختلفة التى تنتج للاستخدام الآدمى . وهناك شبه اتفاق بين الباحثين الانثروبولوجيين على ان هناك عدة صفات محددة فى الجسم الانسانى تعتبر اساسية فى تصنيف المجموعات البشرية وهى طول القامة ، وزن الجسم عرض وطول الرأس ، عرض وطول الانف ، لون البشرة ، لون الشعر ودرجة كثافته وشكله ، شكل الوجه ، بروز الفك . وحاولنـا فى هذا الفصل تقديم بعض البيانات عن مجموعات بشرية فى عدد من بلدان العالم ...

والفصل السادس : عن الاجناس البشرية ، حيـث تناول فكرة التباين بين الجنس البشرى التى ادت الى مظاهر العنف بين البشر ، كما وضح هذا الفصل أن فكرة الاجناس وتصنيف البشر الى جماعات مختلفة ، لم يكن بسبب الاختلاف الظاهرى فى الشـكل بينهم ، لكنـه يرتبط بأسباب اخرى . ونستمر فى هـــذا الفصـل فى عـرض بعض التصورات التفسيرية فى هذا المجال ومنها : الفروق بين البشر فى الذكاء والقدرات . وعلاقة الفسيولوجيا بمسالة التمايز بـين الاجناس . ثم تصنيف الاجناس البشرية الى ثلاثة هى : الجنس الابيض (القوقازى)

والجنس «المغولى» ، واخيرا الزنوج والاقزام . وفى نهاية هذا الفصل عرضنا لموضوع انثروبولوجيا التغذية على اعتبار انها احد المجالات التى تعتبر مؤشرا على الاختلاف بين اجناس البشر .

اما الفصل السابع : فخصص لمناهج البحث الانثروبولوجى . خصائصه وادواته وصعوباته . وعرضنا فى هذا الفصل بعض الصعوبات التي يواجهها الباحث الانثروبولوجى مع الاشارة الى نوعية الباحث نفسه من حيث دوافع البحث ومن امثلة ذلك انه يمكن ان يكون الباحث رجل استعمار او قانون او اعمال او مبشرا دينيا ، كما ان هناك الباحث المحترف الذى يمكن ان يندرج تحت واحدة من تلك الصفات . كما قد يكون محاضرا جامعيا . وهنا تختلف نوعية الباحث باختلاف الهدف . ثم تطرقنا الى خطوات البحث الانثروبولوجي وتم تحديدها فى خمس نقاط .ينبغى على الباحث فى هذا المجال التقيد بها مع مراعاة مستوى المبحوثين وملاحظة مايطرا على المجتمعات الانسانية من تغير . كما ينبغى عليه ايضا مراعاة عدة متغيرات اساسية منها ثقافة المجتمع موضوع الدراسة . وفى نهاية هذا الفصل عرضنا بعض الخصائص التى يجب مراعاتها فى صياغة الاسئلة التى توجه الى المبحوثين ، ثم بعض الصعوبات التى يواجهها الباحث . واخيرا عرضنا لوسائل البحث الانثروبولوجى وادواته . ونهدف من هذا الفصل بصفة عامة : إلى اعطاء الراغبين فى التخصص فى دراسة الانسان القواعد الاساسية للبحث العلمى بطريقة ميسرة بعيدة عن الغموض والاسهاب . اذ انه يمكن من تخصص بعد ذلك الاطلاع على كل ما كتب فى مناهج البحث الانثروبولوجى ، ثم استخدام المنهج الملائم للدراسة من حيث موضوعها وطبيعتها والمجتمع الذى تتم فيه . ولذلك نعتبر هذا الفصل فصلا تمهيديا يتلاءم مع موضوع الكتاب بصفة خاصة .

.. والفصل الثامن والاخير فى هذا الكتاب . هو محاولة للتوفيق

بين النظرية والتطبيق . مرورا بالصفحات السابقة لهذا الفصل نجد انها اجزاء تمهيدية نظرية ، يتعرف بواسطتها الطلاب على بعض القضايا والمفهومات التى لابد للمبتدىء من التعرف عليها ليكون من خلالها فكرة شاملة وقمنا فى هذا الفصل بعرض نموذجين من دراسات انثروبولوجية سابقة ، اكتفيئا بهما على اعتبار ان لهما علاقة مباشرة بمجتمعنا العربى بصفة عامة والسعودى بصفة خاصة ، ويمكن لاستاذ المادة اضافة مايراه مناسبا من دراسات ذات علاقة يعتقد انها يمكن ان تكون عاملا مساعدا لتنمية المعرفة والمهارة لدى الطلاب .. الدراسة الاولى عن «مجتمع الطوارق» فى الجزائر اجراها باحث جزائرى قدم فيها بعض الصور والانماط عن حياة المجتمع القبلى الجزائرى . اما الثانية فهى دراسة للبناء القبلى فى المملكة العربية السعودية «مجتمع بنى كبير» عرضنا فيها لاهم ملامح البناء القبلى بكثير من الايجاز ..

.. وفى الختام آمل أن تكون الاهداف التى كانت خلف اصدار هذا الكتاب ، ومحاولتنا ليكون بين يدى الطلاب فى الوقت المناسب . شفيعة لبعض جوانب القصور التى سيلاحظها المتخصصون .. كما نرجو أن نتلقى ملاحظاتهم ومقترحاتهم التى ستكون موضع اعتبارنا ومحل تقديرنا . عند اعادة طباعته .. كما اشكر لزميلى الكريمين حسن ظنهما بى وارجو ان اكون عنده دائما .. وماتوفيقى الا بالله .

سعيد فالح الغامدى
حى السلامة ـ جده
فى ١٤٠٧/١٠/٢٥هـ
١٩٨٧/٦/٢١م

مقدمــة الطبعــة الثالثة

عندما صدرت الطبعــة الاولى من هــذا الكتاب فى عــام ١٩٨٧ تلقينا الكثير من الملاحظات من الزملاء تدور كلها حول عدم حســن الصياغة وكثرة الاخطاء المطبعيــة التى حرفت بعض المعانى وشوهت بعض الافكار ، وكنا نأمل تلافيها فى الطبعة الثانية فلم نوفق اذ نفذت الطبعة من الاسواق قبل أن ننتهى من تلافى ما وقع فى الطبعة الاولى وكان أن صدرت الطبعة الثانية بكمية محــدودة حتى يجد الطالــب والطالبة الكتاب بين أيديهم مع بداية الفصل الدراسى الثانى من عــام ١٩٨٨ ٠ وهانحن نحاول هــذا المرة ان نخرج الكتاب بصــورة لائقــة نأمل انا تحوز على بعض الرضا من القارىء أيا كان ٠

ولقد ادخلنا على هذه الطبعة بعض الاضافات التى نعتقد انهــا ضرورية أو تلقى الضوء على بعض الافكار فى مجال علم الانسان ٠ فى الوقت الذى استبعدنا فيها بعض الصفحات من كل الفصول تقريبــا فى محاولة لتكون هذه الطبعة اكثر دقة واكثر بعدا عن التكرار ٠

ونشكر للزملاء اهتمامهم وتشجيعهم ٠ ونأمل من الله التوفيــق دائمــا ٠

سعيد الغامدى

جده فى ١٤١٠/١/١هـ

الفصـل الأول

مدخـل الى الانثروبولوجيـــا

• كتب هذا الفصل الدكتور / سعيد فالح الغامدى .

تعريف الانثروبولوجيـــا :

.. قبل ان نعرف الانثروبولوجيـا من حيث نشاتهـا ومجالهـا وخصائصها لابد من العودة بالخيال الى تلك المرحلة الاولى من مراحل العلاقة بين الانسان والطبيعة . مع التاكيـد على الاعتماد فى هـذا الاسترداد التاريخى على حقائق دينية وعلمية فى المقام الاول ، والبعد عن تصورات الكتاب الذين اعتمدوا على الاساطـير والخرافـــات فى محاولاتهم لاعادة تصوير حياة الانســان الاول . فالواقع يؤكـد ان الحياة الاولى جمعت الانسان مع الحيوان جنبا الى جنب ، ولانستطيع فى تلك المرحلة ان نفرق بين حيــاة الانسان والحيـوان الا من حيـث التكريم الذى خص الله سبحانه وتعالى به الانســان على ماعداه مـن سائر المخلوقات . قال تعالى : «ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهـم فى البر والبحر » ([1]) . ومن حيث التقويم فى الصورة والهيئة قال تعالى « ولقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويـم » الى غـير ذلك من الآيـات الكريمة التى توضح تلك الفروق . ولاشك ان الانسان والحيوان عاشـا على الطبيعة كل منهما يقلد الاخر فى طريقة حصولـه على الغـذاء وطريقة تناوله ، ثم فى مقاومة الظروف الطبيعية او حتى فى محاولـة التكيف معها ، ومن ذلك التقليد مثلا مافعله قابيل عندما اراد ان يدفن جثة اخيه هابيل مقلدا الغراب قال تعالى « فبعث الله غرابا يبحث فى الارض ليريه كيف يوارى سوءة اخيه » ([2]) .

غير ان الانسان الذى اختصه الله بالعقل والوعى والقدرة عـلى فهم الامور استطاع ان يعدل فى مواقفة وسلوكه بما يتلائم مع حاجاته وبما يحقق له اقل قدر ممكن من الحياة التى تميزه عن الحيوان فعندما اكتشف الانسان ان الاغصان لاتحتمل وزنه ولاتضمن له عـدم مهاجمة الحيوان له وافتراسه ، نزل عنها واستبدلها بالكهوف ، وعندما وجـد

---

(١) سورة الاسراء آية رقم ٧٠ .
(٢) سورة المائدة آية ٣١ .

ان الوحوش تهاجمه ليلا ونهارا بدا يفكر فى ايجاد ما يحقق له الحماية ويضمن له البقاء فكانت العصى والسهام الرماح وسيلتـه الى ذلك • وعندما وجد ان أكل اللحوم بنفس الطريقة التى تاكلها بها الحيوانات لاتلائمه ، بدا يستخدم النار من اجل اعداد الطعام ، وعندما وجد ان عورته مكشوفة وادرك أن فى ذلك اساءة له بدا يسترها بأوراق الشجر • وهكذا استطاع الانسان ان يميز نفسه عـن الحيوان بطرق واساليـب مختلفة ومتعددة •

ولم يات ذلك بطبيعة الحال فى فترة وجيزة وانما ظل الانسان يطور نفسه عن طريق العقل حتى أصبح لايمت للحيوان بصلة الا من نواح بيولوجية •

ولقد اعتمد الدارسون لثقافات المجتمعات الانسانية على الحفريات والاثار ليستخلصوا منها شواهد يعيدون بواسطتها تصوير حيـاة تلك المجتمعات وقد كان ذلك ممكنا الى درجة كبيرة بالنسبة للمجتمعـات ذات الحضارات القديمة والتى توفرت عنها وثائق مادية تسهم فى أمكان اعادة تصوير الحياة الاجتماعية والثقافية • ولكن معظم المجتمعـات الانسانية ـ وخاصة فى الفترات التاريخية البعيدة لم نتوفر عنها مثـل تلك الوثائق ، ولذا لجأ أولئك الى الاعتماد على شواهد غير مباشـرة لتحقيق ذلك الهدف • ومن تلك الشواهد : المصنوعات • ولسنا هنـا بصدد اثبات صحة تلك الوسيلة من عدمها • لكننا فقط نذكر بأنهـا الوسيلة الوحيدة التى يمكن بواسطتها اعطاء صورة أو صور متعـددة عن حياة المجتمعات الانسانية عبر مراحل تاريخية مختلفة • ولازلنـا حتى الآن نسمع بالكشف عن آثار قديمة فى مناطق مختلفة من العالم، ومن بينها المملكة العربية السعودية • ويعكف علماء الاثار والحفريات على دراستها وتحديد تاريخها وبواسطتها يمكننا ان نتعرف عـلى نمط الحياة فى تلك الفترة التاريخية •

ولم يتوان الانسان عن البحث والتنقيب والكشـف والاختراع ،

ذلك لان العقل المميز الواعى لم يتوقف عن التفكير والمتابعة وربط الاسباب بالمسببات • وعلى الرغم من تقدم الانسان الهائل فى مجالات مختلفة الا انه لم يحاول الكشف عن نفسه الا فى فترة متاخرة نسبيا ، ويبدو انه انشغل بما حوله ونسى نفسه ، لكنه عندما لاحظ المشكلات التى يعانى منها الانسان بصفة عامة • ادرك انه فى حاجة الى دراسة النفس الانسانية او على الاصح « دراسة الانسان نفسه » •

ولم يتوان الباحثون فى الفلسفة وعلم النفس عن تقديم الجهود التى لانستطيع نكرانها ، وهم يحاولون الكشف عن كنه الانسان من اجل توفير الحياة المستقرة له والتى فى ظلها يستطيع الاستمرار والبقاء والعطاء من اجل الانسان فى كل مكان وزمان • ولكنهم ركزوا على جوانب واهملوا اخرى او ان علم النفس اعتمد فى منهجه واسلوبه على الفرد واهمل المجتمع مثلا • ولذا كان لابد من وجود علم يهتم بالفرد والمجتمع على حد سواء • ويدرس الانسان من كل الجوانب • فكان علم الانثروبولوجيا الذى حقق ذلك الهدف • او هو اقرب الى تحقيقه • وان كان الانثروبولوجيون القدامى قد ركزوا اهتمامهم فى دراسة المجتمعات والثقافات البدائية واتخذوا من سكان استراليا الاصليين مجالا ونموذجا لدراستهم ([1]) ، فان المحدثين منهم وخاصة اولئك الذين يهتمون بالثقافات العديدة والمختلفة قد ركزوا كل اهتمامهم بالمجتمعات المعاصرة ، على اعتبار ان الجانب الاكبر من الثقافات البدائية قد اختفى او ابيد تقريبا كما هو الحال بالنسبة للهنود الامريكيين • او لان الثقافات البدائية قد تغيرت جذريا بسبب

---

(١) لمزيد من الايضاح انظر : لوسيى مير • مقدمة فى الانثربولوجيا العامة • ترجمة د• شاكر مصطفى سليم دائرة الشؤون الثقافية والنشر : الطبعة الرابعة ١٩٨٣ الفصل الاول والثانى •
وانظر ايضا :
Broce. G. history of Anthropology. Mennecpiolis U.S.A. 1973. p. 162

المد الحضارى الحديث ، واصبح هؤلاء يهتمون باساليب الحياة المختلفة فى المجتمعات الحديثة ، ومن ضمن تلك الاساليب نشاة الفرد، وكيف يعيش مع الاخرين ؟ كيف يفكر ؟ وماذا يفعل ؟ وماذا يحب وماذا يكره ؟ وماهو سلوكه الى غير ذلك من الامور المرتبطة بحياة الانسان اليومية . وبما ان الامر كذلك فيبدو ان الانثروبولوجيين اخذوا تعريف هذا العلم ماخذ الجد ، ولم يحاولوا الخروج عليه فى الشكل والمضمون . فكلمة انثروبولوجى تتكون من كلمتين اغريقيتين دمجتا معا لتعنى (علم الانسان) فكلمة (Anthropos) معناها الانسان (Logos) معناها العلم فاصبحت كلمة (Anthropology) تعنى علم الانسان أو دراسة الانسان . ومن هنا انطلق الباحثون فى دراسة المجتمع الانسانى بالتركيز على الانسان فى كل مكان .. وفى حين لايزال الالتباس قائما لدى الكثيرين الا ان الرؤية واضحة لدى الانثروبولوجيين فهم يعرفون كيف يبداون ... دراساتهم وماهى المناهج المناسبة التى يستخدمونها، وما الموضوعات التى يمكن ان يولوها عنايتهم واهتماماتهم والتى يرون انها تفتح الافاق امامهم للدراسة والبحث العلمى الجاد . ولم تعد الانثروبولوجيا ذلك المفهوم السائد لدى البعض ـ خاصة بدراسة المجتمعات البدائية ـ او بدراسة وحدات اجتماعية محددة ، او ينحصر اهتمامها بالوصف او المقارنة وحدها بل تجاوزت ذلك الى ما هو اشمل واعم فاصبحت اليوم تشمل المدينة والقرية جنبا الى جنب . ولم ينشا ذلك من فراغ او بمحض الصدفة وانما اعتمد على اساس منطقى ومنهجى ظل الرواد فى هذا الميدان يسعون لتطويره وتوسيع دائرته بما يتناسب مع طموحاتهم واهدافهم التى تنحصر فى خدمة قضايا ومشكلات الانسانية عن طريق معرفة الارتباط والتداخل بين قضايا المجتمع وظواهره ثم تقديم صورة كاملة عن هذا وذلك ثم تقديم الاراء والمقترحات التى يمكن ان تسهم بفعالية فى علاج المشكلات الاجتماعية ورسم السياسة الاجتماعية المثلى .

نشـــاة الانثروبولوجيـــا :

لا أحد يستطيع أن يقول أن دراسة الانسان وثقافته حكرا عـلى العصر الحديث ، بل يمكن القول وبموضوعية أنه لم يخل تاريخ الانسان من اهتمامـات مختلفـة بدراسـة الانسـان والثقافـة فى المـاضى ، بصرف النظر عن نوعية الانسان والثقافة ، ولقد كان الاهتمام بمثـل ذلك فى العصور الماضية يتمثل فى اهتمام أولئك بالاساطير والحكايات ذات العلاقة بالدين ، ومن ضمن تلك الشواهد أساطير خلق الانسان ، أو محاولات الانسان البدائى فى تحقيـق بعض الانجازات الثقافيـة كاكتشاف النار مثلا ، أو انتاج بعض الادوات التى تساعد فى الصيـد أو أعداد الطعام وانتاجه . الى غير ذلك من الامـور التى تبرز بعض الاهتمامات بالانسان والثقافة .

أما بعض الشعوب القديمة التى ساد فيها التعليم والتى يطـلق عليها (الشعوب المتعلمة) فقد قدمت لنا تراثا شعبيا يتمثل فى قصص الاغريق واساطيرهم عن أصل النار وأصل الزراعة ، ومن أبرز المفكرين الاغريق «هيرودوت» الذى عاش فى القرن الخامس قبـل الميلادحيث قدم بعض الفروض حول «لغـة الانسان» (١) . وتمثـل مؤلفـات «هيرودوت» ... بالاضافة الى ماتبعها من مؤلفات قديمـة المحاولات الاولية التى تختص بدراسة الانسان والثقافة من حيث الشـكل عـلى الاقل .

ومنذ القرن الخامس عشر الميـلادى ـ وهـو عصر الاكتشافـات الكبرى بدات تتراكم كميات كبيرة من المعلومات عن الانسان ، وتجمع ذلك الكم عن طريق الرحالة والمبشرين والجنود والتجار ، وامتزج فى ذلك الكم القليل من الحقائق والكثير من الحكايات ، مما يمكن القـول

---

(١) رالف بيلز وهارى هويجر ، مقدمة فى الانثروبولوجيا العامـة . «الجزء الاول» ترجمة / محمد الجوهرى والسيد الحسين ـ دار نهضة مصر للطبع والنشر القاهرة ١٩٧٦م ص ٢٧ .

معه بأن ثقافة الانسان تعرضت لكثير من التشويــه والتحريف تبعـا لتأثر الرواه بميولهم الثقافية ، بحيـث ينظر كل منهـم الى ثقافـات الشعوب الاخرى من منظار ثقافة مجتمعه ويتعصب لها ، وعلى الرغم من ذلك فان المادة التى جمعت خلال تلك الفتـرة اعتبرت الركيـزة الاولى التى نهض عليها علم الانثروبولوجيا الحديث .

وخلال النصف الاول من القرن التـاسع عشر ، بـدأ عدد مـن الدارسين يعكفون على دراسة البقايا العظميـة التى عثر عليها فى عدد من الجهات فى اوروبا ، معتمدين فى ذلك على التقـدم الذى احرزتـه الدراسات الجيولوجية وعلم الاثار والحفريات ، وكان لتلك الدراسات الفضل فى تحديد «عمر الارض» والتى رجحت أن الحياة على الارض تعود الى فترات تاريخية ابعد من تلك التى تصورها القدماء ، وقـد كان «بوشيه دى بيرت» الفرنسى أول من قال بوجود الانسان فى أوربـا منذ العصر الجليدى حيث عثر فى عام ١٨٣٠م على ادوات حجرية فى وادى سوم ، وعكف على دراستها ونشر نتائجهـا فى الفترة بين عـام ١٨٤٧/١٨٦٤م . وفى عام ١٨٦٥م نشر «جون لوك» دراسـة أوضـح فيها ولاول مرة الفرق بين ثقافة الانسـان فى العصر الحجرى القديـم وثقافته فى العصر الحجـرى الحديث وفى المانيـا وخلال نفس العـام ١٨٦٥م اكتشفت بعض البقايا العظمية للانسان الى جانب بعض مـن عناصر الثقافة المادية ، وكانت أول دليل مباشر على وجود الانسـان القديم فى المانيا وهو ماعرف باسم انسان «نياندرتال» (١) نسبة الى القرية التى عثر عليه فيها ... وقد أكدت تلك الاكتشافات الثقافيـة والعظمية وجود الانسان فى أوروبا منذ عصر سحيـق ، وكانت أيضـا بمثابة ركيزة أخرى نحو قيام علم الانسان الحديث ..

وقد أدى التراكم التدريجى للمعلومات عن الانسان وثقافته الـى نتيجتن :

---

(١) رالف بيلز وهارى هويجر . مقدمة فى الانثروبولوجيا العامـة . مرجع سابق ص ٢٨ .

(١) بذل جهود علمية لتصنيف الانسان ، وتحديد موقعه فى المملكة الحيوانية وتحديد سلالته وبيان تاريخ تطوره .

(٢) قيام علم مقارن لدراسة الثقافة الانسانية .

وفى الفترة مابين عام ١٨٦٥/١٨٩٠م تطور مجال الدراسات المقارنة .. للثقافات نتيجة زيادة المعلومات عن مختلف شعوب الارض ونتيجة لتطور علم الاثار الذى ساهم فى تطور علم الانسان ، وكان من ابرز علماء تلك الفترة «ادوارد تايلور» الذى نشر مؤلفه الهام فى هذا المجال «الثقافة البدائية» عام ١٨٧١ م فى بريطانيا . ثم «لويس مورجان» الذى نشر كتابه بعنوان «المجتمع القديم» عام ١٨٧٧م فى الولايات المتحدة الامريكية . وتلاهما كل من «هنرى مين» و «باخوفين» الاول فى بريطانيا والثانى فى المانيا حيث كتبا عن تطور النظم السياسية والقانون . ويبدو أن الهدف الذى سعى اليه هؤلاء وغيرهم من علماء القرن التاسع عشر فى مؤلفاتهم ودراساتهم ينحصر فى محاولة اكتشاف القوانين السيكولوجية التى ينطوى عليها التاريخ البشرى والتى تحدد مساره كما هو واضح من كتاب Tylor الثقافة البدائية وكتاب Morgan المجتمع القديم .

ومع مطلع القرن العشرين بدأت تتضح ملامح الدراسات الانثروبولوجية الحديثة الفيزيقية والثقافية على السواء ، حيث أصبحت الانثروبولوجيا تخصصا أكاديميا معترفا به واصبحت مادتها تجمع عن طريق الباحثين المدربين ميدانيا وقد اتسع ميدان الانثروبولوجيا اتساعا كبيرا واسهمت اسهاما بارزا فى اثراء العلوم الاجتماعية بصفة عامة ، ويمكن تلخيص هذا الاسهام فى القول بأنها اسهمت فى توضيح مفهوم السلالة أو العنصر مما كان يسوده من خلط بين مفهوم اللغة والقومية والثقافية فى الماضى ، كما أوضحت مفهوم

الثقافة الذى اصبح اليوم محور الفكر المعاصر .. [1] .

ويمكن القول بان الانثروبولوجيا لم تبدأ فى معناها الحقيقى الا فى منتصف القرن التاسع عشر مرتبط بالحركة الاستعمارية ، وخاصة الاستعمار البريطانى حيث بدأ الباحثون الانثروبولوجيون بدراسة الشعوب المستعمرة للتعرف على طبائعها وخصائصها والاستفادة من نتائج تلك الدراسات أما فى احكام السيطرة الاستعمارية عليها بمعرفة موطن ضعف المجتمع ثم رسم سياسة التعامل معه واما فى تعديل بعض الاوضاع لتصبح ملائمة لطبائع الشعوب وبالتالى استمرار الاستعمار ، ويبدو أن الفضل فى اتساع الامبراطورية البريطانية يعود ولو فى جزء محدود الى البحوث والدراسات الانثروبولوجية بطريقة او بأخرى .

مجالات الانثروبولوجيا :

بدأت المحاولات الفعلية للاستفادة من الانثروبولوجيا بعد الحرب العالمية الاولى حيث ارتبط أول استخدام عملى لها ، «ادارة شئون المستعمرات » حيث نجد ادارات للمستعمرات البريطانية والفرنسية والهولندية ، تستخدم وعلى نطاق واسع الدراسات الانثروبولوجية كما استخدمت الحكومة الامريكية هذا النوع من الدراسات فيما يتعلق بتقديم الخدمات المطلوبة للهنود الحمر وكذا فى المناطق التابعة لها فى المحيط الهادى ، وذلك وفقا لخصائص وثقافة تلك المجتمعات . وفى الوقت الحاضر نجد أن نتائج الدراسات الانثروبولوجية بدأت تفيد فى مجالات أخرى كالصناعة وخاصة العلاقة بين الادارة والعمال ، وفى مجالات العمل المختلفة ، كما انها مفيدة الى درجة كبيرة فى مشروعات الاسكان والتوطين وكذا تنمية المجتمع المحلى والتنمية الاقتصادية . كما انه يمكن الاستفادة من اساتذة الانثروبولوجيا والباحثين فى دراسة

---

(١) انظر فى ذلك :
Pelto, P. Anthropological ressarch. New Yourk 1970 Page 18.

جوانب مختلفة كالمشروعات الصحية ، وعمليات التكيف فى المجتمعات التى تتجه نحو التصنيع وخاصة تلك المجتمعات التى تعتمد على عمالة بدوية وريفية ٠

٠٠ وعلى الرغم من اتساع النطاق التطبيقى للانثروبولوجيا - وهو ما حاولنا اختصاره هنا - الا ان أغلب المتخصصين فيها لايزالون يقتصرون على عملهم الاكاديمى فى الجامعات او فى معاهد البحوث اذ لايجدون لهم اماكن فى مجالات العمل الوظيفى الا نادرا لاعتقاد البعض ان الانثروبولوجيين لايستطيعون القيام بأعمال الوظائف العامة نتيجة لان المفهوم التقليدى للانثروبولوجيا لايزال غامضا فى اذهان الكثير من الناس على الرغم من التطور الهائل الذى شهدته الانثروبولوجيا من حيث المنهج والتطبيق والمجال فى الاونة الاخيرة والذى يجعل المتخصصين فى هذا العلم ذوى كفاءة جيدة فى القيام باعمال ووظائف مختلفة ٠

علاقتها بالعلوم الاخرى :

ولا أحد يستطيع ان يدعى ان الانثروبولوجيا هى العلم الوحيد الذى يدرس (الانسان) فلعم الاجتماع وعلم النفس والبيولوجيا أيضا علوم تهتم بدراسة الانسان ، ولكن وجه الاختلاف بين هذه وتلك يكمن فى ان الانثروبولوجيين خطوا خطوات ابعد من تلك التى تتضح فى علم الاجتماع او علم النفس مثلا ٠ وهى انهم فى دراسة الانسان يتعاملون معه كعنصر ثقافى حى) ومن خلال نظرة شاملة فالانثروبولوجيا تبحث دائما أصل السلوك الانسانى الشامل دون التركيز على السلوك الفردى ٠ هذا بالاضافة الى تميزها بالمنهج والادوات ٠ وفى الوقت الذى يبحث علم الاجتماع عن العموميات أو يعتنى بدراسة العموميات Generaiceation نجد أن الانثروبولوجيا تعتنى بحالات Particular Case ومن ناحية ثانية فانه يمكن القول

بأنه ان كان علم النفس يدرس الجوانب الداخلية للانسان كالشعور ويدرس علم الاقتصاد مايمكن تسميته (بالسلوك الاقتصادى) ويدرس علم الاجتماع السلوك الانسانى فى المجتمع ، وتدرس البيولوجيا وظائف الاعضاء ، ويدرس علم السياسة الانشطة ذات الطابع السياسى ، الا ان هذه العلوم تنطلق من تعميم على اساس ماسميته بوحدة الطبيعة الانسانية Human Unity لكن هذه الطبيعة الانسانية التى كانت الاساس فى تقنينات عديدة فى العلوم المختلفة المرتبطة بالانسان وسلوكه ، هى فى الحقيقة شىء غامض . فنحن لانعرف انفسنا حق المعرفة ، لكننا نتحدث عن شىء اسمه الطبيعة الانسانية ونؤكد عليها بما نذهب اليه من تعميمات عن سلوك الانسان . ولعل ذلك له علاقة بالحقيقة التى تقول بوجوب عمومية النظرية ، وضرورة اختبارها على مستويات اجتماعية مختلفة حتى تكتسب المزيد من التأييد والثبات . وبذلك يمكن ان نقول بأن الانثروبولوجيا يمكن ان تسهم فى علوم جديدة بما يمكن ان تقدمه فى مستويات مختلفة اجتماعية وثقافية وجغرافية ايضا عن (طبيعة الانسان) .

كما ان هناك جوانب تغفلها معظم العلوم والتى ترتبط بتخصصاتها وفى نفس الوقت لاتشكل جزءا فى دراستها . فمثلا الطب العلاجى ، لايعير الطب الشعبى اهتماما ، ولايعطى للسحر واساليبه اية اهمية ، كما ان علم النفس لايقدم تفسيرا واضحا عندما يسقط الفرد مريضا ويعتقد انه تعرض لعملية السحر ، فى حين ان ذلك يعتبر طرفة يضحك منها البعض . كما ان دارسى القانون يهتمون فى دراساتهم بالقوانين المرتبطة بحياة المجتمع ويسعون للمحافظة على النظام ومقاومة الجريمة ، ولكنهم لايقدمون لنا تفسير عندما تتحول الجريمة نفسها الى هيكل نظامى له قوانينه الخاصة . ولكن الانثروبولوجيا وحدها تعتنى بذلك كله ، ولذا فانها تحتل موقعا وسطا بين مختلف العلوم ، فهى بالاضافة الى تخصصها فانها تتناول الجوانب

التى تغفلها معظم العلوم المتخصصة . وهى ايضا تمد الباحثين فى الفروع المختلفة بالكثير من الحقائق التى يمكن ان تكون اساسا للمقارنة وموضعا لاختبار صحة وعمومية مايتوصلون اليه من قوانين (١) .

والنظرة الشمولية هى ميزة خاصة للانثروبولوجيا عن غيرها من العلوم التى تعنى بدراسة الانسان . وهى مرتبطة بالمنظور الوظيفى فى الدراسات الانثروبولوجية الذى يرتكز على الاعتماد المتبادل بين الظواهر الاجتماعية وينظر الى المجتمع كوحدة تتكامل داخلها الاجزاء والتى تتبادل التاثير فيما بينها . فاذا كان الاقتصادى يمكن ان يدرس على حدة عملية الانتاج او عملية التوزيع ، فان الانثروبولوجى يتناول نفس الموضوع بالدراسة ولكن ليس على اساس ان عملية الانتاج عملية جزئية فى نظام اكبر هو النظام الاقتصادى بعملياته المختلفة من انتاج واستهلاك وتوزيع وتبادل وغيرها فقط ، ولكنه يربط بين تلك العملية والمجتمع بنظمه المختلفة كالنظام السياسى والاقتصادى والقرابى وغيرها على اساس ان هناك تاثيرات متبادلة بين هذه النظم وعملية الانتاج . ومعنى ذلك ان الانثروبولوجيا عندما تدرس اى نشاط انسانى فانها تسلك اتجاها مختلفا عن غيرها من العلوم ، اذ ان لها مفهومها المحدد الذى مؤداه : انه لايمكن فهم سلوك او ظاهرة فهما صحيحا بعيدا عن الكل الذى يتضمن ذلك السلوك او الظاهرة . وعلى هذا فان الانثروبولوجيا تقدم تفسيرا متكاملا للسلوك او الظاهرة ، وتستعين من اجل ذلك بكثير من التخصصات التى لاتنتمى اليها ، حيث تلاحظ ان الباحث الانثروبولوجى يستعين فى سبيل تحقيق هذا الهدف ببيانات من علوم اخرى كعلم النفس والاقتصاد والفسيولوجيا والايكولوجيا وغيرها من العلوم الاخرى . كما ان المنهج وطريقة الدراسة وادواتها تعتبر من اهم مايميز الانثروبولوجيا عن غيرها من

---

(١) انظر الفصل السادس عشر الانثروبولوجيا التطبيقية من كتاب (لوسى مير) ص ٣١٧ ومابعدها مرجع سابق .

العلوم • فالدراسات الانثروبولوجية تتميز بطريقة خاصة فى البحث الذى يميزها بلا جدال عن غيرها من التخصصات والفروع الاخرى بما فى ذلك علم الاجتماع الذى يقترب منها كثيرا بالمقارنة بغيره من الفروع وهذه الطرق ترتكز اساسا على البحث الحقلى •

وكذلك استخدام المنهج المقارن ، فاذا كانت العلوم الطبيعية يتوافر لها امكانية اعادة التجربة المعملية ويتوافر لها امكانية اعادة التجربة ، والحصول على الظروف المناسبة لها معمليا • فان الانثروبولوجيين قد ابتدعوا الطرق الحقلية لتحل محل التجارب المعملية اذا جاز هذا التعبير •

فعندما يريد الباحث الانثروبولوجى بحث نظرية معينة فانه يبحث عن بعض المجتمعات التى تتوفر فيها العوامل اللازمة لاختيار هذه النظرية كما يستعين الباحث الانثروبولوجى فى نفس الوقت بالكتابات السابقة فى هذا الموضوع وماتم التوصل اليه وهنا فان الباحث الانثروبولوجى يلتزم طرقا معينة فى البحث تقتضى الاقامة بمنطقة البحث واستخدام الملاحظة بالمشاركة •

واذا كنا قد اشرنا الى اهتمام الانثروبولوجيا بتسجيل التشابه والاختلاف وقلنا انها تمد العلوم المختلفة بمعيار لاختبار نظرياتها من خلال ماتصل اليه من قوانين ومع ما توفره من بيانات ومعلومات •

ولذلك فان الانثروبولوجين عمدوا الى دراسة ومقارنة الظاهرة فى اكبر عدد ممكن من المجتمعات البشرية سواء المجتمعات القديمة أو الحديثة ثم قارنوا بين ماتوصلوا اليه من حقائق من خلال هذه الدراسات عندما ارادوا التوصل الى خصائص الجنس البشرى الفيزيقية ، وهذا هو مايفعله دارسو الثقافة أيضا فى محاولتهم التعرف على سمات السلوك الانسانى •

اقســـام الانثروبولوجيـــا وفروعهـــــا :

وكما لاحظنا فى السابــق من تنــوع الاهــداف والمجالات لعلــم الانثروبولوجيا حيث انه علم متميز بين العلــوم الانسانية يمكــن ان تستخدم نتائج دراساته وابحاثه فى ايجــاد الحلول لكثير من قضــايا المجتمع ومشكلاته ، كما يمكن ان تساهم تلك النتائج فى تنمية المجتمع وتطويره عن طريق الاستفادة منها فى رسم السياسة الاجتماعية بصفــة عامة ، وجدير بعلم يمتلك تلك الصفات المميزة ان تتعد فروعه واقسامه تبعا للحاجة اليها فى مجالات مختلفة ، ونظرا لما للانثروبولوجيا مــن اهمية فقد اتجهت الجامعات الكبرى فى كل من بريطانيــا واوربا وكذا الولايات المتحدة الامريكيــة ومصر الى انشــاء اقســام متخصصــة فى الانثروبولوجيا ووفرت لها كل الامكانات المطلوبــة المادية والبشريــة التى تؤهلها للقيام بالمهام التى أسست من أجلها ٠٠ ومن خلال التطور الذى شهدته وتعدد المجالات التى اشرنــا اليها فانه يمكن القول بــأن هناك اتفاقا على تقسيم الانثروبولوجيا فى الوقت الحاضر الى قسمــين رئيسيين هما :

(١) الانثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية ٠

(٢) الانثروبولوجيا الفيزيقيــة ٠

ويتدرج تحت كل فرع من هذين الفرعين الكبيرين الكثير من الفروع الاخرى ذات الصبغة المحــددة والتخصصــات الدقيقــة ٠ وحيــث ان الكتاب الثانى من هذه السلسلة سيخصص بكامله لموضوع الانثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية مع الاشارة بتوسع محدود الى الفرع الثانى ، على أمل أن يخصص لهذا الفرع فى المستقبل القريب كتابا ثالثا ٠ لذا فانــه يمكن عرض الاقسام والفروع هنــا بطريقة مختصرة تفيد المبتدئــين فى الدراسات الانثروبولوجية وتفتح لهم الطريق نحو المزيد من القراءات والاطلاع فى هذا المجال الحيوى الهام ٠٠٠ وطالما ان هدف هذا الكتاب

كذلك فانه يمكن ان نعرض للقسم الاول على النحو التالى :

الانثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية هى التى تهتم بصفة اساسية بدراسة تاريخ واصول الثقافات والمجتمعات الانسانية من حيث نموها وتطورها ، كما تدرس البناء الثقافى للمجتمعات وأدائه الوظيفى فى كل مكان وزمان حيث أن الانثروبولوجيا الثقافية تهتم بالثقافة ذاتها فى الماضى والحاضر ومن خلال الثقافة يستطيع الانثروبولوجيون الكشف عن التأثير المتبادل بين البيئة الطبيعية والانسان من خلال تفاعلات المجتمعات مع بعضها البعض . ومن خلال محاولات الناس الحياة والعمل فى آن واحد (١) . ويمكن أن تكون دراسة الانثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية ذات جانبين :

الاول : الدراسة المتزامنة اى دراسة المجتمعات والثقافات عند نقطة معينة من تاريخها ، والثانى : الدراسة التتبعية والتاريخية أى دراسة المجتمعات والثقافات الانسانية عبر التاريخ . وعلم الاثار هو العلم الذى يضطلع بالقيام بهذا النوع من الدراسات من خلال تركيزة على الثقافات والمجتمعات القديمة وكذا بدايات الحضارة الحديثة . حيث يحاول علماء الاثار اعادة رسم صورة الاشكال الثقافية القديمة ثم تتبع نموها وتطورها عبر الزمان (١) ولايغيب عن الذهن ان الجانب الكبير من معرفتنا عن تاريخ المجتمعات القديمة يعتمد على تلك الوثائق التى كتبها افراد عاصروا احداث تاريخية وكتبوا عنها . ومن خلال تلك الاحداث التاريخية ... يمكن ترتيبها حسب السياق التاريخى ، ثم ربطها ببعض للتعرف على طبيعة المجتمعات التى كتبت عنها تلك

---

1) Ernestne, Fried : Vasilika Avillage in madern Greece. by Rinchart and winston. Inc. New York. 1982 p.p. 21-80.

(١) رالف بيلز . مقدمة فى الانثروبولوجيا العامة . مرجع سابق ص ٢٢ .

الوثائق . كما يمكن لعالم الاثار اعادة رسم صورة الثقافات القديمة مستعينا بالاثار المادية الى جانب الوثائق التاريخية ، فقد يعثر عالم الاثار على بعض الكهوف والملاجىء او على بعض الادوات والاسلحة للانسان القديم ، أو على بعض الرسوم أو النقوش أو على اطلال المنازل والمعابد ، ومن خلال كل ذلك يتمكن من وصف جوانب الثقافة القديمة وربطها بالبيئة الطبيعية لذلك الانسان ، ولاشك أن السياق التاريخى الذى عن طريقه يعيد عالم الاثار رسم صور الثقافات القديمة ـ غير المكتوبة ـ لايرقى الى نفس الدرجة من الدقة التى نستطيع الوصول اليها من خلال دراسة آثار الشعوب والمجتمعات المتعلمة التى تركت لنا اثارها وتاريخها مكتوبا . ومن خلال ما تقدم يمكن ان نعرف أين ومتى ظهرت الثقافة لاول مرة . كما نتوصل الى قدر من المعرفة بتطور الثقافات البشرية ، ومن خلال ذلك يمكننا من معرفة تعاقب الانماط الثقافية المختلفة مثل مجتمعات الالتقاط فالصيد فالمجتمعات الزراعية . كما امكننا ان نعرف ان تطور الثقافة لم يسر على نمط واحد أو بسرعة واحدة فى كل المجتمعات الانسانية ، فعلى الرغم من ان جميع الثقافات التى نعلمها الان قد تعرضت لتغيرات هائلة منذ ظهور الانسان البدائى منذ نحو (مليون سنة) الا أن هذه التغيرات كانت تسير بخطوات سريعة عند بعض المجتمعات فى حين لم تكن كذلك لدى مجتمعات أخرى ...

وعندما يقدم لنا علم الاثار كل ذلك فان مهمته تنتهى حيث تبدأ مهمة الاثنولوجيا Ethnology وهى ذلك الفرع الذى يهتم بتصنيف الناس على اساس خصائصهم الثقافية والسلامية الى جانب الاهتمام بتحركات الافراد ، وانتشار السمات الثقافية . ثم الدراسة المقارنة لتلك الثقافات وبحث المشكلات النظرية التى يمكن أن تنشأ من خلال تحليل العادات الانسانية وعلى هذا الاساس فان الاثنولوجيا تهتم بالثقافة نفسها دون البناء كما تهتم بالتفسير الى جانب

الوصف ([1]) . وعلى ذلك فان الاثنولوجى يهتم بدراسة ووصف الثقافة فى كل مكان من العالم ليس فى المجتمعات القديمة فقط بل حتى فى القرى والمدن الحديثة ، ويجب ان ندرك ان ثقافة الانسان تختلف من مجتمع لاخر بنفس الاختلاف بين فترة تاريخية واخرى . فلكل مجتمع او لكل منطقة ثقافة خاصة بها فعادات أوروبا مثلا تختلف عن عادات شعوب آسيا ، وكذا تختلف عادات شعوب افريقيا عن عادات امريكا وهكذا .. وتهتم الاثنولوجيا اهتماما كبيرا بتفسير أوجه التشابه والاختلاف بين الثقافات الانسانية .

وقد يتناول الباحث ذلك تاريخيا فيحاول ان يلتمس فى تاريخ شعب معين وخاصة فى حالة اتصاله او عدم اتصاله بشعوب اخرى . اسباب أوجه التشابه والاختلاف ، وقد يعمد الى المقارنة المنهجية المنظمة بين الثقافات رغبة فى الوصول الى تحديد بناء تلك الثقافات وكيفية ادائها لوظائفها .

وقد تقوده تلك الدراسات الى تفسير لاوجه التشابه الواسعة الانتشار والى أوجه الاختلاف النوعية ، وكذلك فان الدراسات المسحية المقارنة للثقافات الانسانية ماضيها وحاضرها تساعد على تفسير العمليات التى تغيرت بموجبها الحضارات البشرية فى الشكل ، وكذلك القيام بتحليل لبناء المجتمعات البشرية وادائها لوظائفها .

وان كل مثل هذا النوع من الدراسات يتدرج تحت الانثروبولوجيا الاجتماعية وليس الثقافية ([1]) .

---

(١) محمد عاطف غيث . قاموس علم الاجتماع . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٩ ص ١٦٤ .

(١) رالف بيلز . مقدمة فى الانثروبولوجيا العامة . مرجع سابق ص ٢٥ .

ويمكن ان نجيب على هذا التساؤل بالقول : اول من استخدم مصطلح الانثروبولوجيا الاجتماعية هو «جيمس فريزر» فى محاضرة القاها فى جامعة «ليفربول» فى مايو عام ١٩٠٨ . وهو بهذا ميزها عن المفهوم القديم الاثنولوجيا Ethrology وكان عنوان محاضرته مجال الانثروبولوجيا الاجتماعية .The Scope of Social Anthropology

حيث حدد «فريزر» مجال دراسة الانثروبولوجيا الاجتماعية فى محاولة الكشف عن «القوانين العامة» التى تحكم الظواهر الاجتماعية بحيث تفسر ماضى الانسان وتجعل من الممكن تحديد ملامح مستقبله استنادا الى القوانين الاجتماعية العامة التى تنظم تاريخ الانسان . ذلك ان الطبيعة البشرية تتسم بأنها واحدة وان أختلف الزمان والمكان

ويرى «فريزر» ان الانثروبولوجيا الاجتماعية دراسة من نوع خاص . لانها دراسة تقوم على التجربة والفرض ، تجربة حقلية تستند الى فروض نظرية موجهة وعلى المشاهدة العلمية المنظمة ، ولذا كانت الدراسة الحقلية «Field work» عبارة عن محاولة تطبيق المنهج الاستقرائى «Inductive Method» وهو منهج فى أصله مرتبط بصلب مناهج العلوم الطبيعية (١) .

والدراسات الانثروبولوجية المعاصرة لم تعد تقتصر على المناهج التقليدية التى كان الاوائل يستخدمونها . بل يستخدم الباحثون الان مختلف المناهج التى تقوم على التجربة وتخضع للمشاهدة المباشرة . كما تتم دراسة النظم والانساق الاجتماعية استنادا الى الملاحظة والتحليل والمقارنة . ولعلهم فى ذلك يسيرون وفق تعريف « راد كليف براون » الذى عرف الانثروبولوجيا الاجتماعية بأنها :

---

(١) قبارى محمد اسماعيل ، الانثروبولوجيا العامة . منشأة المعارف الاسكندرية غير مبين سنة النشر ص ١٢ ، ص ١٣ .

« دراسة طبيعة المجتمع الانسانى دراسة منهجية منظمة تعتمد على مقارنة الاشكال المختلفة للمجتمعات الانسانية بالتركيز على الاشكال الاولية «المجتمع البدائى» (١) .

ولكن ينبغى ان نكون على حذر من الوقوع فى الخطأ الشائع حول مفهوم معنى المجتمع البدائى ، فليس المقصود به المعنى « التاريخى» اذ أن النظم البدائية لاتعنى تلك المراحل الاولية . فليس من المنطق أن نقارن معنى البدائية المحلية والتى غالبا ما نقصد بها « التقليدية » بالبدائية التي كانت فى تاريخ الانسان الحضرى الذى انقرض منذ فجر التاريخ ولعل هذا الخطأ الشائع مصدره مانتج عن المذهب الداروينى والتيارات التطورية التى التحمت بالدراسات الانثروبولوجية . اذ قارن الدارسون بين الثقافة فى مجتمعات افريقية واسترالية وثقافة المجتمع الاوروبى والامريكى . ولذا نظروا الى تلك الثقافة على انها « اشكال اثرية » وأن تلك المجتمعات عبارة عن «متاحف» وتلك نظرة خاطئة حيث أن الانسان الذى نطلق عليه اليوم صفة «البدائى» والذى يعيش فى مجتمعات مختلفة الان يمثل مرتبة عالية من التطور مقارنة بالانسان الحضرى القديم . كما أن للمجتمعات البدائية الحالية تاريخها وثقافتها التى ترجع الى آلاف السنين .

ومنذ حوالى ربع قرن تقريبا بدأ علماء الانثروبولوجيا الاجتماعية يوجهون اهتماماتهم نحو دراسة الدور الذى يؤديه الفرد فى المجتمع ونحو موضوع ارتباط نمو الشخصية بالتراث الثقافى فى محاولة للتوصل الى اجابات : ماهو دور الفرد فى بعض العمليات الثقافية ؟ وماهى الوسائل التى تحاول المجتمعات الانسانية من خلالها تشكيل الشخصية الفردية ؟ وماهى انواع السلوك المقبولة فى المجتمع والمرفوضة وفقا

---

(١) قبارى محمد اسماعيل ، الانثروبولوجيا العامة . مرجع سابق ص ١٤ .

للثقافة السائدة ؟ والى اى مدى يمكـن للفرد الابتعـاد عن السلـوك الثقافى المقبول وما الموقف ازاء ذلك ؟

ومن خلال هذه الدراسات استطعنا ان نتـزود بمعلومات اكثـر تحديدا عن عمليات نمو الثقافة واتساع نطاقها كما امكن التوصل الـى نظريات تساعد فى فهم الشخصية من حيث طبيعتها ونموهـا . ممـا يساعد على التوصل الى طرق افضل لتعليم الصغار وانتهاج اساليـب الضبط الاجتماعى الملائمة . وللانثروبولوجيا الاجتماعية مهمة تختص بدراستها وهى (السلوك الاجتماعى) الـذى يتشكل على هيئة نظـم اجتماعية كالاسرة والتنظيـم السياسى والقرابى على انها تركز عـلى العلاقة بين هذه النظم سواء فى المجتمعات المعـاصرة او القديمـة او التى يتوفر لدينا منها معلومات تاريخية . ونظرا لاتساع نطاق الدور او المهمة كما ذكرت التى يختص بها هذا الفرع فقد قسمت مجالاتهـا الى فروع مستقلة سميت بمجال اهتمام كل منها مثل :

(١) الانثروبولوجيا الاقتصادية .

(٢) الانثروبولوجيا التطبيقية .

(٣) الانثروبولوجيا السيكلوجية .

(٤) الانثروبولوجيا الطبيـة .

(٥) انثروبولوجيا التنميـة .

وقبل ان نشير الى بعض هـــذه الفروع بقـدر مانراه ضروريـا للتعرف على الانثروبولوجيا وفروعها نود ان نلقى بعض الضوء عـلى العلاقة بين الانثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية .. فهناك من يعـرف الانثروبولوجيا الثقافية بانهـا «الفرع الـذى يدرس الانسـان ككائن ثقافى ينتمى الى نمط ثقافى خاص متميز » فهى اذن تركز على الصيغة

الكلية للسمات الثقافية والعلاقة المتبادلة بين تلك السمات ([1]) .

ويمكننا التعرف بسهولة على الفرق بين هذين الفرعين ، اذا علمنا ان منشأ الانثروبولوجيا الاجتماعية كان على يد الباحثين البريطانيين، الذين بدأوا فى اجراء الدراسات والبحوث ـ كما ذكرت سابقا ـ على بعض الاقطار التى كانت مستعمرة بهم وخاصة فى افريقيا حيث هناك المجتمعات القبلية المحدودة العدد والمساحة الاقليمية ، مما مكن الباحث من معايشة تلك المجتمعات الصغيرة ودراسة العلاقات الاجتماعية التى تسود فيها .

وكذا التعرف طبيعة النظم السائدة فيها ، كالسياسية والاجتماعية والقرابية وغيرها ، ولذا فقد ساد الاتجاه البنائى وكان الطابع المميز للدراسات والبحوث البريطانية .

فى حين أن الاتجاه الانثروبولوجى الثقافى كان الطابع المميز للدراسات والبحوث الانثروبولوجية فى أمريكا وذلك لان مجتمعات قبائل الهنود الحمر فى أمريكا كانت تنتشر على مساحات شاسعة فى السهول والبرارى الامريكية مما جعل دراسة تلك المجتمعات بنفس الطريقة فى افريقيا امرا بالغ الصعوبة نتيجة الانتشار المكانى للهنود الحمر وعدم قدرة الباحث على الاحاطة بكل أنماط العلاقات الاجتماعية هناك من جهة ولتداخل الثقافات بين تلك المجتمعات المتناثرة من جهة ثانية ، ولذا انصرف الباحثون عن دراسة العلاقات الاجتماعية . كما فعل البريطانيون واتجهوا نحو دراسة الثقافة المتمثلة فى اللغة والدين والعرف والعادات والتقاليد والجوانب المادية الثقافية للهنود الحمر . وهكذا نلاحظ أن الفصل بين النوعية نشأ لظروف طبيعية ، خلقت فوارق بين مناطق الدراسة وبالتالى حددت سير ومجال الدراسات

---

(١) محمد عاطف غيث . قاموس علم الاجتماع . مرجع سابق ص٩٩

نفسها . ونشا عن ذلك اثراء فروع هذا العلم بالكثير من البحـوث ، والدراسات ذات الفائدة على المستويين النظرى والعملى ، مما سـاعد بشكل واضح على تقدم العلم بخطوات واسعة خلال فترة وجيزة [١].

الانثروبولوجيـا الاقتصـادية :

علم الاقتصاد اهتم بدراسة العمليات الاقتصادية ، هذه العمليات تعنى من وجهة نظر بعض الاقتصاديين : توزيع الموارد النادرة عـلى الاهداف المختلفة . بينما يـرى البعض الاخر شمول التعريف ليضـم الطاقة الانسانية ، والمهارات والمعرفة ، أمـا الاهداف فهى تعنى كل مايشبع الرغبة الانسانية .. اما الانثروبولوجيا فتهتم بدراسة بعـض الظواهر التى يوليها عالم الاقتصاد اهتمامـه ، واعنى بذلك انتـاج السلع والخدمات وتوزيعهـا واستهلاكهـا فضلا عن ذلك فـان عـالم الانثروبولوجيا يهتم بدراسة العلاقة بين هذه النظم والانساق الفرعيـة من ناحية وبين الجوانب الاخرى للنسق الاجتماعى الثقافى الكلى من ناحية اخرى [١].

ولقد ظلت العلاقة بين علم الاقتصـاد والانثروبولوجيا موضوعـا لجدل طويل ولايزال هـذا الجـدل مستمـرا حتى الان . فالنظريـة الاقتصادية الصورية تطـورت فى المجتمعـات الغربية وقـد استطـاع الاقتصاديون تطوير نمـاذج استنباطيـة تتناول الظواهـر الاقتصاديـة بفضل القدرة على صياغة افتراضات حول المجتمع وطبيعة الانسان .. وتثير الانثروبولوجيا الاقتصادية عددا من التساؤلات حول الافتراضات الاساسية فى النظرية الصورية الاقتصادية منها : الى أى مـدى تتصـف

(١) انظر : ايفانز برتشارد . الانثروبولوجيا الاجتماعية . ترجمـة الدكتور احمد ابو زيد ١٩٦٥ .

(١) رالف بيلز . مقدمة فى الانثروبولوجيا . ص ٤١٢ ، ٤١٣ .

الافتراضات التى تدور حول السلوك الانسانى بالشمولية ؟ وهل تحتل البيانات المتعلقة بالمجتمعات غير الصناعية اهمية فى سبيل تطوير النظرية ؟ والى اى حد يمكن ان تكون النظرية الاقتصادية الصورية ذات فائدة فى فهم اقتصاديات المجتمعات غير الصناعية ؟ الى غير ذلك من التساؤلات التى تطرح العديد من القضايا والتى تحتاج الى دراسة وتعميق فهم • ويميل بعض علماء الانثروبولوجيا الى القول بأن النظرية الاقتصادية لاتنطوى الا على القليل من الفائدة التى يمكن ان تقدمها لعالم الانثروبولوجيا [١] •• ويرى الانثروبولوجيون ان من بين الوظائف الاساسية للانثروبولوجيا الاقتصادية تقديم وصف لحالات اقتصادية خاصة ثم محاولة ربطها بالنظرية الاقتصادية التى لابد ان تشمل فى كثير من جوانبها الكثير من الانساق الاجتماعية • ثم دراسة الوسائل المختلفة التى يمكن من خلالها ان تتوزع وظائف النسق الاقتصادى على النظم التى تختلف بوضوح عن تلك النظم التى تؤدى الوظائف فى المجتمعات الغربية مثلا وهكذا نلاحظ أن الانثروبولوجيا الاقتصادية يمكن أن تسهم اسهاما واضحا فى انارة الطريق أمام النسق الاقتصادى طبقا لاحتياجات المجتمع بأختلاف الزمان والمكان والثقافة •

الانثروبولوجيا التطبيقية :

بعد ان كانت الانثروبولوجيا مرتبطة بالمجتمع البدائى والمجتمعات الصغيرة فى اذهان الكثير ، استطاعت الانثروبولوجيا بفضل تطور مناهجها وأدواتها فى الدراسة أن تتجاوز المجتمع البدائى والفردى لتصل بالدراسة والبحث الى مجتمع المدينة أو المجتمع الصناعى وعلى الرغم من أن فرع الانثروبولوجيا التطبيقية يعتبر حديثا الى حد ما • الا أن الدراسات التطبيقية التى اجريت فى افريقيا واستراليا مثلا وغيرها من المناطق تؤكد ماذهبنا اليه ويكاد يرتبط هذا

---

(١) انظر رالف بيلز • مرجع سابق ص ٤١٢ ، ٤١٣

الفرع بدراسة شهيرة تمت فى جامعة هارفارد بالولايات المتحدة الامريكية وهى دراسة تطبيقية فى مجال الصناعة ، وقد ركزت هذه الدراسة على بعض المشكلات المتعلقة بالانتاج وقياس مدى كفاءة المصنع فيما عرف باسم الانثروبولوجيا الصناعية Industrial Anthropology وهذا بالطبع يؤكد قدرة الانثروبولوجيا التى اشرنا اليها على الانتقال من الارتباط بالبدائية والمجتمعات المتخلفة الى دراسة الانساق الصناعية ، ومن ثم البحث فى مشكلات الصناعة والتصنيع وغيرها من المجالات ذات الارتباط المباشر بالانسان والمجتمع ٠

الانثروبولوجيا السيكلوجية :

هناك صلة وثيقة بين الانثروبولوجيا وعلم النفس فهناك دراسات مرتبطة بعلم النفس الاجتماعى Social psychology والانثروبولوجيا السيكلوجية Psychological Anthropology تلك التى تدرس المظاهر السلوكية العامة للجنس البشرى حين يعيشون فى جماعة او طبقة او مصنع ، ويدرس هذا الفرع الخصائص العقلية والسلوكية فى مختلف الانماط الثقافية ٠

ويقول : راد كليف براون فى هذا الخصوص « عندما ندرس سيكلوجية الفرنسيين او المالان او الامريكان ، فاننا نقصد معالجة الخصائص العقلية والملامح السلوكية الناجمة عن شروط الحياة فى نسق اجتماعى معين بالذات » ([١]) ويتضح من هذا النص أن هذا الفرع يدرس سيكلوجية الجماعات وثقافات الشعوب ، ومدى تاثير الظروف البيئية العامة فى سلوك الانسان ٠ كما تدرس تقاليد وعادات الشعوب ، نظرا لانعكاس ذلك على انماط الفعل واشكال السلوك

---

(١) قبارى محمد اسماعيل ٠ علم الاجتماع الثقافى ٠ منشاة المعارف بالاسكندرية ٠ ١٩٨٢ ص ١٩٥ ٠

ومظاهر الحياة العقلية والفكرية .. وبذلك تعالج الانثروبولوجيا السيكلوجية الجوانب العامة لسيكلوجية الثقافات والمجتمعات بحثا عن روح الجماعة ونفسية الشعوب ، اى انها تريد الكشف عن روح الجماعة وضميرها وذلك منخلال الخصائص العقلية mental chracteristics والانماط السلوكية التى تتسم بها الشعوب والثقافة الانسانية .

وهكذا نلاحظ أن الانثروبولوجيا ترتبط بالكثير من العلوم المختلفة كعلم النفس والسياسة والاقتصاد والجعرافيا وعلم الاجتماع وكذا الفنون والآداب وارتباطها الوثيق بالعلوم البيولوجية من خلال الانثروبولوجيا البيولوجية المرتبطة مع علم التشريح وعلم الوراثة وعلم الاجنة وعلم وظائف الاعضاء ولقد ارتبطت الانثروبولوجيا منذ تاريخها القديم بعلم الحياة ، وهذا يرجع الى تطبيق المفهومات التطورية فى النظريات التى وضعها علماء الانثروبولوجيا الثقافية الاوائل ، كما يرجع الى التطور السريع الذى قطعته الانثروبولوجيا البيولوجية فى مراحلها الاولى ، وبالرغم من ان المفهومات البيولوجية عن التطور لم تعد تستخدم فى الانثروبولوجيا الثقافية . الا أن فهم التركيب البيولوجى للانسان يمثل شرطا اساسيا وعنصرا جوهريا فى نظرية الثقافة ، حقيقة بأن الثقافة أكبر من أن تكون ظاهرة بيولوجية، الا أنه من الواضح أن كل مجتمع يحاول من خلال ثقافته اشباع الحاجات البيولوجية والنفسية عند الانسان فيه . وعلى هذا الاساس كانت دراسة الثقافة ودراسة البيولوجيا الانسانية متداخلتان ومترابطتين باستمرار ..

اما العلاقة بين الانثروبولوجيا وعلم الاجتماع فانها لم تتطور بعد الى المدى الذى كان ينبغى أن تصل اليه . وذلك برغم أن المتخصصين فى العلمين قد ادركوا منذ زمن أن هناك روابط تربط بين العلمين ، حقيقة أن موضوع الدراسة فى كلا العلمين كانا مختلفان حيث يركز الانثروبولوجيون اهتمامهم فى الماضى على دراسة المجتمعات البسيطة

والمنعزلة فى حين كان الاجتماعيون يركزون دراساتهم على المجتمعات المتحضرة فى أوروبا والغرب بصفة عامة . وبطبيعة الحال فقد أدى الاختلاف فى الموضوع الى اختلاف فى مناهج الدراسة ، فلقد كان الباحث الانثروبولوجى الذى يدرس جماعة صغيرة الحجم لايحتاج كثيرا الى أن يشغل نفسه بمسألة اختيار العينة على سبيل المثال ، فى الوقت الذى كان فيه دارس الاجتماع يولى العينة وكيفية اختيارها عناية شديدة . ولقد كانت بطاقة المعلومات والاسئلة من أدوات البحث الهامة عند رجل الاجتماع فى الوقت الذى لم تستخدم فيه على نطاق واسع فى الدراسات الانثروبولوجية . وفى الآونة الاخيرة عندما بدأ الانثروبولوجيون يخرجون عن نطاق المجتمعات البسيطة الى دراسة المدن والمجتمعات المتحضرة بدأ الاختلاف فى المناهج يتقلص كما أن المشكلات الاساسية الجديرة بالبحث تتشابه الامر الذى يجعلنا نعتقد انه لابد أن يصل العلماء فى النهاية الى صياغة نظرية متقاربة ، ان لم تكن واحدة بالنسبة لكليهما ، ونلاحظ الان أن مفهوم الثقافة يستخدم على نطاق واسع عند الباحثين فى علم الاجتماع ، اذ ثبت أن استخدام هذا المفهوم فى الدراسات الاجتماعية يمثل طريق هامة ومفيدة ، وقد أصبح المتخصصون فى هذين المجالين يحرصون بدرجة متزايدة على الاستفادة عند وضع النظرية بالمعلومات التى يقدمها كل من علم الاجتماع والانثروبولوجيا ، وأصبح الباحث الانثروبولوجى يرى أن وظيفية الاساسية أيجاد قدر من التكامل بين العلوم المختلفة التى تدرس الانسان بما فيها علم الاجتماع (١) .

ومن خلال العرض السابق يتضح لنا . أن الانثروبولوجيا التى بدات او ارتبطت بدراسة الانسان البدائى والمجتمعات البدائية

---

(١) انظر المزيد من التفاصيل فى محمد الجوهرى ، الانثروبولوجيا ، نظرية وتطبيقات عملية . دار المعرفة الجامعية الاسكندرية ١٩٨٨ ص ٤٩ ومابعدها .

مستعينة بالاثار ومعتمدة على التاريخ الانسانى ، فى محاولة لاعادة تصوير حياة الانسان والمجتمع ظلت تنمو وتتطور حتى اصبحت علما متميزا من حيث النظرية والمنهج والموضوع والهدف ، فمن حيث النظرية نجد ان التساؤل عن اصل الانسان والنظم الاجتماعية نتج عنه مايسمى بـ «المدرسة النشوئية» والسؤال عن تطورها تولى الاجابة عليه مايعرف بـ «المدرسة التطورية» اما مسالة انتشار تلك النظم فقد تولى البحث فيه ما عرف بـ «المدرسة الانتشارية» واما دراسة وظائف الظواهر الاجتماعية فى تعامل وحركة المجتمع وتفسيرها فهو من اختصاص «المدرسة الوظيفية» . هذا بالاضافة الى المدرسة الامريكية المعاصرة التى تهتم بالتحليل الوظيفى للبناء الثقافى الى جانب اهتمامها بالدراسة الايكلوجية الحضارية والتى تؤلفها العناصر التالية . البيئة ، السكان ، التكنولوجيا ، التنظيم الاجتماعى . والمناطق الحضارية .

ومن خلال تطور النظرية تطورت المناهج وتعددت ، ولانستطيع الفصل بين النظرية والتطبيق ذلك ان تطور النظرية ارتبط بتطور المنهج والعكس ، بمعنى ان هناك اثرا متبادلا بين كل منهما فهناك علاقة قوية بين منهج البحث وفلسفته . وبايجاز يمكن القول بأن كلا منهما صدر عن الاخر . ولم يمنع ذلك من تخصيص (فصل خاص) عن مناهج البحث الانثروبولوجى فى هذا الكتاب اما عن موضوع الانثروبولوجيا فهو الانسان والمجتمع ، ولم تقتصر الانثروبولوجيا على دراسة نسق معين فى المجتمع انما امتازت بالشمولية والمشاركة فى كثير تخصصات العلوم الاخرى كما اسلفنا ، واما الهدف فهو خدمة قضايا المجتمع والمساهمة الفعالة فى تقديم الحلول للكثير من المشكلات فى المجتمع الانسانى والمساهمة فى رسم سياسة اجتماعية واقتصادية مفيدة للمجتمع بحيث يمكن من خلال الاعتماد على نتائج الدراسات والبحوث الانثروبولوجية تجنب الكثير من المزالق والمحاذير خلال

عمليات التنمية وتحـديث المجتمعات . ويمكن القـول ختاما لهـذا الفصل بأن أركان هذا العلم راسخة الان تماما . مما يجعلنا اكثر تفاؤلا فى مستقبل تستطيع فيه الانثروبولوجيا ان تضطلع بدور اكثر اتساعـا وشمولا فى خدمة الانسان فى كل زمان ومكان .

الفصـــل الثــانى

الدراسات التطورية للنظـم الاجتماعية البدائية *

---

* كتب هذا الفصل الدكتور / حسن محمد صالح

الاصول النظرية الاولى : عصر التنوير :

مقدمة : الافتراض السائد بين الكثير من كتاب علم الاجتماع والانثروبولوجيا المعاصرين بأن الانثروبولوجيا تعتبر علما حديثا لم ينقض على نشأته اكثر من مائة اومائة وخمسين عاما كتخصص اكاديمى له أطره النظرية ومجالاته التطبيقية وقواعده المنهجية ، ولكن كثيرا ما يثير هذا الافتراض بعض التساؤلات لدى الدارس ، وهذه التساؤلات التى تتعلق بالاشكال الذى يواجهنا فى تحديد فترة زمنية معينة لنشأة الانثروبولوجيا ، أو اى علم من العلوم الاخرى ، حيث أن العلم عادة مايتمخض عن تراكمات فكرية خلال فترة زمنية يصعب تعيين بدايتها على وجه التحديد ، وتتضح هذه الصعوبة بصفة خاصة فى حالة الانثروبولوجيا لطبيعة اهتماماتها ومجالاتها المتشابكة والمتداخلة مع العلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية على حد سواء بالاضافة الى العوامل المركبة التى اسهمت فى بلورة الانثروبولوجيا وحددت معالمها خلال القرن الثامن عشر الميلادى فى فترة ما يعرف بعصر التنوير فى التاريخ الاوروبى . وبالرغم من ذلك فان هذا الاشكال ليس سببا كافيا للانتشار ولقبول الافتراض الذى يحدد الميلاد العلمى للانثروبولوجيا بالقرن التاسع عشر الميلادى .

وفى الواقع ان هذا الافتراض قد اعتمد فى الغالب على التاريخ الذى بدأ فيه تدريس الانثروبولوجيا فى الجامعات البريطانية ، كما جاء فى الفصل الاول من هذا الكتاب وكثيرا ما يتكرر فى التقليد الانثروبولوجى ، ذكر ادوارد تايلور Edwarvd Tylor فى جامعة اكسفورد عام ١٨٨٤م ، وهادون A.Haddon فى جامعة كمبردج عام ١٩٠٠م وجيمس فريزر James Frazer فى جامعة ليفربول عام ١٩٠٧م . بينما يشار الى بداية الانثروبولوجيا فى الولايات

المتحدة الى «فرانز بواس» Franz Boas عام ١٨٩٦م (١) ، فى جامعة كولمبيا ، فاذا قبلنا هذه الحقائق ، فانه لايعنى ان بداية الانثروبولوجيا يمكن ان تحدد بتلك الفترة ، فمن الواضح والمثبت ان تدريس الانثروبولوجيا فى الجامعات قد سبقته تطورات نظرية ونشاطات بحثية تبلورت معها مجالات الدراسات الانثروبولوجية ومناهجها ، والا لما تم الاعتراف بها كتخصص له اهميته التى تقتضى تدريسه فى الجامعات .

لذلك لايمكن ان تقترن نشاة العلم بتدريسه فى الجامعات ، والا انسحب ذلك على كثير من العلوم ، وعلى سبيل المثال ، لايستطيع احد ان يدعى ان نشاة الفلسفة قد بدات بتدريسها فى الجامعات ، والامثلة متعددة فى هذا المجال سواء من العهود السابقة او من حياتنا المعاصرة، وهناك كثير من العلوم لم تعتمد فى قيامها او استمراريتها على انها تدرس فى الجامعات ، ويجب ان لايفهم من هذا باننى انكر دور الجامعات ، واثرها على التخصصات العلمية المختلفة ، وانما اردت ان اوضح عدم قبولى للاتجاه الذى يقرن نشاة الانثروبولوجيا ببداية تدريسها فى الجامعات ، بدليل ان هناك العديد من العلوم وبما فيها الانثروبولوجيا قد تبلورت واكتسبت المميزات الخاصة بها خارج نطاق الجامعات .

HARRIS, M. «The Rise ot Anthropological Theary» Routledge and Kegan paud, London,

ولكن يذكر الدكتور حسين فهيم ان «انيل بريتون» اصبح اول استاذ للانثروبولوجيا بجامعة بنسلفانيا (بالولايات المتحدة) بالرغم من انه لم يكن انثروبولوجيا متخصصا . انظر حسين فهيم قصة الانثروبولوجيا فصول فى تاريخ علم الانسان . سلسلة عالم المعرفة ـ الكويت . فبراير ١٩٨٦ ص ١٢٨ .

الآن نحاول هنا ان نلقى الضوء على الجذور النظرية للانثروبولوجيا حتى نتمكن من الكشف عن فكرة الدراسات التطورية للنظم الاجتماعية .

وفى البداية ، لابد من تجاوز فترة التأملات النظرية التى بدأت بتاريخ التفكير الانسانى مرورا بمراحله المختلفة ، والتى لاجدوى من الخوض فى مناقشتها ، فمن المسلمات ان كل العلوم الاجتماعية ترجع اصولها للفلسفة القديمة وللتفكير الاجتماعى منذ نشأته بين المجتمعات الشرقية او الغربية اذا فسياق النقاش هنا يقتضى ان نبدأ بالقرن الثامن عشر الذى شهد تكوين المفهومات الاساسية للانثروبولوجيا كعلم يهتم بدراسة التاريخ القديم للمجتمعات الانسانية .

فلقد تبلورت وبرزت فى تلك الفترة بعض الاتجاهات العلمية التى تعتبر امتدادا للاهتمامات الفلسفية التى سادت فى الماضى والتى سبقت قيام العلوم الاجتماعية بصفة عامة . ومما لاشك فيه ان اللبنات الاولى للانثروبولوجيا قد وضعت خلال عصر التنوير بواسطة المهتمين بدراسة فلسفة التاريخ والقانون المقارن والبيئة . وتمثل القضايا ، التى اثارتها وتناولتها تلك المدارس الفكرية بالبحث والتقصى ، الافتراضات والمفهومات الاساسية التى اعتمد عليها الانثروبولوجيون فى الفترات اللاحقة بدءا بالقرن التاسع عشر وحتى الآن (١) .

لقد تميز عصر التنوير برفض الافكار اللاهوتية والقدرية التى كانت تروج لها الكنيسة لتسيطر على اساليب التفكير التى تدعم من سلطتها فى المجتمع ، وادى ذلك الرفض الى تعاظم الصراع بين العلم والكنيسة ، والذى تمخض عنه العلمانية والاتجاه العلمى فى الفكر الاوروبى الحديث . وشمل ذلك الصراع جميع جوانب المعرفة

---

(١) المرجع السابق ص ٨٠ . HARRIS, M.

الانسانية ، وكان من نتائجه تركيز الاهتمام على فكرة التقدم Progress فى التاريخ الانسانى ووضع تصور واحد لمراحل ذلك التقدم عن طريق تحديد نقطة البداية للنظم الاجتماعية والثقافية وتقدمها عبر مراحل تاريخية مميزة فى تاريخ العنصر البشرى ، والكشف عن اسباب ذلك التقدم ، ولقد اتخذ ذلك الاتجاه من حركة التاريخ اطارا عاما للكشف عن القوانين الطبيعية التى تحكم وتوجه التقدم ومن ثم تفسيره على اسس عقلية ، ويمثل ذلك تحولا جذريا عن الفكر اللاهوتى .

وقد ذكرنا ان فكرة التقدم كانت مستحوزة على اذهان الفلاسفة فى القرن الثامن عشر ، ويعنى التقدم هنا الارتقاء التدريجى فى حياة المجتمعات الانسانية والتى تحتم عليها طبيعة التاريخ اتباع مسار موحد فى الانتقال من مرحلة الى اخرى ، من غير استثناء ، وبذلك يكون الاختلاف فى النظم الثقافية بين المجتمعات ليس اختلافا جوهريا وانما هو ناتج عن التفاوت فى سرعة التقدم الراسى عبر مراحل الارتقاء (١) .

ومن هنا جاءت التغيرات الاساسية فى منهج أولئك المفكرين ، حيث اتبعوا المدخل الاجتماعى فى دراساتهم بهدف الوصول الى المبادىء العامة التى تحكم تقدم التاريخ ، وبدات العلاقات الاجتماعية تمثل الاهتمام الاساسى فى بحوثهم ، وأخذ المؤرخون يفكرون فى تاريخ المجتمعات والقوى الاجتماعية التى تصنع التاريخ مبتعدين عن سرد الوقائع التاريخية المفرغة من محتواها الاجتماعى . وكما اهتم ايضا فلاسفة القانون بروح القوانين بدلا عن نصوصها ، وأخذ الاقتصاديون يتلمسون الجوانب الاجتماعية التى تؤثر على العلاقات الاقتصادية

---

(١) محمد فؤاد حجازى : التغير الاجتماعى مكتبة وهبة ـ القاهرة ١٩٧٨ ص ٧٧ ـ ٩٠ .

ويوضحون كيف يكون الاقتصاد عاملا هاما فى تشكيل العلاقات الاجتماعية ، وامتدت آثار الاتجاه الى جميع العلوم الانسانية مثل الادب وعلم النفس والفلسفة الاخلاقية وفلسفة السياسة .

ومن ثم اتخذ ذلك الاتجاه مداخل مختلفة لدراسة التقدم الاجتماعى فحاول بعض المفكرين أن يدرسه من خلال تطور العقل البشرى ، أو عن طريق المراحل التى مرت بها الانسانية فى المجال الدينى ، بينما أهتم البعض الاخر بجانب التقدم المادى والتقنى وعلاقته بتقدم النظم الثقافية والاجتماعية الاخرى مثل الزواج والاسرة والنظم السياسية . وصاحب كل ذلك تزايد فى الاخذ بفكرة الحتمية المادية والجغرافية ، والتى ترى أن العلاقات المادية فى المجتمع ، بالاضافة الى الظروف الطبيعية ، تمثل العامل الرئيسى الذى يخلق ويشكل النظم الثقافية والاجتماعية ، وبالتالى أن البيئة وطبيعة العلاقات السائدة فى مجال سبل كسب العيش هى التى تحدد انتقال المجتمع من مرحلة تاريخية الى اخرى على مسار التقدم ، ومن ثم يتبع ذلك تغير فى نظم المجتمع الثقافية والاجتماعية الاخرى (1) . واعتمد المفكرون فى عصر التنوير على التاريخ الاوربى القديم لصياغة افتراضاتهم النظرية والاستدلال عليها عن طريق الاستيطان والاستقراء والمقارنة ، فى محاولة لاعادة بناء المراحل التاريخية التى مرت بها الانسانية فى تقدمها اللامحدود ولقد قادهم ذلك بالضرورة الى استخدام الحقائق التاريخية عن الحضارات الانسانية الاخرى مثل الفرعونية والفارسية ، والحضارات الشرقية القديمة فى الصين وشبه القارة الهندية. كما انهم استفادوا من المعلومات المتوفرة لديهم فى تلك الفترة عن بعض المجتمعات خارج أوروبا خاصة فى أفريقيا والامريكتين واستراليا ، وهذا يمثل البدايات الاولى لدراسة تلك المجتمعات التى سموها بالبدائية

---

(١) محمد فؤاد حجازى . المرجع السابق ص ١٠٠

ظننا بأنها تمثل المراحل التاريخيـة السابقة التى مرت بهـا الحضارة الانسانية والنظم الاجتماعية .

وهنا تجدر الاشارة الى أن الاهتمام بالمجتمعات المسماة بالبدائية قد أضاف بعدا جديدا للمنهج المقـارن الذى أصبح فيمـا بعد المنهـج الرئيسى للدراسات الانثروبولوجيـة التطورية لان المقارنـة فى العـلوم الاجتماعية هى بمثابة التجربة فى العـلوم الطبيعية ، كما ذكـر ذلك أوجست كونت أثناء تأكيده على الموضوعية فى علم الاجتماع . وتمثل تلك الفترة الخطوات الاولى لتطبيـق المنهج التجريبى فى الدراسـات الاجتماعية .

وبناء على ماذكرناه هنا ، يمكن اعتبار ماخلفه لنا كتاب القرن الثامن عشر ، فى مجال دراسة التاريخ القديم ، جزءا هاما وأساسيـا فى تراث الانثروبولوجيا وتكوين نظرياتها وقواعدها المنهجية ، كما أن طبيعة الموضوعات والمفاهيم التى تناولهـا كتاب عصر التنوير أعطـت أعمالهم نوعا من الاستمرارية الى يومنا هذا . ومهما يكن ، فلقد طرأت بعض التغيرات سواء فى الفروض النظرية أو المفهومات التى اعتمد عليها فلاسفة عصر التنوير فى القرن الثامن عشر ، فلقد أدى تراكم المعلومات الحقلية فى منتصف القرن التاسع عشر والكشف عن معلومات تاريخيـة مع تقدم البحث العلمى ، الى افراز نظريات واتجاهات متعـددة فى مجال العلوم الاجتماعية والانسانية ، وبرزت نظريات كثيرة توضـح بأنـه لايمكن تفسير الظواهر الاجتماعية والثقافية بأسنادها الى عامل واحد . وهناك أدلة عديدة تشير الى أن الحتميـة المادية بمفردهـا لاتعطى تفسيرا علميا لخلق وصياغة العلاقات الاجتماعية . ولايمكـن حصر تقدم التاريخ الانسانى فى اطار نظرى محدد وضيق نستطيـع أن نستوعب من خلاله التغيرات الاجتماعية وفقا لعوامل مادية . بل لابد من الاخذ فى الاعتبار أن التفاعـل المستمر بـين العوامل المتشابكـة

والمتداخلة التى تقود الى تقدم المجتمعات ، وليس بالضرورة ان يكون ذلك التقدم متسقا فى كل الحضارات الانسانية .

ولكن يجب أن ننوه هنا الى ان هذا لايعنى بأن البيئة والعلاقات المادية لاتلعب دورا فى خلق الثقافة وتشكيل البناء الاجتماعى ، وانما القول الذى يمكن ان يكون مقبولا : هو ان العوامل البيئية والمادية هى من المؤثرات الهامة فى النظم الاجتماعية والثقافية ، لكنها لاتمثل العامل الوحيد ، وقد يختلف دور تلك المؤثرات من مجتمع لاخر وفقا لظروف كل مجتمع ، وليس بالضرورة أن تخلق الظروف الجغرافية والمادية المتشابهة ثقافات متشابهة فى كل المجتمعات ، وبمعنى آخر أنه لايمكن ان يكون هناك نموذج مثالى يتكرر بين المجتمعات فى كل زمان ومكان . بالاضافة الى هذا ، كثيرا مايوجه النقد لكتاب القرن الثامن عشر بانهم اعتمدوا فى صياغة فروضهم النظرية على التاريخ التخمينى ومعلومات اثنوغرافية مشوهة عن المجتمعات البدائية خارج أوروبا استقوها من مصادر ثانوية ولم يجمعوها بانفسهم مباشرة عن طريق البحث الحقلى ، بل اعتمدوا على ما نقله لهم الهواة والرحالة والمكتشفون والمبشرون من رجال الدين المسيحى ، وكل هؤلاء لم تكن لديهم تجربة فى الاساليب العلمية ولا التدريب العملى فى البحث الحقلى ، ولذلك جاءت كتاباتهم مثقله بالاخطاء الاثنوغرافية والتحليل الخاطىء لتلك المعلومات ، علاوة على ضعف الجانب النظرى الذى لم يبتعد كثيرا عن التصورات الفلسفية السابقة القائمة على المعايير الذاتية ، وليس على اسس علمية موضوعية .

وبالرغم من هذا القصور فى تلك الدراسات الاولى ، الا انه ليس من الموضوعية التقليل من قيمتها العلمية والدور الذى لعبته فى تقدم النظريات الانثروبولوجية اللاحقة . وفى الحقيقة هنالك خلفية فكرية ادت الى قيام بعض المواقف الرافضة لكتاب القرن الثامن عشر . والجدير بالذكر ان هذه المواقف تمتد جذورها الى بداية القرن التاسع

عشر ، ولكنها اصبحت اكثر قوة وانتشارا خلال القرن العشرين بعد عام ١٩٤٠م حيث قامت مدارس فكرية فى بريطانيا والمانيا وفرنسا والولايات المتحدة الامريكية ، توضح فشل الانثروبولوجيا التطورية وعدم قدرتها على اكتشاف أصل النظم الاجتماعية او دراسة أسباب تطورها بدعوى انه ليس هنالك قوانين ثابتة نستطيع ان نفسر من خلالها تقدم التاريخ .

قلت أن مثل هذه المواقف قد بدأت بالقرن التاسع عشر ، خاصة بالعالم الفرنسى (اوجست كونت) Auguste Comte ثم انتقلت بعد ذلك من المدرسة الفرنسية الى المدرسة البريطانية عن طريق اعمال (أميل دور كايم وليفى برهل) Le'vy Bruhl Emile Durkheim,

والسبب وراء ذلك هو ظهور بعض المدارس الفكرية التى حاولت أن توفق بين النظريات المادية التى تؤمن بفكرة التغير الجذرى الذى سيؤدى بالضرورة الى تقويض النظم الاجتماعية الاوروبية التقليدية واستبدالها بنظم جديدة وبين الجانب الاخر الذى يمثله الفكر التقليدى المحافظ الذى يرفض فكرة التقدم ويتمسك باستمرارية النظم التقليدية . ومن هنا تكونت نظريات التوفيق التى تجمع بين الطرفين، بمعنى انها تؤمن بفكرة التقدم ، وفى نفس الوقت تتمسك بمفهوم الاستمرارية فى النظم التقليدية . فأصحاب تلك النظريات يرفضون فكرة التغير الجذرى ، ويؤمنون بأن التغير لابد ان يتم فى حلقات متصلة تربط بين الماضى والحاضر والمستقبل . وهذا الاتجاه يتلاءم مع طبيعة النظام الاجتماعى الذى نشأ فى اوروبا بعد الثورة الصناعية والثورة الفرنسية . هذا هو الاطار العام الذى انطلق منه الفكر الاوروبى المعروف بالفكر الحر (الليبرالى) والذى استمر حتى الان ، وافسح المجال للتحليل الوظيفى الذى يؤمن بالتوازن والتكامل بين الفئات الاجتماعية المتمايزة وليس بالضرورة أن يؤدى ذلك التمايز بينها الى الصراع الاجتماعى . وفى نفس الوقت لم ترفض نظريات

التوفيق فكرة التطور كليا ، وانما رفضتها فى بعض جزئياتها ، فهى تأخذ بمبدأ التقدم ، ولكنه تقدم مع المحافظة على النظام الاجتماعى القائم على المبادىء والمثل التقليدية . فلقد ثبت انه لا الثورة الصناعية ولا الثورة الفرنسية ، استطاعتا خلق نظام اجتماعى جديد يختلف فى مقوماته الاساسية عن النظم السابقة كما كان يتوقع بعض المفكرين (١)

ومجمل القول أن مفهوم التقدم الذى تبلور فى القرن الثامن عشر أصبح يمثل عنصرا اساسيا فى النظريات الاجتماعية بالرغم من التناقض وعدم الوضوح فى رؤيته وتفسيره ، وكثيرا ما ادى ذلك التناقض الى التقليل من اهمية وشان مفكرى القرن الثامن عشر ، عند كثير من كتاب الانثروبولوجيا وعلم الاجتماع بيد أن أعمال تلك الفترة تمثل البداية الحقيقية للدراسات الانثروبولوجية المعاصرة ، خاصة اذا ما أخذنا فى الاعتبار القول المكرر فى تعريف الانثروبولوجيا بانها العلم الذى يدرس التاريخ القديم والمجتمعات البدائية ، وهذا فى حد ذاته يمثل اعترافا ضمنيا بأن الانثروبولوجيا قد سبقت علم الاجتماع فى نشاتها ، اذ ان الاخير لم يظهر فى أوروبا الغربية الا بعد الثورة الصناعية والثورة الفرنسية ، وكتاب علم الاجتماع انفسهم يؤكدون هذه الحقيقة ، عندما يطلقون عليه (علم الاجتماع الجديد) أو (علم المجتمع الصناعى) ولكن لسنا هنا بصدد المقارنة بين الانثروبولوجيا وعلم الاجتماع او توضيح العلاقة بينهما ، بالرغم من أن ذلك ضرورى لفهم نشأة الانثروبولوجيا وتقدمها وتكفى هنا الاشارة الى أن الاصول الفكرية لكلا التخصصين واحدة ومشتركة وان ادت بعض الظروف التاريخية الى الاختلاف بينهما .

كان هذا التقديم ضروريا ، قبل أن نتناول بالتفصيل اسهام

---

(١) محمود عودة : تاريخ علم الاجتماع (الجزء الاول : مرحلة الرواد) دار النهضة العربية بيروت : بدون تاريخ : راجع الفصلين الاول والثانى .

علماء القرن الثامن عشر ودورهم فى تاسيس الانثروبولوجيـا ، ومجال دراستهم لنشأة وتقدم النظم الاجتماعيـة ، والان اود هنـا ان اتتبع تلك الدراسات ، وبالطبع لقد تطرق فلاسفة القرن الثامن عشر لقضايا ومفهومات متنوعة فى مجال التغير والتقدم التاريخى ، ولكنى سأحصر النقاش فى تلك المفهومات المرتبطـة ارتباطـا مباشرا بمسالة التقـدم الثقافى والاجتماعى وسأتناول هذا الموضوع من خلال القـاء الضـوء على اعمال بعض الكتاب وابـراز المفهومات الاساسية عنـدهم لنتبين الصبغة العامة للدراسات الانثروبولوجية الاولى . وسيتضـح لنا مـن خلال التفاصيل انه ليس هنالك اختلاف جوهرى بين المفكرين القدمـاء والمحدثين وانما الاختلاف بينهم هو فى الاسلوب الذى يتبعونه لدراسة التقدم .

جـــون لـوك John Locke (١٦٣٢م - ١٧١٤م) :

يعتبر الفيلسوف البريطانى جون لوك ، هو أول من وضع الاسس النظرية للانثروبولوجيا فى القرن الثامن عشر الميلادى ، خاصة فيمـا يتعلق بمفهوم الثقافة الذى استمر الاهتمام بـه على مدى قرنين مـن الزمان ، وفى الواقع كانت افكاره التى ضمنها فى مقالته الشهيرة عن : الادراك البشرى فى عام ١٦٩٠
An Essay concerning Hurnan under standing
ايذانا بميلاد كل العلوم الانسانية الحديثة خاصة علم النفس ، وعـلم الاجتماع والانثروبولوجيا الثقافية ([1]) . فلقد اكد لوك على العلاقـة بين البيئة الطبيعية والثقافية وهو يرى أن التفكير والفعل الانسـانى يتاثران تاثرا مباشرا بالعوامـل الطبيعيـة . ولقـد استخـدم بعض المعلومات المتاحة لديه عن مجموعة الهنود الحمـر فى جزيرة (نيـو انجلند) ليستدل بها على نظريته ويبرهن عـلى أن عقل الفرد عنـد

---

(١) محمود عودة : المرجع السابق ص ١١ .

ميلاده يمثل (خزانة خالية) لاتحتوى على اى لون من الوان المعرفة ، ولكنه بمرور الزمن يمتلىء بالافكار والتجارب التى يكتسبها من البيئة التى يعيش فيها . ولقد تركز اهتمام لوك على البحث فى أصل ونشأة الافكار والمعرفة عند الانسان ، وهو يعتقد أن الاختلاف فى البيئة يخلق فوارق فردية وجماعية فى السلوك واستخدام هذا المفهوم يوضح أن النظام الاجتماعى يعتمد على المتغيرات المناخية محاولا الكشف عن طبيعة النظم السياسية واشكال المجتمعات قبل ظهور الحكومات فيها ، كما أشار لوك الى ان التجارب الانسانية هى التى تكون العادات والمعتقدات .

آن روبرت تيرجو : Anne Robert Turgot

هو عالم فرنسى ، وضع خطة فى عام ١٧٥٠م لدراسة تطور التاريخ الانسانى ، وتمكن من صياغة نظريات عديدة ، هى فى الواقع مازالت متطابقة لما يعرف اليوم بالانثروبولوجيا الثقافية (١) . فلقد شملت اهتماماته دراسة المراحل التطورية للتاريخ الانسانى . ووضع خطة لدراسة التفاصيل الدقيقة المتعلقة بأسباب ذلك التطور ، مبتدئا بالمراحل الاولى لحياة الانسان ثم مرحلة تكوين الامم وانصهارها فيما بينها ، كما تطرق لنشأة الحكومات وتغيرها . بالاضافة الى ذلك تناول تيرجو موضوعات تطور اللغة والاخلاق والعادات والفنون والعلوم ، بجانب دراسة الثورات التاريخية التى ادت الى قيام واضمحلال الامبرطوريات ، والامم والاديان . ومما يعطى « تيرجو » اهمية خاصة فى تاريخ الانثروبولوجيا هو أن مفهومه عن الثقافة يتطابق الى حد ما مع المفهوم الحديث ، فهو يرى أن الانسان يتميز بملكة القدرة على اختزان الرموز ومضاعفتها الى ما لانهاية ، وساعدته هذه القدرة على الاحتفاظ بأفكاره المكتسبة ليعبر عنها

---

(١) المرجع السابق : ص ١٤ .

ويوصلها الى الاخرين عن طريق وسائل الاتصال التى طورها ، وفى نفس الوقت ينقلها الى الاجيال التى تاتى من بعده . وكما يتضح فان اراءه هذه تتضمن تعريفا صريحا لايختلف عن التعريفات السائدة فى الوقت الحاضر . ومن الملاحظ انه اعطى وزنا خاصا للموروثات الثقافية والتقاليد ، كما اكد على الجانب الرمزى للثقافة . ومما يزيد من اهمية آراء «تيرجو» فى هذا المجال مفهومه عن التثقيف ، اى اكتساب الخصائص الثقافية ، والذى يعتبر من المفاهيم المؤثرة والهامة فى عصر التنوير وساعد فى اقناع كثير من العلماء ان الثقافة يمكن أن تكون مكتسبة وليس بالضرورة أن تعتمد علىالعوامل الوراثية البيولوجية فى المجتمعات الانسانية وتناول تيرجو هذا الموضوع بالمقارنة بين المجتمعات البدائية والامم المتحضرة ذاكرا بان مقومات الابداع والعبقرية منتشرة بين جميع العناصر البشرية كانتشار الذهب فى المنجم ، وتنمية المواهب الانسانية يعتمد على فرص التعليم المتاحة والظروف المحيطة بكل مجتمع ، ولذلك فان التفاوت بين المجتمعات لايرجع لاسباب وراثية بيولوجية وانما للاختلاف فى التجارب والظروف المهياة للتعليم فى كل مجتمع ([1]) .

ويزخر القرن الثامن عشر بكثير من الاعمال التى اتجهت نحو البحث عن الانسان فى المراحل الاولى على سلم التقدم بالرغم من أن كثيرا من اولئك الكتاب كانوا متاثرين بافكارهم الدينية المستمدة من طبيعة تعليمهم الكنسى ومن هؤلاء « جوزيف لافيتو» Joseph Lafitau الذى وضع عملا هاما عن المجتمعات البدائية ومقارنتها مع المجتمعات التاريخية فى عام ١٧٢٤

«Customs of American savages comparved with those of Earliest Times».

---

1) BEALS, RALPH «Acculturation» in TAX, Solcedx Anthropology Today : University of ohicago Press.

ولقد جمع فيه معلومات اثنوغرافية مفصلة عن الدين والسياسة والزواج والتربية وفكرة تقسيم العمل بين الرجال والنساء وعادات الموت والدفن والحداد واللغة والمرض والعلاج ، وهو شبيه الى حد كبير باعمال الاثنوغرافيين فى القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين

فيكـــو : Giambttista Vico

وقد وضع دراسته فى عام ١٧٢٥م بعنوان : العلم الجديد : The New Scienco ويعتبر اتجاها جديدا ومتحررا فى فهم وتحليل الظواهر الثقافية والاجتماعية ومعلما بارزا فى الفكر خلال القرن التاسع عشر . ويرى فيكو أن العلم الجديد الذى يدعو له لابد أن يهتم بدراسة الاحداث المتزامنة فى الحياة الاجتماعية بالاضافة الى الاهتمام بالاحداث التاريخية المتسقة ، واعتبر ذلك تاريخا للافكار الانسانية ، ومع أنه يؤمن بالحتمية الطبيعة فى حركة ذلك التاريخ الا أنه يرى ضرورة تدخل قوى مقدسة لبداية تلك الحركة ثم بعد ذلك يتقدم التاريخ بانتظام وفقا لقوانين الطبيعة . ويرى فيكو أن الحضارة الانسانية مرت بثلاث مراحل هى (١) .

١ ـ مرحلة الآلهة : وهى المرحلة التى تمثل بداية نشأة المجتمعات على أسس دينية .

٢ ـ المرحلة الثانية : هى مرحلة الابطال التى تؤكد القيم البطولية وتميزت هذه المرحلة بالاساطير .

٣ ـ المرحلة الاخيرة : هى مرحلة الرجال التى اعتمدت على التفسير العقلى .

---

(١) محمد على محمد : تاريخ علم الاجتماع : الرواد والاتجاهات المعاصرة ، دار المعرفة الجامعية ـ الاسكندرية ١٩٨٣ : ص ٣٧ـ٣٨

مونتسكيـــو : ١٦٩٨هـ - ١٧٥٥م Montesquieu

كثيرا ما يشير بعض الانثروبولوجيـين المعاصرين الى بدايـــة الانثروبولوجيا بمونتسكيو فى فرنسا الذى وضع كتابه الهـام (روح القوانين ١٧٤٨م) - .The Spirits ot Laws ولقد كان لافكار مونتسكيو أثر كبير على معاصريه وعلى الكتاب الذين جاءوا من بعـده خاصـة لويس مورجان Lewis Morgan فى القرن التاسع عشر الذى أخذ عنه فكرة المراحل التطورية الثلاث فى تاريخ الانسانية المادى وهى الهمجية أو الوحشية ، والبربرية ثم الحضارة وحـاول مونتسكيو ان يوضـح الفرق بين الامم الوحشية والامم البربرية ، فالاولى تعتمد على الالتقاط والصيد وهى تمثل عشائر متفرقة ولايمكن أن تجتمع هذه العشائـر الوحشية لتكون وحدات قبلية كبيرة • أما الثانية وهى البربرية فتعتمد على الوعى وهى عادة ماتتجمع لتكون امما صغيرة •

بالاضافة الى هذا ، يعتبر مونتسكيو من انصار فكرة الحتميـة الجغرافية فهو يعتقد أن أخلاق المجتمعات وطبائعهـا ولغاتها تتأثـر بالظروف المناخية ويرى بعض الكتاب الغربيين المعاصرين ان مفهــوم الحتمية الجغرافية فى عهد التنوير قـد استـمد من آراء الجغرافيـين العرب وعلى وجه الخصوص الادريسى فى القرن الثانى عشر الميلادى، بالاضافة لاعمال ابن خلدون فى القرن الرابع عشر الميلادى (١) •

ولقد استخدم مونتسكيو كلمة قوانين بمفهــوم الشروط الضرورية لقيام المجتمع الانسانى على العموم والعلاقة المتبادلة بين افراد المجتمع هى التى تمثل روح القانون • وكان يهدف مونتسكيـو الى دراسـة العلاقات الوظيفية التى تربط بين القانون والبيئة الطبيعية للمجتمـع

---

(١) المرجع السابق ص ٤١ • .HARRIS, M

لمزيد من التفصيل يمكن الرجوع الى :

MONIESQUEU : The Spirits ot the Laws : (Translated by Mngent, T.) Haîner Press, 1975.

بما فيها من نشاط اقتصادى وعادات وتقاليد وعرف ومعتقدات علاوة على امزجة افراد المجتمع . ومن اجل هذه المفاهيم التى وضحها مونتسيكيو فى كتابة (روح القوانين) اكتسب وضعا خاصا فى تاريخ الانثروبولوجيا . فمما لاشك فيه أن هذه النظرة تدل على المنهج التكاملى الذى اتبعه فى دراسته وهو دراسة المجتمع من جميع جوانبه بما فيه من نظم اقتصادية ودينية وثقافية . بالاضافة الى هذا فنحن نلاحظ ان مونتسيكيو قد حاول ان يميز بين ما اسماه (طبيعة المجتمع) من جهة و (مبدأ المجتمع) من جهة اخرى . فهو يعنى بطبيعة المجتمع القواعد التى يستمد منها المجتمع صورته التى عليها ، اما (مبدأ المجتمع) فمعناه فى نظره مايجعل المجتمع يعمل ويتفاعل فيه الافراد مع بعضهم البعض وهنا يرى ايفانز بريتشارد (Evans - Pritchard) ان مونتسيكيو قد نجح فى التمييز بين البناء الاجتماعى والنسق القيمى فى البناء الاجتماعى ، اذ افترض أن طبيعة المجتمع هى بناؤه الاجتماعى ومبدأ المجتمع هو الرغبات والقيم التى تدفع الافراد للعمل (١) .

يتضح من السرد السابق أن الفكر الاوروبى خلال القرن السابع عشر ، قد تميز بالاتجاه نحو العمومية التاريخية ووضع النماذج والمفاهيم التى تعترف بأهمية المؤشرات المادية والمناخية فى حركة التاريخ الانسانى .

---

1) Evans - Pritchard : Social Anthropology.

(الانثروبولوجيا الاجتماعية) : ترجمة الدكتور احمد ابو زيد الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ الاسكندرية ١٩٧٥ ص ٣٥٠ .

جـــون ميـــلار : JOHN MILAR

ثم جاء الفيلسوف الاسكتلندى ميلار فى عام ١٧٧١م بعمله المعروف عن تمييز المراتب الاجتماعية فى المجتمع

(observation concerning) the Distinction of Ranks in society)

لقد برز بهـذا العمل معاصـرة فيرجسون فى تحليـل تطـور التنظيم الاجتماعى . ولقد حاول ميلار أن يتتبع الاسرة بما فى ذلك العلاقات الجنسية واشكـال الزواج التى مر بهـا المجتمع الانسانى ، بالاضافة الى تناوله موضوع تطـور الفوارق الطبقية ، والانظمـة السياسية . ويعتبر أول من اكد على اهمية الوظائف الاقتصادية والتربوية للاسرة، والدور الذى تقوم به فى ضبط العلاقـات الجنسية والعواطف . وهـو يعتقد ان الفرد فى المجتمع البدائى يقرر الزواج من مجموعـة معينـة وفقا لمصالحه الاقتصادية المتمثلـة فى الاكتفـاء الذاتى . وتتميز تلك المرحلة بالحرية الجنسية قبل الزواج وهنالك عقوبات صارمة لتقييـد تلك الحرية بعد الزواج (١) .

ولقد وضح وناقش كثيرا من جوانب النظم القرابية والزواج بين المجتمعات البدائية مثل تعدد الزوجات Polygyny وتعدد الازواج Polyandry «والمهر ، ونظام اعارة الزوجات ، ونظـام الانحدار الآحادى الامى Matrilincal Descent

ولكن بالرغم من كل الجهد النظرى الذى بذله ميلار فلقد جـاءت دراسته مليئة بالاخطاء الاثنوغرافية والافكار الخيالية عن المجتمعـات البدائية وقد عمق المفهوم الخاطىء والشائع بين الاوروبيين عـلى أن المهر فى المجتمعات البدائية يدل على عبودية المراة ، وكلما كان المجتمع موغلا فى البدائية تقلصت مكانة المراة بالنسبة للرجل .

---

(١) المرجع السابق : ص ٤٨ .

وادعى ميلار ان نظـام الزواج البوليانـدرى (تعدد الزواج) ، قد نتج من ازدياد قوة مركز المـراة فى المجتمعات التى تقـوم عـلى الانحدار الامى • فكلما انجبت الام عددا كبيرا من الابنـاء الذكور ، قوى مركزها وبالتالى بـدأ النساء يستمتعـن بمواقعهن الاجتماعيـة باتخاذ اكبر عدد ممكن من الاخلاء • وفى رايى ان هذا فهم خاطـىء لمفهوم الزواج البوليانـدرى فالحقائق التى توفرت عنه فيما بعد تشير الى انه يمثل مرحلة تطور الزواج بعد انتقال المجتمعات من الاباحية الجنسية والزواج الجماعى •

وافترض ميلار أن الانحدار الامى جاء نتيجة لضعـف الروابط الزوجية فى المجتمعات البدائية ، بالاضافة الى نظرته المشوهة عـن علاقة الاب بابنائه فى المجتمعات البدائية ، فهو يرى ان تلك المرحـلة قد تميزت بانعدام رابطة العاطفة الابوية بين الاباء والابناء ووصـف الاب بالقسوة والطغيان والتسلط على ابنائـه ، علاوة على ذلك فكبار السن من الرجال فى هذه المجتمعات هـم مصـدر للخوف والرعـب والاحترام فى نفس الوقت • وهنا يقول ميلار انه كلما تقـدم المجتمع فى وسائل كسب العيش كان لديه وقـت للاسترخاء والفراغ وبالتالـى يقل التوتر بين الجنسيين وبين الاجيال المتعاقبة فى المجتمع ، ويتبـع ذلك تناقض فى تسلط الرجل على ابنائه •

واضاف بأن تقدم التجارة وتقسيم العمل ادى الى زيادة الحراك الجغرافى بين الابناء ومن ثم قل اعتمادهم فى معيشتهم عـلى الاسرة الابوية ، مما ادى الى اضعاف سلطة الاب على ابنائه ، ونلاحـظ أن هذا المفهوم الاخير يتفق مع كثير من الاتجاهات الحديثة التى تبحـث فى العلاقات الاسرية وآثار التحولات الاقتصاديـة والاجتماعية عـلـى الروابط القرابيـة •

ولقد اتفق مع فيرجسون فى رايه الذى يقـول بانعدام السلطـة

المركزية فى مرحلة الصيد ، وقرن قيام هذه السلطة بتطور نظام الميراث وظهور الملكية الفردية خلال مرحلتى الرعى والزراعة ، وهو يعتقد بأنه كلما زاد حجم الثروة فى المجتمع تناقصت أهمية الملكية الجماعية بسبب تكرار النزاع بين افراد الجماعة على تقسيم ثروتهم فيما بينهم والتنافس على ادارتها والاستفادة منها ويظهر ذلك التنافس بصورة واضحة على الارض فى مرحلة الاستقرار والزراعة ، فكل فرد اصبحت لديه الرغبة للعمل لمصلحته الخاصة وعلى ملكية خاصة به محددة وهكذا ظهر التعاون بينهم على تقسيم الارض الزراعية بين الاسر المختلفة .

وفى المراحل الاولى لتطور الزراعة ، كانت الملكية الجماعية للارض تحت اشراف وادارة زعيم الجماعة او رب الاسرة الذى يقوم بتنظيم العمل ويشرف على الانتاج وتوزيعه بين أفراد أسرته . ومن هنا كما يرى ميلار ، نشأت العلاقة بين الطبقات الاجتماعية وتوزيع الثروة ، فعندما تبلورت الملكية الفردية بصورة واضحة قوى مركز ومكانة زعيم الجماعة وذلك لتحكمه فى توزيع الارض وتنظيم العمل والانتاج ومن هنا اصبح فى مقدورة حرمان بعض الافراد من الحصول على الموارد الاستراتيجية وتفضيل البعض الاخر ونتج عن هذا ظهور السلطة المركزية وتكريسها فى الزعيم ، الامر الذى اتاح له أيضا أن ينال بعض المميزات الدينية وبالتالى نشأة فكرة « الملك المقدس » .

ولقد ذهب ميلار الى أبعد من ذلك موضحا العلاقة بين جوهر العلاقات القرابية ونشأة الدولة فى المجتمعات الانسانية ، ووضح ان الاقطاع كنظام سياسى قد ظهر عن طريق التقاء كثير من الوحدات العائلية الصغيرة لتكوين جماعات كبيرة تحت حماية زعيم واحد يتمتع بالسيطرة على توزيع الارض وتنظيم العمل وبالتالى فرض نفوذه على أفراد الجماعة . وبهذه الطريقة ظهرت الممالك التى تتألف

من قبائل مختلفة أو قرى ومدن متجاورة ، كما هو الحال فى الكنغو ومملكة بنين فى افريقيا ولاوس وسيام فى آسيا .

ولقد تعرض ميلار لنشاة الرق وتطوره فى المجتمعات البدائية ، فهو يعتقد بأن الرق نظام بدائى قديم كان قد اخذ فى الاضمحلال بظهور العمل بالاجر العينى والاجر النقدى . وفى نفس الوقت يرى أن نظام الرق لم يكن معروفا فى مرحلة الهمجية لان الفرصة لم تكن متاحة لاكتناز الثروة وطبقا لذلك لايستطيع الفرد أن يوفر الطعام لاعداد كبيرة من الافراد أو ينفق عليهم ولان انتاج الغذاء كان يحتاج الى جهد يبذل فى الصيد بالاضافة الى الشح فى الحيوانات وانتشارها وحدة المنافسة عليها . بالاضافة الى ما ذكر اعطى ميلار تفسيرا آخر لعدم وجود الرق فى تلك المرحلة ، وهو أن جماعات الصيد كانت تعيش فى عداء مستمر وفى حالة اسر اى فرد لابد ان يقتل او يتخلص منه لانه يعتبر من الاعداء بدلا من أن يحتفظ به وينفق عليه ولكن بالرغم من ذلك هنالك بعض الحالات التى يحتفظ فيها بالاسرى ولا يقتلون فقد يحدث تناقص فى عدد افراد الجماعة نتيجة للكوارث الطبيعية او ظروف الحرب مع الجماعات المجاورة وفى مثل هذه الحالة يمكن أن يستفاد من الاسرى ، ولكن ليس كأرقاء ، وانما يضمون لافراد الاسرة ويستوعبون فى النسق القرابى .

ويعتبر مفهوم ميلار عن نشأة الرق من المفاهيم الاساسية التى اعتمد عليها الكتاب فيما بعد لدراسة الرق وتحليله كنظام بدائى حدث فيه كثير من التعديل حتى تلاشى تدريجيا فى أوروبا مع ظهور العمل بالاجر والايجار النقدى للارض . وتفسيره لغياب نظام الرق فى المجتمعات البدائية الاولى قد استفاد منه هوبهاوس ، ويلار ، فينسبيرج Hobhou-e, wheeler and Finsberg فى عام ١٩١٥م فى دراستهما لموضوع : الثقافة المادية والنظام الاجتماعى فى المجتمعات البسيطة (The Material Calture and Social Institutions of the Simpler peoples)

ويتضح من هذا ان لميلار تاثيرا قويا على الانثروبولوجيين الذين اتوا بعده ولقد استمر هذا التاثير لفترة طويلة ، وكثير من الكتاب اللاحقين اعتمد على مفاهيمه التى وضعها عن العلاقة بين التطور المادى والنظم الاجتماعية .

وليام روبرتسون : WIILIAM ROBERTSON

هو من الكتاب الاسكتلنديين البارزين فى عصر التنوير وله اسهام فعال فى نشأة النظرية التطورية فى الانثروبولوجيا بالرغم من ان جهوده لم تجد الاهتمام الكافى الا مؤخرا فى الستينات من هذا القرن ويعتبر كتابه الذى نشره فى عام ١٧٧٧م بعنوان تاريخ امريكا History of America من المعالم البارزة فى تاريخ الانثروبولوجيا الثقافية ، فالنسق التطورى الذى وضعه روبرتسون لايختلف عن مراحل التقدم التى حددها الكتاب المعاصرون له وهى : الهمجية ، فالبربرية واخيرا مرحلة الحضارة [1]، ولكنه اختلف عنهم باعتماده الكبير على معلومات اثنولوجية من المجتمعات البدائية بالاضافة الى استخدامه لنتائج الحفريات الاثرية التى بدأت تظهر فى تلك الفترة ولذلك جاء عمله مبتعدا عن التصورات الخيالية للتاريخ ، كما أن الاستدلال بالمعلومات الاثرية يعتبر من العناصر الاساسية التى لعبت دورا هاما فى تأسيس المنهج المقارن الذى يعتبر بمثابة الاستراتيجية الاساسية للانثروبولوجيا خلال القرن التاسع عشر .

ومن الضرورى الاشارة هنا الى ان اراء روبرتسون عن التقدم تميزت بالنقاش المستفيض والمستوى الرفيع الذى سبق به معاصريه فى تفسير وفهم التشابه الثقافى بين المجتمعات المختلفة فى العالم . بالاضافة الى انه حدد بعض الشروط التى يجب توفرها حتى يكون التشابه الثقافى دليلا قويا على التطور المستقل او المتوازى فى

---

(١) المرجع السابق ص ٥١ .

المجتمعات الانسانية ـ وعموما يعتبر روبرتسون ان هذا التشابه يؤكد امكانية حدوث الابتكار المتشابه والمستقل فى اجزاء مختلفة من العالم لاترتبط بينهما علاقات ثقافية او جغرافية ولقد قارن بين الانماط الاقتصادية لبعض المجموعات السكانية فى آسيا وامريكا واوروبا ووجد انها تلتقى فى كثير من السمات ، واستبعد ان يكون هذا الالتقاء قد حدث نتيجة لوجود علاقات تربط بين هذه المجتمعات المعزولة عن بعضها البعض ، وبالتالى فهو يرى انه ليس هناك تفسير لهذا التشابه الثقافى ، غير الاخذ بمبدأ التطور المستقل والمتوازى . وهذه وجهة نظر تختلف عن الاتجاهات التى تحاول تفسير التشابه الثقافى عن طريق الانتشار ، بمعنى انه لابد أن تكون هنالك نقطة بداية واحدة للثقافات المتشابهة ، فى منطقة معينة ، ثم بعد ذلك انتشرت الى المناطق الاخرى بواسطة الهجرة السكانية والاتصال الثقافى .

ولكن يستدرك روبرتسون ويضع بعض التحفظات على مفهومه حول قانون التطور المستقل . فهو يرى أن هذا القانون لايمكن ان يتصف بالعمومية ويطبق الا فى حالة السمات الثقافية المشتركة التى تلعب دورا اساسيا فى تشكيل النمط الثقافى ، وحدد فى هذا المجال السمات التى تلبى الحاجات الاساسية للمجتمع ، اما السمات الثقافية التى لاتقوم بدور اساسى فى تلبية الحاجات الضرورية للمجتمع ، فعادة ماتكون غير مرتبطة بالبيئة وغير قابلة للتكيف ففى هذه الحالة ليس هنالك تفسير لوجودها فى المجتمع سوى أنها تكون قد دخلت عن طريق الاتصال الخارجى والانتشار من مجتمع لاخر .

كوندورسيه : CONDORCET

لايمكن أن تكون لدينا صورة متكاملة عن فكرة التقدم فى عصر التنوير من غير ذكر الفيلسوف الفرنسى كوندورسيه ، والذى له اسهامات هامة فى هذا المجال . فقد وضع تصورا لتقدم الانسان

وارتقائه خلال عشر مراحل تطورية بعنوان : (موجز التقدم الفكرى للانسان) فى عام ١٧٩٥م
«Outline ot the Intellectual pogress of Mankind»

فالمراحل الثلاثة الاولى توضح الفترة التى انتقل فيها الانسان من القبلية الى الرعى ثم الى الزراعة وحتى اخترع الحروف الهجائية ومن ثم تقدم الفكر البشرى نحو المرحلة الرابعة واستمر فى تقدمه الى ان وصل المرحلة الحالية . ولقد حدد كوندورسيه هذه المراحل التى تلت مرحلة الكتابة كما يلى (1) .

(١) تقدم الفكر البشرى فى اليونان حتى عهد الاسكندر الاكبر .

(٢) تقدم العلوم منذ ظهورها فى المرحلة السابقة حتى اضمحلالها

(٣) انحطاط المعرفة حتى بداية التجديد فى فترة الحروب الصليبية .

(٤) البداية الاولى لتقدم العلوم فى أوروبا الغربية الى اختراع الطباعة .

(٥) من اختراع الطباعة حتى مرحلة الثورة العلمية بانتصار العلم والفلسفة على سلطة الكنيسة .

(٦) مرحلة قيام الجمهورية الفرنسية .

(٧) مرحلة الآمال والتطلع للمستقبل .

ووفقا لمفهوم كوندورسيه ، فان المراحل البدائية الاولى كانت تتميز اكثر من المراحل المتاخرة ، بالخمول الفكرى والاجتماعى .

(١) احمد الخشاب : التفكير الاجتماعى : دراسة تكاملية للنظرية الاجتماعية ، دار النهضة العربية بيروت ١٩٨١ ص ٤٣٠ - ٤٣٣

وتعتبر المراحل التى وضعها كوندورسيه ذات اهمية كبرى فى تاريخ العلوم الاجتماعية فهى فى الواقع تهتم بتحرير المنطق الانسانى من قيود الجهل والغيبيات التى كانت تكبله فى الماضى وتحد من انطلاقه ٠

ولكن بالرغم مما ذكرنا من اهمية هذا العمل ، فانى ارى ان منهج ومضمون تقدم التفكير الانسانى عند كوندورسية لايدخل بوجه التحديد فى اهتمام الانثروبولوجيا فهو لم يهتم كثيرا بالمراحل الثلاثة البدائية الاولى التى تمثل النظم الاجتماعية القبلية والرعوية والزراعية ، مع انها هى التى تثير اهتمام الانثروبولوجيين اكثر من المراحل المتأخرة التى ذكرها كوندروسيه كما نلاحظ ايضا ان عمله يفتقد الى تحليل العوامل الثقافية والاجتماعية التى تؤثر فى تقدم المجتمع اذا ما قارناه باعمال ميلار وفيرجسون والكتاب الآخرين الذين سبق ذكرهم ٠

ومهما يكن ، فان لكوندورسيه اهمية فى العلوم الاجتماعية خاصة اذا ماعرفنا ان اراءه قد كانت حافزا لمالثيوس Malthus فى كتابه (مقالة عن أسس السكان عام ١٧٩٨م (AN Essay on the principle of population) ومن ثم يكون لكوندورسيه اثر كبير على سبنسر Spencer وداروين Darwin ٠ فيما بعد لان الاخيرين قد تأثرا كثيرا فى اعمالهما باراء مالثيوس ، بالاضافة الى هذا ، فان تحليل كوندورسيه يمثل محاولة متقدمة فى فلسفة عهد التنوير ، تهدف الى دراسة التقدم الثقافى والاجتماعى فى اطار الافكار والعادات والنظم بالرغم من انه قد اغفل المراحل البدائية الاولى وركز على المراحل الاخرى موجها اهمتامه للمجتمعات الاوروبية بصفة خاصة ، ولذلك اخذت دراسته صبغة التعصب العنصرى ٠

وبعد ذا المرد لمفهوم تقدم التاريخ وتطور النظم الاجتماعية والثقافية عند فلاسفة عصر التنوير ، اود هنا ان اتعرض بالتقويم

لتلك الآراء بصفة عامة ، حتى نقف على اهميتها وتاثيرها على التطورات اللاحقة في النظريات الانثروبولوجية .

وقد ذكرت سابقا ، أن الفلاسفة في عصر التنوير لم يستخدموا كلمة تطور Evolution بل جاء الاستعمال السائد بينهم هو مصطلح التقدم Progress ولكن مما لاشك فيه ان التطور الاجتماعي والثقافي كان هو الموضوع الرئيسي لدراستهم التاريخية والاخلاقية وبالرغم من أوجه القصور الواضحة في تفسيرهم لحركة التاريخ ، واهتمامهم بالجانب النظري معتمدين على التاريخ التخميني الا أن لمفهوماتهم النظرية اهمية خاصة بالنسبة للانثروبولوجيا ، فهم قد تناولوا بصورة موسوعية موضوعات تتعلق بالنظم الثقافية والاجتماعية من جميع جوانبها والعلاقات البنائية التي تربط بين تلك النظم وتطورها هذا بجانب صياغة القوانين العامة التي تحكم ذلك التطور والاسباب التي تفسره ، معتمدين في كل ذلك على التاريخ الاوروبي واستخدا مالمعلومات المتاحة لديهم عن الجماعات البدائية في تلك الفترة .

ونتج عن ذلك : الاهتمام بالتاريخ الاجتماعي للشعوب بدلا من السرد التقليدي لتاريخ الافراد والمجموعات المختارة أو الكتابة عن الحوادث المعزولة عن محتواها الاجتماعي .

ولهذا ، انتقل الكتاب من الاهتمام بالافراد الى الاهتمام بالمجتمعات ومثال ذلك ما كتبه فولتير «Voltaire» عن تاريخ النظم الاجتماعية والمؤسسات السياسية والتطلعات الاجتماعية والانتاج الفكري والفني في المجتمع ، والعلاقات الخارجية بين المجتمعات (١) . وعلى حد قول فولتير نفسه انه يهدف الى معرفة الخطوات التي انتقل

(٢) المرجع السابق ص ٣٩ – ٤٠ HARRIS, M.

خلالها الانسان من مرحلة البربرية الى الحضـارة ، ولقد تتبـع تلك الخطوات من منظور تطورى ، مما يدل على أن كلمة تقدم كان المقصود بها مفهوم التطور لدراسة التحولات الاجتماعية والثقافية مع التركيـز على النتائج الاجتماعية لهذه التحولات .

كما كان الرأى السائل بين مفكرى عصر التنوير هو : أن المراحـل الاولى لتاريخ الانسان كانت تتميز بالبساطـة وغيـاب بعض النظـم الاجتماعية مثل الملكية الفردية والحكومة المركزية والتقسيم الطبقـى الواضح ، سواء على أسس دينيـة أو اقتصاديـــة أو عرفيـة مقارنـة بالمجتمعات الاوروبية الحديثة ولذلك أطلقوا على تلك الفترة من التاريخ الانسانى (المرحلة الطبيعية) ([1]) التى لم تعرف التعقيد والتمايـز فى النظم الاجتماعية . وأهم من ذلك افترض أولئك الكتاب أن الانســان قد تقدم من خلال تطوره العقلى .

ولكن مصداقية هذا الرأى مازالت تثير جدلا مستمرا بين المفكرين فمن الواضح أن مفهوم التقدم بين الفلاسفة فى تلك الفترة كان ينطوى على كثير من القيم الذاتية التى لايمكن الاعتماد عليها علميا ، فنحـن لانستطيع أن نحدد ما اذا كانت هنالك معايير كمية وقيمية ثابتة تؤكد أن التغير قد أدى الى تعديل النظام الاجتماعى . وبالتأكيد فان هـذا المنهج لدراسة التقدم لم يتوفر عند كتاب عصر التنوير ، ولذلك اعتمدت مفاهيمهم على الاحكام الذاتية مما أدى الى الغموض فى أعمالهـم . هذا بالاضافة الى تأثرهم بالنظرة التعصبية الضيقة والمتحيزة للمجتمعات الاوروبية ، فلقد كان منطلقهم الاساسى الذى اعتمدوا عليه ، هو أن المجتمعات الاوروبية فى القرن الثامن عشر تمثل مرحلة متقدمة مـن مراحل الارتقاء مقارنة بالشعوب البدائية الاخرى خارج أوروبا ، وأن تلك المجتمعات البدائية مازالت تعيش فى أطـوار التاريـخ الاولى ،

---

(١) احمد الخشاب ، المرجع السابق ص ٤٣٠ .

وبالرغم من أوجه القصور التى ذكرتها هنا ، فليس هنالك خلاف حول ان فلسفة التاريخ فى عصر التنوير مازالت تمثل فى جوهرها العناصر الاساسية التى انطلقت منها الدراسات الانثروبولوجية التطورية ، كما سنرى ٠

نتائج فلسفة عصر التنوير :

وضحنا فى معرض حديثنا السابق ان عصر التنوير شهد قيام الافكار العقلانية التى اتجهت لنقد النظم الاجتماعية وتقييمها بمعيار المنطق والعقل فى رفضها للفكر اللاهوتى المحافظ الذى لايعترف بقدرة العقل الانسانى على التقدم ، ويرفض مقولة القوانين الطبيعية التى توجه حركة التاريخ ، وينطلق هذا الفكر اللاهوتى من تمسكه بالقوانين الالهية التى تحكم الكون بما فيه الانسان ، وبالتالى لايمكن ان يلعب العقل البشرى دورا فى تغيير الواقع الاجتماعى الذى يجب أن ينظر اليه كأرادة (الهية) واستمر ذلك الصراع بين الكنيسة والعقلانية اللتان تمثلان طرفى نقيض فى الفكر الاوروبى ٠ فالفكر العقلانى كان يبشر بتحولات جذرية تؤدى الى قيام مجتمع جديد يقوض دعائم المجتمع الاوروبى التقليدى واستبدال المثل والقيم التقليدية بقيم جديدة تتلاءم مع ظروف المجتمع الجديد وحاجاته المادية والفكرية ٠ وفى المقابل الاخر كان الفكر الكنسى يدعو الى التمسك بالقيم الدينية والمحافظة على التقاليد والموروثات والمعتقدات التى تؤدى الى تماسك المجتمع وصيانته من الانهيار ومن الضرورى ان نقف على النتائج التى انتهى اليها ذلك الصراع لما له من آثار هامة على اتجاه الانثروبولوجيين فى القرن التاسع عشر الميلادى ٠

هنالك حدثان هامان فى التاريخ الاوروبى لعبا دورا اساسيا فى احتواء الصراع التقليدى بين العلم والكنيسة والانتهاء به الى مرحلة

الوفاق أو قبول الامر الواقع وفرضه على الطرفين (١) .

اقصد هنا : الثورة الصناعية فى بريطانيا والثورة السياسية فى فرنسا ولابد ان ننظر الى هذين الحدثين كعاملين مكملين لبعضهما البعض ، ولايمكن الفصل بينهما فلقد جاءت الثورة الصناعية نتيجة مباشرة لتقدم العلوم التطبيقية . أما فى الجانب الاخر فلقد تمخضت حركة النقد الاجتماعى ، التى قادتها فلسفة عصر التنوير ، عن الثورة الفرنسية والتى كانت تجسيدا لمفهومات الفكر العقلانى والتجريبى المتطلع الى نظام اجتماعى جديد وتجدر الاشارة هنا الى ان الفكر التجريبى نفسه قد استمد قواعده الاساسية من العلوم الطبيعية ، الامر الذى يؤكد الارتباط الوثيق بين الثورة الفرنسية والثورة الصناعية ولم يكن ذلك الارتباط فى المقدمات فحسب ، بل فى النتائج ايضا ، فلقد ادت الثورة الصناعية الى تغيرات جذرية فى القاعدة الاقتصادية والاجتماعية فى بريطانيا ، ثم امتدت آثارها فيما بعد الى بقية المجتمعات الاوروبية حيث تحول المجتمع من الزراعة الى الصناعة ، الامر الذى خلخل النظام الاقطاعى الاوروبى ومؤسساته الاجتماعية والسياسية والدينية ، وبدأ سيل الهجرة الريفية الحضرية ، وصاحب ذلك النمو الحضرى السريع الذى قاد الى التفكك الاسرى ، وخلق علاقات اجتماعية على اسس جديدة ، وظهور قوى اجتماعية حديثة من العمال والطبقة الوسطى فى المجتمعات الاوروبية ، وبرز نوع من المشكلات الاجتماعية التى لم تكن مألوفة فى المجتمع التقليدى ، وبذلك بدأ يتبلور المجتمع الحديث بمشكلاته المعقدة . وبنفس القدر هزت الثورة الفرنسية المؤسسات التقليدية ليقوم مكانها الفكر السياسى الجديد الذى يؤمن بالحقوق المدنية والعدل والمساواة والقضاء على المشكلات

---

1) CUFF, E.G. and PAYNE, G.C. (eds.), Perspective in sociology: George Allen and Unwiv, London, 1979.

الاجتماعية ، ولقد كان تيار التفكير الاجتماعى قويا للغاية فى فرنسا بعد الثورة .

ولكن بالرغم من هذه النتائج ، والتحولات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لم تتحقق تنبؤات فلاسفة عصر التنوير بحدوث التغير الجذرى والقضاء على الفكر المحافظ ومؤسساته الاجتماعية وبالتالى كان من نتائج الثورة الصناعية والثورة الفرنسية ، ظهور مايعرف بنظريات الوفاق فى الفكر الاوروبى Consen us Perspective للجمع بين النظريات العقلانية المتطرفة والنظريات اللاهوتية التى تنادى بعودة الاخلاق الدينية السابقة لاصلاح المجتمع ورأب الصدع الذى احدثته الثورة الفرنسية فى البناء الاجتماعى الذى يرون انه تداعى وانهار نتيجة للمد العقلانى المتزايد ، فى تلك الفترة ، ولذلك قامت نظريات الوفاق ، والتى تسمى ايضا بالنظريات الرومانسية ، كحل وسط بين الطرفين المتصارعين فالرومانسيون لم يرفضوا الافكار العقلانية فى كلياتها بل ادخلوا بعض التعديلات على جزئياتها لتوائم روح العصر ومقتضياته بعد حدوث التغير بالفعل كما انهم فى نفس الوقت اعترفوا باهمية التقاليد والخيال والمشاعر الدينية والقيم الاخلاقية لضمان المحافظة على التوازن فى المجتمع .

والآن نحاول أن نوضح فى ايجاز كيف تطور الفكر الرومانسى ، وفى نفس الوقت كيف اكتسبت أفكار عصر التنوير استمراريتها من خلال ذلك الفكر بعد أن استوعب بعض مفهوماتها المعدلة . ففى خلال الربع الاول من القرن التاسع عشر تحول الوضع ضد الميراث الفلسفى العقلانى وانبعثت من جديد الافكار اللاهوتية التى حسب فلاسفة التنوير أنها قد انتهت وليس لها مكان فى فكر المجتمع الصناعى ، وكثيرا ماسخروا منها واعتبروا انها غير جديرة بالاهتمام . ولكن بالرغم من تلك الردة ، لم يستطع الفكر المحافظ القضاء تماما على استخدام منهج العلوم الطبيعية فى دراسة التاريخ ولم تنته حركة العقلانية ،

بل ظلت جذوتها مشتعلة ، ولقد ساعدهـا عـلى ذلك التقدم المستمر فى العلوم التطبيقية وتاثيرها المتزايد فى الواقع المعاشى للمجتمع ، طبقا لمقتضيات الصناعة والتجارة ، بالاضافـة الى هـذا بدأ دور الطبقـة الوسطى يتعاظم فى السياسـة وادارة المؤسسـات الصناعية ولم تكـن نتائج الثورة الفرنسية بالنسبـة لهذه الفئـة الاجتماعية سببا مقنعـا للرجوع الى الفكر اللاهوتى العقيم ، وبنفس القدر خوفهم من تزايـد القوى السياسية الحضرية ، جعلتهم ينظرون بحذر الى الفكر المـادى فى تفسير التاريخ . ولذلك اتخذوا موقفا وسطـا ، الامر الذى ضمـن سير العلوم الاجتماعية فى اتجاه المنهج العلمى الذى قوى وضعه نسبة لاهميته الاقتصادية والصناعية ومن خلال ذلك تبلور الفكر الرومانسى بين مفكرى الطبقة الوسطى ، ورسخ مفهوم الوفاق او عدم التدخل [1] Laissez Faire ولقد لعب ذلك المفهوم دورا هامـا فى نمو العـلوم الاجتماعية وعدم وادها فى المهد . ويتضح ان نظريات الوفاق فى تلك المرحلة كانت تنطوى على كثير من التناقضات فى موقفها بين المحافظين والعقلانيين فى تلك المرحلة .

وسرعان ما استعاد المنهج العلمى مركزه مرة اخرى خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر تحت تاثـير الاهتمام المتزايد بنظريـة التطـور لدارون Darwin فى عـلم الاحيـاء ـ وسبنسر Spencer فى العلوم الاجتماعية ، وهنا لم تتمكن النظريات المحافظة من وقف المد السريع والمتزايد للمنهج العلمى الـذى يتضـح اثره فى دراسـات مورجان Morgan وتايلور «Tylor» وماكلينان Mclennan وغيرهم من الكتاب الذين لعبوا دورا هاما فى وضع اللبنات الاولى للدراسـات الانثروبولوجيـة .

---

(١) المرجع السابق ص ٥٤ . HARRIS, M.

الفصـل الثالث

الدراسات الانثروبولوجيـة فى القرن التاسع عشر*

---

* كتب هذا الفصل الدكتور / حسن محمد صالح

نظريـة التطـــور :

لايمكن ان تكتمل حلقات النقاش وتتضح لنا صورة متكاملة عـن العوامل التى اسهمت فى تقدم الدراسات الانثروبولوجية الا اذا تناولنـا بشىء من التفصيل آراء هيربرت سبنسر وداروين عن التطور العضوى والثقافى والاجتماعى . واود ان ابدا هنا باعطـاء فكرة مبسـطة عن نظرية التطور البيولوجى التى اشتهر بها العالم البريطانـى شارلس داروين C. DARWIN والتى ضمنهـا فى كتابيـه اصـل الانـواع Origin of Species الذى نشر فى عـام ١٨٥٩م ، واصـل الانسان Descent of Man عام ١٨٧٤م . ويفترضـ داروين ـ ان الكائنـات الحية قد تطورت من بعضها البعض اى من خلية واحدة نتيجة للتشابه فى التكوين الجسمى بينها ، وهنالك نسق واحد لهذا التطور سـارت عليه جميع الاحياء مرتقية من اسفل الى اعلى حتى جاء الانسان على قمة ذلك التطـور . واعتمدت الداروينيـة فى الاستدلال عـلى مفهـوم الصراع من اجل البقاء ، والبقاء للاصلح الامر الـذى ادى الى بقـاء بعض الكائنات الحية وانقراض البعض الاخر ، فالنوع الخامل الـذى لايقوى على الصراع يفقد وظيفته ويضمحل حتى ينقرض نهائيا ، وربما يبقى منه اثر يدل عليه ، ولكن ليس له دور يقوم به ، ومن هنا نشأت فكرة الرواسب بمعنى ان بعض الاعضاء البدائية غير المتطورة كالزائدة الدودية مازالت موجودة فى الجسم البشرى والحيوانى بالرغم من انها قد فقدت وظائفها ،وسنرى فيما بعد كيف استخدم علماء الانثروبولوجيا هذا المفهوم لتفسير بعض الظواهر الثقافية والاجتماعية التى ليسـت لها وظائف فى النظام الاجتماعى وانما هى مجرد رموز أو رواسب من مراحل تاريخية سابقة .

هذه هى باختصار افكار داروين والتى عرفت بنظريـة النشوء والارتقاء وفى الواقع ظلت هذه الاراء مجرد افتراضات غير مؤسسـة بل ان تقدم البحث العلمى قد اكد عدم صحتها وتناقضهـا مع الحقائق العملية الثابتة ، ومهما يكن من أمر فنحن فى غنى عن تقويم الداروينية

من وجهة نظر علم الاحياء (١) ، ولكن مايهمنا هنا هو الجانب الاجتماعى ، فهى افتراضات تعتمد على التحيز العنصرى اذ وضع الانسان الاوروبى على قمة سلم الارتقاء للجنس البشرى ، كما ان فكرة الانتقاء الطبيعى الذى يتم من خلال الصراع من أجل البقاء اعتمدت على عوامل وراثية بيولوجية مما يتفق مع الافكار العرقية التى كانت سائدة فى تلك الفترة وأدت الى انتشار العنصرية والقوميات وتكوين الطبقات والصراع الطبقى فى المجتمعات الاوروبية ولذلك وجدت افكار دارون قبولا ورواجا فى تلك الفترة من التاريخ الاوروبى لاسباب عديدة نذكر منها هنا انتشار وسيادة الفكر العلمانى وتقدم النظام الرأسمالى وسيطرة أوروبا على المجتمعات البسيطة ومن هنا توثقت الصلة بين مفهوم التطور الثقافى والنظريات العنصرية التى تؤكد على اهمية الوراثة فى المكونات الثقافية ، وان التفاوت التكنولوجى بين المجتمعات البشرية ماهو الا نتيجة للتفاوت فى القدرات العقلية لاسباب عنصرية ، مما عمق من فكرة التفوق الطبيعى للرجل الابيض بمقارنته مع مايسمى بالرجل البدائى . وسنوضح الجوانب السلبية لمثل هذه الافكار عندما نناقش اعمال كتاب نظرية التطور الاجتماعى بالتفصيل .

بالرغم مما ذكرناه عن تأثير الدارونية على دراسات تطور النظم الاجتماعية فهذا لايعنى ان فكرة التطور بشقيها البيولوجى والاجتماعى قد بدأت بدارون ، فكثير من الكتاب يتصورون أن نظريات التطور الاجتماعى كانت نتاجا مباشرا للدارونية ، فهذا مفهوم يجب تصحيحه خاصة أن اقتران الانثروبولوجيا بالدارونية قد أدى الى تشويه الكثير من مفاهيمها الهامة التى كان يمكن أن تكون واضحة ومقبولة ، ولكن التعتيم الذى لحقها نتيجة للتاكيد ، غير المؤسس ، على أنها جزء من الدارونية ، أعاق تقدمها النظرى لفترة طويلة .

---

(١) لمزيد من الايضاح حول هذا الموضوع يمكن مراجعة محمد على يوسف : مصرع الدارونية : دار الشروق ، جدة : ١٩٨٣ .

لذلك أود ان أوضح هنا هذا الجانب . فلقد راينا فى الجزء السابق من هذه الدراسة كيف قامت فكرة التقدم الاجتماعى كرد فعل فكرى وسياسى للافكار التقليدية المحافظة خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر .

ولايمكن ان نهمل الحقائق التاريخية الثابتة والموضوعية التى تدل على ان افكار التطور البيولوجى والاجتماعى قد كانت متزامنة فى الفكر الاوروبى كنتيجة منطقية للتراكمات العلمية منذ عهد التنوير . ويعتبر ماليثوس هو أول من اورد مفهوم البقاء للاصلح حينما نشر « مقالة حول أسس السكان » Essay on the principle of population قبل ظهور الدارونية بستين عاما تقريبا ولقد اعتمد دارون على هذا المفهوم فى صياغة فروضه عن التطور البيولوجى من خلال الانتخاب الطبيعى . فبالرغم من آراء مالثيوس عن التقدم ورفضه لفكرة ارتقاء الانسان الا أنه أفترض أن أعدادا كبيرة من العنصر البشرى محكوم عليها بالشقاء والانقراض كنتيجة حتمية لعدم الموازنة بين القدرات الانتاجية لتوفير الغذاء من جانب ، والنمو السكانى من جانب آخر .

وفى الواقع ، انى أرى أن دور الدارونية فى تطور الانثروبولوجيا فيه الكثير من الغلو بدليل ان افكار باخوفن Bachojon فى «حق الام» Mothers Right قد ظهرت فى سلسلة المحاضرات التى القاها فى عام ١٨٥٦م أى قبل ثلاث سنوات من نشر كتاب «أصل الانواع» لدارون ، وكذلك اعمال هنرى مين عن «القانون القديم» Ancient Law الذى حاول ان يوضح فيها أصل المفهومات القانونية وتطورها ، واعتمد كلا الكاتبين على المصادر الرومانية القديمة للاستدلال على عالمية تطور النظم الاجتماعية وليس هناك اى اشارة لتأثير الدارونية على أعمالها ، وسنتعرض بالتفصيل لباخوفين ومين فيما بعد .

فاذا ، الاعتقاد الذى يقول بأن الانثروبولوجيا التطورية ظهرت بعد الدارونية اعتقاد لايستند على حقائق تاريخية ولا يتسم

بالموضوعية وفيه تبسيط لاهمية الفكر الاجتماعى ووصفه بالتبعية للعلوم الطبيعية ، فلقد وضحنا سابقا ان التقدم الانسانى مفهوم قديم ازداد الاهتمام به فى عصر التنوير ، ولذلك ليس من الموضوعية ان تقلل من شان الانثروبولوجيا التطورية . ونرجع نشاتها ونحددها بنشاة الدارونية . ولكن يجب ان لايفهم رايى هذا بانه ليس هنالك تاثير للدارونية على الانثروبولوجيا التطورية ، ويمكننا ان نكون اكثر موضوعية ونأخذ بالراى الذى يعتقد فى التزواج المستمر بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية ولايمكن الفصل بينهما ، بمعنى ان هناك تاثيرا متبادلا بين شقى الفكر الانسانى الطبيعى والاجتماعى والذى لايقبل التجزئة ، ولقد جاء مفهوم التطور سواء فى العلوم الاجتماعية أو العلوم الطبيعية نتاجا لهذا التزواج اما فيما يتعلق بتقديم او تاخير كاتب معين على آخر فهذا يسهل اثباته او نفيه وفقا للحقائق التاريخية المتوفرة لدينا .

واود ان اثبت هنا ان اثر الدارونية قد كان قاصرا على الانثروبولوجيين الذين جاءوا بعد دارون وخاصة بعد اتساع دائرة المعلومات عن المجتمعات المسماة بالبدائية والذى صاحب التوسعات الاستعمارية ومن هنا اتسمت دراسات أولئك الانثروبولوجيين بالعنصرية ، وان كان مفهوم العنصرية موجود قبل تلك الفترة ولكن الدارونية أضفت عليه الصبغة العلمية وادت الى تعميقه وتأسيسه فى الفكر الاوروبى (١) .

نكتفى بهذا القدر من النقاش عن الدارونية لنتناول هيربرت سبنسر H. Spencer الذى اقترن اسمه بدارون عند كثير من كتاب علم الاجتماع والانثروبولوجيا ، وحقا هو خير من يمثل الصلة بين

---

(١) المرجع السابق : ص ٤٦ - ٦٤
VALLOIS HENRY V. «Race» in TAX, Sol (ed.),

التطور الاجتماعى والتطور البيولوجى ، اضافة الى أهمية آرائه فى توجيه الانثروبولوجيا بدءا بمفهوم التطور الثقافى وانتهاء بالمدارس الوظيفية والوظيفية البنائية فيما بعد .

لقد جاءت افكار سبنسر وداروين متزامنة الى حد ما ، الا أن ، السبق فى مفهوم التشابه بين التطور البيولوجى والتطور الاجتماعى كان لسبنسر وهو قد استخدم كلمة «تطور» لاول مرة فى عام ١٨٥٧م فى «القوانين الاساسية للفيسيولوجيا» ([1]) .

The Ultimate Laws of physiology

واتبع ذلك بعمل آخر سماه : اسس علم الاحياء فى عام ١٨٦٦ Principles of Biology ثم أسس علم الاجتماع Principles of Sociology واشتهر بما يعرف بالتشبيه العضوى Organic Analogy فهو قد شبه المجتمع بالكائن الحى وبالتالى فهو يرى أن المجتمعات تمر بمراحل تطورية شبيهه بالتطور البيولوجى وبدأ سبنسر ينشر تلك الافكار فى عام ١٨٤٢ وضمها فى مقالاته عن : « الاستاتيكا الاجتماعية » Social Statics ـ وكانت آراؤه شبيهة بآراء اوجست كونت Auguste Connte بصفة عامة ولكنه اضاف افكارا جديدة تتصل بالتعقيد والتركيب والتمايز والتكامل فى دراسة المجتمع الانسانى . فهو يفترض أن طبيعة المجتمعات الانسانية لاتختلف عن طبيعة العضو الحى ، والتى هى نتاج لعملية تطورية تعتمد على التكيف مع متطلبات الحياة ، ولذلك يكون التطور ضرورة طبيعية ليبقى المجتمع صحيا لمقابلة متطلبات البيئة الاجتماعية اذا اراد البقاء وتحمل الضغوط . واعتمادا على هذه المعايير ، افترض سبنسر أن الجماعات تنمو ويكبر حجمها وبالتالى تتحول من مجتمعات بسيطة الى مجتمعات معقدة فى تركيبها نتيجة للتمايز بين الوظائف المختلفة مما يؤدى الى التكامل

---

(٢) المرجع السابق ص ١٠٨ HARRIS, M.

والتساند بين هذه الوظائف لضمان استمرارية المجتمع . ويرى سبنسر أن المجتمع الانسانى تطور من مرحلة حالة الحرب ، أى التنظيم البسيط الذى يعتمد على الصراع ، الى المرحلة الصناعية التى برز فيها التنظيم المعقد القائم على التكامل والتساند وزيادة الاتجاه نحو الواقعية وضبط الحياة الاجتماعية عن طريق العلم الذى يؤدى بالضرورة الى مزيد من الانتاج واتساع فى اوقات الفراغ .

ولقد قيد سبنسر مفهوم التقدم ولم يجعله تقدما مطلقا لانهاية له ، بل أخذ برأى النمو الدورى ، كما هى الحال فى الكائنات الحية فالمجتمع ينمو حتى يصل مرحلة معينة من التعقيد والارتقاء ، ثم بعد ذلك يبدأ فى التفكك حتى يتلاشى بالتدرج ، فاذا يكون التطور الاجتماعى متفقا مع التطور البيولوجى الذى ينتهى بفناء العضو .

ووضع سبنسر اطارا عاما لتحليل تطور النظم الثقافية الرئيسية معتمدا على فكرة التساند والتكامل بين أجزاء المجتمع ، مبتدئا بالبحث فى نشأة الوحدات الاجتماعية بدراسة الاسرة وتطورها خلال التحول فى العلاقات الجنسية من الاباحية Promiscuity الى الزواج البوليادى Polyandry أى تعدد الازواج . (أو نصفه بصورة أوضح ، هو نظام يبيح للمرأة الارتباط بأكثر من زوج واحد فى نفس الوقت » ثم مرحلة تعدد الزوجات Polgyny وأخيرا الزواج الآحادى Monogamy حيث لاتبيح القوانين الاجتماعية الغربية للرجل الاقتران بأكثر من امرأة فى آن واحد .

ولقد قرن سبنسر كل تلك التحولات التى حدثت فى محيط الاسرة والزواج بتدرج المجتمعات فى مجال التنظيم السياسى الذى يحقق حاجة الافراد للتعاون والتبادل والتنسيق فيما بينهم لاشباع حاجياتهم الاساسية مثل الغذاء والمأوى والحماية . ومن ثم نشأ النظام السياسى لينظم معاملات الافراد والجماعات مع بعضهم البعض مما أدى الى خلق

نوع من الانماط الاجتماعية وصفها سبنسر « بالقيود الاجتماعية» ، ولكن سماها علماء الاجتماع والانثروبولوجيا فيما بعد «بالضبط الاجتماعى » ومن هنا نشا الارتباط بين الدين ووظائفه السياسية والاجتماعية وفق راى سبنسر الذى يقول ان وظائف الدين «او القيود الروحية» كانت مرتبطة بالضبط السياسى الذى اعتمد عليه التماسك الاجتماعى فى مراحل التطور المختلفة الى ان بلغ المجتمع مرحلة الصناعة .

وبالرغم من ان اوجه القصور الواضحة فى آراء سبنسر التى اعتمدت على «التشبيه العضوى» الا انه اسهم كثيرا فى تقدم الانثروبولوجيا من حيث النظرية والمنهج . ولابد ان نذكر هنا اسهامه فى المنهج المقارن الذى استخدمه العلماء من بعده مثل مورجان وتايلور. فلقد جمع سبنسر فى عام ١٨٧٣م معلومات اثنوغرافية كثيرة من المصادر التاريخية وعن المجتمعات البدائية وصنفها فى عمله « علم الاجتماع الوصفى » Descriptive Sociology ويعتبر هذا العمل من القواعد الاساسية للمنهج المقارن الذى اعتبره سبنسر من صميم العلوم الاجتماعية . ولكن دور سبنسر فى‌الانثروبولوجيا لم يجد الاهتمام الكافى ، رغم أن كل اعماله تضمنت معلومات غزيرة عن المجتمعات البدائية مما جعلها تدخل فى نطاق مايعرف الان بالانثروبولوجيا الثقافية . ويمكن أن يكون استخدام سبنسر لمصطلح « علم الاجتماع» جعل الذين يؤرخون لنشاة الانثروبولوجيا يهملونه ويصنفونه ضمن قائمة كتاب علم الاجتماع الذين ليست لهم صلة بدراسة المجتمعات البدائية .

وفى الواقع كان سبنسر يهدف الى وضع علم متكامل يختص بدراسة التطور الثقافى والاجتماعى انطلاقا من مفهوم وحدة الطبيعة الانسانية فالاوربيون يمثلون اعلى مستوى وصلت اليه تلك الطبيعة ، بينما تمثل المجتمعات البدائية ادنى مستويات التاريخ الانسانى .

ولذلك نلاحظ انــه فى «الاستاتيكا الاجتماعيــة» Social Statics يدعو الى عدم تدخل الدولة فى توجيه التغير الثقافى ، لان مثل هــذا التدخل سيكون ضد قوانين التاريخ الطبيعى . كما انه يدافع عن الملكية الخاصة ومبدأ حرية التجارة والاستثمار كنتيجة طبيعية لتطور المجتمع ، ووفقا لرايه فان تقدم الصناعة سيؤدى بالضرورة لخلق نوع جديد من التنافس ليس على قرار التنافس العسكرى الذى استطاعت من خلالــه الدول الاوروبية أن تسيطر على الشعوب البسيطــة . ولكنــه يفترض تطور المجتمع الانسانى طبيعيا نحو مرحلة الصناعة والسلام .

ومهما يثار من جدل حول آراء سبنسر ، فهو قد لعب دورا هاما فى تاكيد الصلة الوثيقة بــين مفهــوم التطــور الثقافــى والنظريــات العنصرية الامر الذى جعله يبتعد عن الموضوعية فى تحليله . ويتضــح فى » أسس علم الاجتماع Principles of Sociology ١٨٧٦ التاكيد المستمر على اهمية العوامل الوراثية فى السلوك الانسانى ، وهذا دليل على ان فروض سبنسر قد اعتمدت فى كثير من جوانبها على « مفهوم الحتمية العنصرية هذا المفهوم الذى كان سائدا فى الفكر الاوروبى خلال الفتــرة ١٨٦٠ – ١٨٩٠م . كما أسهم سبنسر فى تعميق ونشر مفهوم المجتمعات البسيطة والمتخلفة ، والجدير بالذكر ، أن هــذا المفهوم هو أحــد المنطلقات الاساسية التى اعتمد عليها الاستعمار الغربى فى تعامله مــع الشعوب المستعمرة ، فلقد كان الاعتقاد السائد بين الاوروبيين أن سكان المستعمرات يمثلون عهد الطفولة فى التاريخ الانسانى ، ولذلك يجــب ان يعاملوا معاملة مختلفة عن نمط المعاملة الموجودة فى المجتمعــات الاوروبية فالرجل البدائى يتصف بالكسل والخمول وعدم الاستجابــة العقلانية للاقتصاد النقدى ، بخلاف ما عليه الرجل الاوروبى ، واذا لابد أن يجبر السكان المحليين على العمل لتوفير المواد الاولية للصناعة الاوروبية وفرض الضرائب عليهم حتى يستجيبوا لمتطلبات الاقتصــاد النقدى .

وهنا لابد لنا أن نتطرق لدور الاستعمار وأثره في تقدم الدراسات الانثروبولوجية . فمن المعروف أن القرن التاسع عشر كان يمثل ذروة التوسعات الاستعمارية والتى أدت الى الاتصال المباشر بين الاوروبيين والمجتمعات المستعمرة فى آسيا وأفريقيا والامريكتين واستراليا وبالطبع كانت الاهداف الاستعمارية هى السيطرة على تلك المجتمعات واستغلالها سياسيا واقتصاديا وثقافيا ودينيا . ولقد وجد الاوروبيون انهم يتصلون بمجتمعات تختلف عنهم فى عاداتهم وتقاليدها ومعتقداتها ونظمها الاجتماعية والاقتصادية ، ومن هنا نشطت الدراسات الانثروبولوجية بأهدافها النظرية والتطبيقية متخذة من هذه المجتمعات الصغيرة مجالا لدراساتها (١) .

ففى الجانب النظرى ، افترض علماء الدراسة التطورية أن المجتمعات الصغيرة خارج أوروبا مجتمعات بدائية تعيش فى مراحل تاريخية متأخرة وهى مازالت ترتقى سلم التطور سائرة على الخط التطورى الذى سلكته المجتمعات الاوروبية ، ولذلك يمكن الاستعانة من دراستها لاختيار الفروض التطورية لنظرية النشوء والارتقاء بدلا من الاعتماد على معلومات تاريخية غير مؤكدة من التاريخ الاوروبى، وبالتالى ساد الاعتقاد الذى يؤمن بأن هذه المجتمعات البسيطة هى بمثابة متاحف بشرية أو مجتمعات تاريخية جامدة ومتحجرة Fossil Societies (٢)

اما فى الجانب التطبيقى فلقد كان الهدف من دراسة تلك

---

(١) لمزيد من المعلومات عن العلاقة بين الانثروبولوجيا والاستعمار يمكن الرجوع الى :
ASAD, TALAL (ed.) Anthropology and colonial Encounter : Hurst, London 1975.

2) DE CHARDIN, PIERRE T., The Idea of Fossil Man» in TAX, Sol (ed.)

المجتمعات المستعمرة هو الالمام بنظمهـا الاجتماعيـة من اقتصاديـة ودينية وسياسية وعائلية ، وقيم ثقافية ، حتى يتمكن المستعمرون مـن وضع النظم الادارية التى تساعدهم فى السيطرة على هذه المجتمعـات واستتباب الامن فيهـا لتحقيـق الاهـداف الاستعماريـة المتمثلـة فى الاستغلال الاقتصادى من حيـث الاستفادة مـن المـوارد الطبيعيـة والبشرية التى اعتمدت عليها الصناعة الاوروبية وضمـان استمراريـة هذه الموارد وتهيئة تلك المجتمعات لتسويق المنتجات الصناعيـة بينها. هذا بجانب نشر الدين المسيحى واللغة الاوربية حتى ترتبط المجتمعات المستعمرة بالمجتمع الاوروبى ثقافيا وسياسيا واقتصاديـا .

لكل هذه الاسباب مجتمعة اكتسبـت الدراسات الانثروبولوجيـة اهمية خاصة فى اطار التوسعات الاستعماريـة ، وقوى الاتجـاه نحـو تشجيع مثل تلك الدراسات وتمويلها والاهتمام بنتائجهـا والاستفادة منها .

ومن هنا تتضح العلاقة الوثيقة بـين الانثروبولوجيا والاستعمـار خاصة فيما يختص بالجوانب التطبيقيـة ، ولذلك كثـيرا ما توصـف الانثروبولوجيا بأنها علم استعمارى لان هدفهـا كان السيطرة عـلى الشعوب الصغيرة ، ولهذا السبب نجد أن الدراسـات الانثروبولوجيـة قد تضاءلت أهميتها فى دول العالم الثالث بعد حركـات الاستقـلال ، ولكن مهما يكن من أمر فان هذا لايعنى أن النظم السياسيـة الوطنيـة يجب أن تستغنى عن الدراسات الانثروبولوجيـة نهائيـا ، فمـا زال هنالك دور للانثروبولوجيا فى مجتمعات العالم الثالث خاصة اذا اخذنا فى الاعتبار التزايد المستمر فى عـدد الانثروبولوجيين الوطنيين الذيـن يقومون بدراسة مجتمعاتهم ولابد أن تكون هـذه الدراسات مرتبطـة

---

(٢) المرجع السابق ص ٣١ ـ ٣٨ .

بالاهداف الوطنية التى ينطلقون منها ، ويوظفون الاساليب العلمية لخدمة تلك الاهداف ، ولذلك لايكون ارتباط الانثروبولوجيا بالاستعمار تاريخيا . مبررا معقولا لرفضها او التقليل من اهميتها فى الوقت الحاضر ([1]) .

وقد تراكمت الاسهامات العلمية التى بدات فى عصر التنوير حتى وصلت الى منتصف القرن التاسع عشر الميلادى حيث بدات تتبلور بوضوح الدراسات الانثروبولوجية العلمية لنشأة وتطور النظم الاجتماعية خاصة فى الفترة مابين ١٨٦٠ - ١٨٩٠م ، وهى مرحلة الانطلاق للانثروبولوجيا الثقافية ، بعد ان توفرت آنذاك عدة عوامل ادت الى الاتجاهات العلمية الجادة فى الانثروبولوجيا ، ومن هذه العوامل : نجاح المنهج التجريبى فى العلوم الطبيعية ومن ثم امتد تاثيره الى العلوم الاجتماعية وبدا تطبيقه فى دراسة نشاة وتطور النظم الاجتماعية بطريقة مكثفة بالاعتماد على التفاصيل الدقيقة لمراحل ذلك التطور ، الامر الذى نتج عنه بعض الدراسات الموثقة بالمعلومات التاريخية والمتخصصة للموضوعات التى كتب عنها علماء عصر التنوير بصفة موسوعية ، ومما اكسب هذه الدراسات اهمية علمية تزايد المعلومات التى امكن الحصول عليها من المجتمعات المستعمرة مع المد الاستعمارى فى تلك المرحلة . فنشات اعمال مدرسة القانون المقارن التى كانت بمثابة التدقيق والتمحيص لما خلفه تيرجو Turgot ومونتسكيو Montesquieu وآدم فيرجسون A. Fergsun ، عن سير حركة التاريخ العام للانسان على المستوى العالمى . ومن اهم رواد تلك المدرسة هنرى مين H. Maine وباخوفن Bachojen وماكلينان Mclennan ، الذين حاولوا دراسة تطور النظم الاجتماعية من منظور

(١) حول هذا الموضوع ، انظر : FAHIM, HUSSEIN (ed.) Indigenous Anthropology in Non - Western Countries : CAROLINA ACADEMIC PRESS, 1982.

قانونى ، ومما ساعدهم على ذلك تقدم المعرفة المتصلة بالمعلومات التاريخية القديمة ، فاعتمدوا على المصادر اليونانية والرومانية فى البحث عن البدايات الاولى لنظم القرابة والزواج والتنظيم السياسى فى المجتمعات الاوروبية فى العصور السابقة .

ومن العوامل التى ساعدت على تقدم الدراسات التطورية فى منتصف القرن التاسع عشر ، التوسع فى حجم المعلومات التى توفرت عن طريق علم الاثار حيث ظهرت بعض النتائج الهامة للحفريات العلمية فى أوروبا فاستفادت المدرسة التطورية من هذه المعلومات الاثرية واستخدمتها فى توضيح العلاقة بين جوانب الثقافة المادية المختلفة وتطور بعض النظم الاجتماعية كجزء من اتساق التطور العالمى ، ومن هنا طبق بعض العلماء مفهوم المراحل الثلاث التى مر بها العنصر البشرى خلال تطوره المادى كما تصورته الاكتشافات الاثرية وهذه المراحل هى : (١) .

(١) العصر الحجرى　　　(٢) العصر البرونزى

(٣) العصر الحديدى

هذا بالاضافة الى التقسيمات الفرعية الاخرى لكل مرحلة من هذه المراحل .

ولقد اعتمد تايلور E. Tylor على فكرة هذه المراحل الاثرية ليدعم افتراضاته النظرية عن العلاقة بين التطور المادى والتطور الاجتماعى ، كما حاول لويس مورجان L. Morgan دراسة الارتباط بين التغير التقنى وارتقاء الانسان فى مجال النظم الاجتماعية .

---

1) CLARK, GRAHAME, D, «Archacological Theories and interpretation : old world» in TAX, Sol (ed.),

المرجع السابق ص ١٠٤ - ١٢١

وسنتناول هنا بالتفصيل اعمال هؤلاء الكتاب والنتائج التى توصلوا اليها • وتجدر الاشارة الى ان دراسة الاسرة والزواج كانت تمثل المحور الاساسى الذى قامت حوله تلك الدراسات الانثروبولوجية المبكرة بالاضافة الى دراسة تطور الدين والنظم السياسية والاقتصادية فى الاطار العام لعلاقات القرابة والمصاهرة •

باخوفن : JOHANN BACHOFEN

ذكرنا سابقا ان باخوفن مع هنرى مين وماكلينان يمثلون مدرسة القانون المقارن ، ولقد حاول كل من باخوفن وهنرى مين ان يوضحا ان الاسرة الاوروبية الحديثة قد تطورت من نظم القرابة القديمة والتى يرى باخوفن انها بدات بالانحدار الامى وسلطة الام بينما يرى مين ان اقدم النظم القرابية قد بدات فى المجتمعات الانسانية بالانحدار الابوى وسلطة الاب •

فلقد نشر باخوفن كتابه « حق الام » فى عام ١٨٦١م حيث افترض ان الحياة الاجتماعية الاولى قد بدات بالاباحية الجنسية واطلق على تلك المرحلة اسم Hetairism والتى كانت النساء فيها تحت سيطرة الرجال وطغيانهم وفى مثل تلك الظروف ليس امام الابناء فرصة الا الانتساب الى امهاتهم لانه من غير الممكن التعرف على ابائهم لان العلاقة بالام طبيعية وواضحة ، ولذلك بدات النظم القرابية بالانحدار الامى ، ومن خلال هذا النظام اكتسبت المراة مكانة اجتماعية ودينية واقتصادية وسياسية فى المجتمع اعلى من مكانة الرجل• ويرى باخوفن ان ذلك قد جاء عن طريق رفض النساء لتسلط الرجال عليهن وقادت المراة صراعا طويلا للتحرر من ذلك التسلط عن طريق الوازع الدينى الذى يعتبره باخوفن المحرك الاساسى للتقدم الحضارى وهو الذى ساعد النساء للتخلص من سيطرة الرجال ومن هنا ظهرت فكرة تاليه المراة والحق الالهى للنساء والرباط المقدس بين الام وابنائها، واعتمد باخوفن على معلومات تاريخية من الحضارات القديمة لتدعيم

آرائه التى تقول بأن المجتمعات الانسانية بدات بسيادة النساء واجبرت الرجال على الزواج واسست الاسرة على اسس دينية ، واعتمدت كل ام على ابنائها الذين ينتسبون اليها لتنال مكانة مرموقة فى المجتمع ، وكل ذلك ادى الى نشأة النسق القرابى الامى الذى يعتمد على حق الام [١] ٠

ولكنلم يقبل الرجال ذلك الوضع ، وثارو بدورهم على سلطة النساء معتمدين ايضا على العامل الدينى وفقا لراى باخوفن وتطورت بعض المعتقدات والعادات التى يمثل فيها الرجال دور الامهات لتقوية الرباط بينهم وبين ابنائهم ، واستشهد باخوفن ببعض الطقوس الموجودة فى المجتمعات البدائية حيث يقوم الاب باصطناع تجربة ميلاد الطفل بالاضافة الى انماط القيود التى تضعها هذه المجتمعات على الاطفال اثناء نموهم ، وبالتدريج احتل الرجال مكانة دينية عالية فى المجتمع وبالتالى تحولت السلطة من الام الى الاب وبدا الاعتماد على نسق القرابة الابوى والانتساب الى الذكور بدلا من الاناث ٠

هنـــرى مين : HENRY MAINE

وفى نفس الوقت نشر هنرى مين كتابه « القانون القديم» ١٨٦١م Ancient Law وادعى فيه أن المجتمعات الانسانية قد بدات بالسلطة الابوية ونسق القرابة للذى يعتمد على الانحدار الابوى عن طريق خط الذكور ، ورفض الاعتراف بأن السبق كان للنظام الامى ٠ ومن اهم اسهامات هنرى مين فى هذا المجال انه افترض ان القرابة هى الاطار العام الذى اعتمد عليه النظام الاجتماعى فى المجتمعات البدائية ٠ فلقد كانت للاب السلطة المطلقة على ابنائه وزوجاته ، ومن هذا المنطلق حاول ان يوضح عالمية السلطة الابوية من خلال دراسته للتحول عن الاسرة الرومانية القديمة الى الاسرة الاوروبية الحديثة كسمة مميزة

---

(١) المرجع السابق ص ١٨٨ HARRIS, M.

للمجتمعات المتقدمة ، ولذلك نلاحظ ان هنرى مين لم يهتم كثيرا بالقوانين العامة التى تحكم التطور المتسق لكل المجتمعات الانسانية بقدر ما اهتم بتاريخ الامم المتقدمة . وهو يفترض ان المجتمع تطور من الاعتماد على الاسرة نحو تعاظم دور الفرد .

ففى المجتمعات القديمة ، كانت الاسر تندمج مع بعضها البعض من خلال الوظائف القانونية ، لتكون مجموعات اكبر ، من غير ان تفقد كل اسرة ذاتيتها وكيانها ، ولذلك نجد ان الاسرة كمثل الوحدة الاجتماعية فى المجتمعات القديمة ولكن بتطور المجتمعات اضمحل دور الاسرة وتقلصت وظائفها حتى أصبح الفرد يمثل الوحدة الاجتماعية فى المجتمعات الحديثة ووفقا لهذا الراى تكون المجتمعات قد تطورت من الاعتماد على الاسرة الى الاعتماد على الفرد ، بمعنى انه كلما تقدم المجتمع قل اعتماده على الاسرة وزاردت اهمية الفرد .

وهنا يرى مين ان التقدم كان من المرحلة الاولى التى كان النظام الاجتماعى فيها يعتمد على المكانة المرتبطة بالاسرة الى المرحلة الثانية التى تقوم على العلاقات التعاقدية بين الافراد ، ولقد تميزت المرحلة الاولى بالملكية الجماعية للموارد الاقتصادية بينما تميزت المرحلة الثانية بالملكية الخاصة . كما ساد فى المرحلة الاولى نمط واحد من القوانين حيث كانت تعتبر الجرائم كلها جرائم ضد الاسرة والتعديات تسوى بواسطة الاتفاق والتعويضات بين الاسر المختلفة ، اما المرحلة الثانية فشهدت تطور نوعين من القوانين هما القانون المدنى والقانون الجنائى حيث قسمت الجرائم الى نوعين ايضا فهنالك الجرائم التى تخص المجتمع والجرائم التى تخص الافراد (١) .

ولقد اعتمد النسق التطورى عند مين على مفهوم تقدم النظام

---

(١) (ترجمة احمد ابو زيد) Evans - Pritchand
المرجع السابق : ص ٤٥ — ٥٣

الاجتماعى من مرحلة الاسرة العشائرية الممتدة القائمة على العلاقات الجمعية العاطفية ، حتى وصل الى المرحلة الحديثة التى تعتمد على العلاقة الاقليمية بين الافراد . ويعتبر هذا من المفهومات الهامة التى كان لها اثر واضح على علماء الاجتماع والانثروبولوجيا فيما بعد ، فنلاحظ ان فيرديناند تونيز F. Tonnies قد استخدم هذا المفهوم لدراسة انتقال المجتمع من النظام الاقطاعى الى النظام الراسمالى من خلال تغير العلاقات الشخصية العاطفية الى علاقات فردية بين غرباء لاترتبط بينهم صلات القرابة بل اعتمدوا على الاطار الاقليمى . وفى مجال التجارة انتقل المجتمع من مرحلة المقايضة والتبادل العينى الى مرحلة البيع والشراء . وبالمثل تطور مفهوم الضبط الاجتماعى من الاعتماد على الجزاء الدينى الى الجزاء العلمانى ، اى عن طريق القوانين الوضعية .

واستمر هذا الاتجاه ، الذى بلوره مين للمقارنة بين المجتمعات القديمة والمجتمعات الحديثة ، خلال القرن العشرين ، ويتضح ذلك فى اعمال اميل دور كايم ، الذى اعتمد على فكرة التطور من التضامن الالى الى التضامن العضوى ، ثم ماكس فيبر ، الذى فسر تغير المجتمعات من نظام اقتصادى عاطفى الى نظام اقتصادى عقلانى . وجاء بعد ذلك روبرت ريدفيلد واستخدم نفس المفهوم للمقارنة بين المجتمعات الحضرية والمجتمعات الريفية .

ماكلينان : MCIENNAN

من النظريات التطورية الهامة التى تناولت موضوع نظام القرابة والزواج فى المجتمعات البدائية هى آراء ماكلينان التى ظهرت فى كتابه بعنوان الزواج البدائى عام ١٨٦٥ Primitice Marriage (١)

---

(١) المرجع السابق ص ١٩٣ .HARRIS, M

فهو يتفق مع باخوفن بأن النسق القرابى اعتمد فى البداية على النظام الامى ، ولكنه ركز اهتمامه على تطور قوانين الزواج فى المجتمع الانسانى ، والتى بدأت بالزواج الخارجى أو الاغترابى وهى مرحلة تميزت بتحريم الزواج داخل المجموعة أو العشيرة الواحدة ويعزى ذلك الى الظروف الطبيعية الصعبة التى كانت تواجه الانسان فى الحصول على الغذاء ، وتوفير الحماية نتيجة للصراع المستمر بين المجتمعات المختلفة الامر الذى أدى الى انتشار عادة وأد البنات فى المجتمعات القديمة نسبة لصعوبة توفير الغذاء لهن وخشية عليهن من الاسر أثناء الحروب المستمرة التى تقتضى الاهتمام والعناية بتنشئة الاطفال الذكور لما لهم من أهمية للمجموعة ، وأهمال الاناث لانهن عاجزات عن كسب عيشهن أو المساهمة فى الدفاع عن الجماعة أو حتى حماية أنفسهن ٠

ويرى ماكلينان أن عادة وأد الاناث أدت فى النهاية الى ندرة النساء داخل المجموعة وبمرور الوقت فرضت القيود التى تلزم الرجال بالبحث عن الزوجات من خارج المجموعة عن طريق الحرب والسبى ، وهكذا استمرت المنافسة بين المجموعات المختلفة لتعويض النقص فى النساء البالغات عن طريق الاغارة والخطف ٠ ومن خلال هذه الممارسة أصبح الزواج الخارجى قانونا اجتماعيا لايسمح للرجل أن يتزوج من داخل مجموعته وهذا هو أصل الزواج الخارجى فى المجتمعات الانسانية ، واستمر هذا النمط من الزواج بعد أن تخطى النظام الاجتماعى مرحلة الحرب ٠

وعندما تقدم نظام الزواج فى اتجاه تحديد العلاقات الجنسية بحصرها فى نطاق ضيق ، ظهرت مرحلة تعدد الازواج Polyandry حيث يسمح لعدد من الرجال بالاشتراك فى زوجة واحدة نتيجة لقلة النساء فى المجتمع ، ونظام تعدد الازواج هذا لايمكن معه تحديد علاقة الابوة ومن هنا اعتمد المجتمع على النظام الامى ٠ ولكن هنالك

نوع من عدم الوضوح فى آراء ماكلينان فيما يتعلق بالصلة بين تعـدد الازواج ، ونشأة النظام الامى فهو ايضا يرى ان النظام الامى ربمـا كان قد سبق عادة خطف الزوجات الذى اقترن بالنظـام التوتمى ، فكانت كل زوجة تحتفظ بالانتماء الى توتمها بالرغم من بعدهـا عنه ولذلك بدات تنشا جماعات مستقلة حول الام وتنتمى الى توتم واحـد ، ثم بعد ذلك ظهر الزواج عن طريق السبى ولابـد ان يكون من توتـم مختلف نتيجة لتحريم الزواج من امراة تنتمى الـى نفسـ التوتم . ويستمر ماكلينان فى نقاشه ذاكرا ان استمرار خطف الزوجات قاد الى تعدد الازواج وبدا هذا النظام بمجموعة مـن الاخوان يشتركـون فى زوجة واحدة ومن هنا ظهرت عادة زواج ارملة الاخ الموجودة فى كثير من المجتمعات ويرجع اصل هذه العادة الى تلك المرحلة بالاعتـراف بالابوة نتيجة لقيام الثروة الخاصة واقترن ذلك بالتحول الى الانحدار الابوى والذى جعل كل النساء والرجـال فى المجموعة ينتمون الـى نفس النسب حيث اصبح التزاوج بين الاحفاد ممكنا داخـل المجموعـة الواحدة ومن هنا تطور الزواج الداخلى ليحل محل الزواج الخارجى.

وايضا ، تناول ماكلينان نشاة وتطور نظام الدولة وقـرن ذلك باضمحلال العلاقات القرابية .

ولقد حاول المستشرق روبرتسون سميث ، تطبيق آراء ماكلينان فى دراسته عن القرابة والزواج عند العرب عام ١٨٨٥ **Kinship and Marriage in Early Arabice** الذين تميزوا فى الوقت الحاضر بقوة نسق القرابة الابوى وتعدد الزوجات محاولا ان يثبت ان الساميين قد عرفوا فى الماضى نسق القرابة الامى والتوتمية . ولقد اعتمد سميث على ماكلينان ليوضح هذا التحول من النظـام الامى الى النظام الابـوى والذى بدا بالحاق الابناء بالاخ الاكبر فى نظام تعدد الازواج الاخوى . حتى وصل المجتمع تدريجيا الى نظام النسب الذى يقوم على الانحدار الاحادى الابوى ، ويرى ماكلينان ايضا ان نجـاح خطف النساء عـن

طريق السبى ادى الى توفر عدد كبير من الزوجات وبالتالى ظهـرت مرحلة تعدد الزوجات اذ وجد كل رجل الفرصة ليختار اكثر من زوجة واحدة .

لويس مورجـــان : Lewis Morgan

يعتبر لويس مورجان من الرواد الاوائل بين علماء الانثروبولوجيا التطورية الذين اهتموا بدراسـة المجتمعـات البدائيـة خـارج أوربـا بطريقة جادة من أجل صياغة واختيار فروضه النظرية عن تطور النظم الاجتماعية .فلقد استفاد من وجوده فى امريكا وقام بتجميع معلومات كثيرة ومتباينة عن الهنود الحمر والمجتمعات الصغيرة الاخرى المنتشرة فى المنطقة ، الامر الذى ساعده ايضا على اتباع منهج المقارنة ليدعـم آراءه التطورية بامثلة واقعية من المجتمعات البدائية المعاصرة له . وبالتالى بدأت الانثروبولوجيـا بفضـل مورجان ، تخـرج مندائـرة التصورات النظرية الى مجال الدراسات التجريبية .

ولقد اهتم مورجان بدراسـة عدد كبير من النظـم الاجتماعيـة بطريقة متوسعة وشاملة فى اطار واحد لتطور التاريخ الانسانى خلال ثلاث مراحل تاريخية هى : الوحشية والبربرية والحضارة ، كما قسـم مورجان المرحلتين الاوليتين الى ثلاث مراحل فرعية على النحو التالى: الدنيا والوسطى والعليا . واعتمد هذا النسق التطورى على الاختراع التقنى الذى يميز كل مرحلة عن الاخرى كما يلى :

الوحشـــية :

افترض مورجان ان المجتمعات الانسانية بدأت بمرحلة الوحشية الدنيا عندما كان الانتاج يتميز بالاكتفاء الذاتى ويعتمد الانسـان فى غذائه على جمع والتقاط ثمار الاشجار البرية . ثم انتقل المجتمع بعد ذلك الى مرحلة الوحشية الوسطى باكتشاف النار ، وادى هذا الاختراع الى الاعتماد على الاسماك فى الغذاء . واخيرا وصلت تلك الفترة الـى

مرحلة الوحشية العليا باختراع القوس والسهم وبهذا تحول الانسان الى صيد الحيوانات الوحشية للحصول على الغذاء ٠

البربرية : يرى مورجان أن مرحلة البربرية الدنيا قد بدأت باكتشاف الاوانى الفخارية ، وتلى ذلك البربرية الوسطى وهى مرحلة استئناس الحيوانات فى العالم القديم ، كما شهدت تلك المرحلة احتراف الانسان للزراعة واختراع بعض اساليب الرى والمعمار الحجرى ومبانى الاجر فى فترة متأخرة من البربرية الوسطى ، وسماها مورجان بالعالم الحديث واخيرا وصل التطور التقنى الى مرحلة البربرية العليا باكتشاف الحديد وصهره وبدأ الانسان يستخدم الادوات الحديدية ٠

الحضارة : واستمر الانسان يتدرج على سلم التطور الى ان وصل مرحلة الحضارة ، وهى المرحلة الاخيرة ، وفقا لرأى مورجان ، والتى وصلها المجتمع عندما اكتشف الكتابة والحروب الهجائية ٠

وفى محيط العلاقات القرابية والزواج افترض مورجان أن هناك خمس مراحل متتالية تطور من خلالها المجتمع الانسانى ، ولقد وضح ذلك فى كتابه المشهور : أنساق روابط الدم والمصاهرة فى العائلية الانسانية والذى نشر عام ١٨٧١
Systems of Consanguinty an Ahinit of the Human Family)
ولقد تصور ان الحياة الانسانية قد تميزت بالبساطة ولم تكن هنالك قواعد وضوابط تنظيم العلاقات الجنسية بين الرجال والنساء ، ولذلك بدأت بالعلاقات الاباحية ثم اخذت تتطور بالتدرج نحو التعقيد عن طريق القيود التى تنظمها من خلال مراحل الزواج المختلفة ٠ وتصور مورجان هذه المراحل كما يلى :

١ ـ الزواج الدمـوى : Consanguine Marriage

وهو يمثل أولى الخطوات المبكرة التى اتخذتها المجتمعات لتنظيم العلاقات الجنسية ومن ثم وضع قوانين للزواج ، ويكون التزواج هنـا بين الاخوان والاخوات داخل العائلة الواحدة .

٢ ـ الزواج الجمـاعى : Group Marriage

ثم تطور بعد ذلك نظام الزواج الى شكل آخر من اشكال الزواج الجماعى يختلف عن المرحلة السابقة حيث بدأ المجتمع يحرم التزواج بين الاخوان والاخوات ، ولكن يفرض على مجموعة من الاخوان ان يشتركوا فى عدد من الزوجات ، ليس بالضرورة أن يكـون اخوات ، كما يتم زواج الاخوات بعدد من الرجال من غير أن يكونوا أخوة ، ولقد عرف هذا النمط بـزواج البونالوان ، نسبة الى احدى المجموعـات السكانية فى جزر هاواى .

٣ ـ الزواج السيندياسيمانى : SYNDYASMIAN

كما سماه ايضا مرحلة التزواج Paiving وهـى مرحـلة انتقالية بين الـزواج الجمـاعى والـزواج الاحـــادى Monogamy وهو زواج رجل واحد بامرآة واحدة ، ولكن لايتصف هذا النمط مـن الزواج بالاستمرارية والاستقرار حيث يستطيع الرجـل ، أو المرأة ، انهاء الزواج متى ما أراد ذلك ولعدة مرات ليدخـل فى عـلاقة زواج أخرى .

٤ ـ تعـــدد الزوجـــات : Polygyny

اكد مورجان على العلاقة بين تعـدد الزوجـات وقيـام الاسرة الابويـة Patriarchial Family التى كانـت السلطـة فيهـا عند الاب أو الذكر يكون زعيما ومسئولا عـن المجموعـة القرابيـة ، وهى مرحلة من مراحل تطور الاسرة استمرت لفترة قصيرة بين العبريـين

والرومانيين ، ولكنه يرى أن تعدد الزوجـــات من السمات الثانويـــة فى نمط الاسرة الابوية لانه ظاهرة لم تكــن معروفـــة لدى الرومانيين بالرغم من وجودها عند العبريين .

٥ ـ الزواج الأحـــــادى : Monogamy

يعتقد مورجان أن هذه آخر مرحلة فى مراحل تطور نظام الزواج وهى مرحلة اقتصرت فيها العلاقة الزواجية على رجل واحـد وامرأة واحدة ولاتتعداهما لشخص آخـر . وهـو نمط الزواج الذى يعتمـد على المساواة بين الرجل والمرأة ، ويتطابق مع المرحلة الحديثة ونظام الاسرة النووية المعاصرة . Nuclear Family فى المجتمعات الغربية .

ولقد حاول مورجان أن يدعم آراءة عن هذه المراحل التطوريـــة معتمدا على مصطلحات القرابة الانسانية وقسمها الى قسمين :

١ ـ النسـق التصنيفـى Classifactory System

٢ ـ النسق الوصفى De criptive System

فالنسق الاول يتميز بأن المصطلح القرابى الواحد يطلق على عدد من الاشخاص يصنفون فى علاقة قرابية واحـدة وان اختلفت العلاقـة الفعلية كما هو الحال فى المجتمعات العربية عندما تطلق كلمـة (عم) على اخوان الاب الفعليين وعلى من هم فى منزلتهم داخل العشيرة أو القبيلة أو أحيانا تطلق الكلمة على كل من هم من جيل الاب وهكذا . أما فى النسق الوصفى فيشـير المصطلـح القرابى الواحد الى عـلاقـة قرابية محددة لايتعداها الى سواها .

ودرس مورجـان المصطلحات القرابية بين بعضـ مجموعـــات الاسكيمو وسكان جزر هاواى ، واستنتج أن وجود نسـق مصطلحـات القرابة التصنيفى فى المجتمعات المعـاصرة يمثل رواسـيـا أو رموـزا

لمراحل سابقة تميزت بالاباحية الجنسية والزواج الجماعى ، فهو يرى أن اطلاق كلمة «اب» على مجموعة من الاقارب دليل على عدم تحديد «الابوة» فى المراحل الاولى لتطور المجتمعات الانسانية نسبة لتعدد الازواج والذى يمكن ان يكونوا كلهم آباء ولذلك يشار اليهم بمصطلح قرابى واحد ، وكذلك كل النساء اللائى فى منزلة الام يطلق عليهن مصطلح قرابى واحد مما يدل على ان نظام الزواج الجماعى لعدد من الاخوات بعدد من الرجال قد كان سائدا فى الماضى ولهذا أيضا ، يفترض بأن المجتمعات الانسانية قد بدات بنظام القرابة الامى .

ويستمر مورجان فى تصوراته التطورية ويفترض أن التنظيم السياسى قد بدات تتضح معالمه بعد أن تخطى المجتمع الانسانى العشيرة الامية MATRISIB وكان الانتساب الى الام هو المحور الاساسى الذى تقوم عليه علاقات الافراد مع بعضهم البعض ، ثم بعد ذلك التقت مجموعة من العشائر لتكون قبيلة ، ثم بدأ عدد من القبائل المتجاورة تكون مجموعة سكانية واحدة .

ولقد اعتمد التنظيم السياسى فى مراحلة الاولى على العلاقات الشخصية القائمة على الزواج والقرابة ، وهنا يعتقد مورجان أن اتساع نطاق العلاقات الجنسية للشخص دليل على تأخر المجتمع فى مراحل التطور فهو يؤكد على الصلة بين تطور الاسرة والقرابة والزواج من جهة والتنظيم السياسى من جهة أخرى ولذلك لم تظهر النظم السياسية الحقه الا فى المراحل المتأخرة من تطور الاسرة والزواج ، والتى جاءت نتيجة للاعتراف بالحقوق والواجبات وتحديد الثروة والملكية الفردية الخاصة اعتمادا على الاطار الجغرافى حيث أصبحت المدن والمقاطعات ثم الدولة هى التى تمثل الوحدات السياسية بدلا عن المجموعات القرابية .

كما يرى أن التقدم العقلى للانسان قاده الى تحريم التزواج بين

الاخوان والاخوات ، وفى نفس الوقت أدى الى نوع من التطور التقنى ويعتبر ذلك أول تحول رئيسى فى التاريخ البشرى ، وتحريم الزواج الدموى قد امتد ليشمل كل الافراد الذين ينتمون الى بعضهم عن طريق الانحدار الامى ، أى الذين تربط بينهم علاقة من ناحية الام ، وبهذا اصبحت العشيرة الامية هى العمود الفقرى للتنظيم الاجتماعى فى مرحلة الوحشية الدنيا واستمرت كذلك فى مرحلة البربرية الى ظهور التنظيم السياسى الحديث خلال المراحل الاولى للحضارة ، لان التقدم التقنى فى مجال الغذاء ادى الى ظهور الزواج الآحادى والنظام القرابى الابوى ، فميراث الثروة قد دعم من سلطة ومركز الذكور فى المجتمع ، ولذلك تم التحول من النظام الامى الى النظام الابوى ، وظهرت الاسرة النووية ، ومن هنا تطور المجتمع من نظام عشائرى الى نظام سياسى يعتمد على الاطار الجغرافى ، لان التجمعات السكانية الموجودة فى منطقة واحدة لايمكن تنظيمها على اساس قرابى ، ومن اجل هذا يرى مورجان أن نظام العشيرة يتعارض مع الاسرة الزواجية الحديثة والتنظيم الاجتماعى الذى يقوم على أسس جغرافية .

والآن نناقش آراء مورجان متعرضين لبعض الجوانب السلبية فيها وقد تحتوى هذه الاراء على كثير من الاخطاء التى يمكن تصويبها فى ضوء المعلومات الجديدة المكتسبة فى العصر الحالى والتى يمكن أن توجه البحث الانثروبولوجى الوجهة الصحيحة .

ففى البداية نلاحظ أن مورجان لم ينجح فى وضع نظرية متكاملة يوضح من خلالها الترابط بين كل النظم الاجتماعية والمتغيرات التى إعتمد عليها فى تبرير فروضة التطورية ، فهو مثلا لم يوضح لنا أثر مرحلة الزواج السينديا سمى أو الاسرة الابوية على تغير المصطلحات القرابية ، بل حصر كل اهتمامه فى العلاقة بين المصطلحات القرابية من جهة ، والاباحية الجنسية والزواج الجماعى والنظام الامى من

جهة أرخى . بالاضافة الى ذلك لانجد فى دراسته تفسيرا كافيا ومقنعا نتبين من خلاله العلاقة بين تطور النظـــام التقنى فى مجال الانتـاج الاقتصادى وتطور النظام السياسى وفى الواقع لاتتضح لنا هذه العلاقـة الا بعد ظهور الدولة ، أما تحليل التحول من النظـام القرابى الـى النظام السياسى فى مراحله الاولى ليس واضحا .

وفى ضوء المعلومات الجديدة ، نلاحظ بعض الاخطاء فى المسلمات التى اعتمد عليها مورجان ، فمثلا من الحقائق المؤكدة أن الانسان قد عرف الصيد منذ ملايين السنين ، ولكن بالرغم من ذلك وضعه مورجان فى مرحلة لاحقة لمرحلة صيد الاسماك ، وهذا راى يصعـب قبوله لان الاعتماد على الاسماك فى الغذاء ربما يكون مرتبطا بالبيئة الجغرافية التى يعيش فيها المجتمع ، وكما هو معروف فأن البيئات التى عاشـت فيها المجتمعات الاولى لم تكن كلها ملائمة لممارسة هذا النشاط ولذلك يمكن ان نعتبر صيد الاسماك ماهو الا مجرد تكيف مع البيئة وليـس مرحلة تطورية كما يدعى مورجان . اضافة الى ذلك ليس بالضرورة ان يكون اختراع القوس والسهم تحولا جذريا وهاما فى المجـال التقنى والزراعة يتناقض مع المعلومات التى تدل على أن هنالك فترة زمنية بين الرعى والزراعة . ونلاحظ ايضا انه قرن مرحلة الحضارة بالحروف الهجائية والكتابة بينما هنـالك أمثلـة لامبراطوريـات وممالك ذات حضارات من غير ان يكون لها حروف هجائية ، ولقد ظهرت الحضارة فى العالم مع بداية الزراعة والاستقرار وقبـل اكتشاف الكتابة بفتـرة طويلة .

كما اتسمت آراء مورجان بالتعصـب العنصرى والتحيز العرقى للمجتمعات الاوروبية ، فهو يؤمن باتساق التجربة الانسانية فى التطور التقنى ويفسر التفاوت فى هـذا المجـال نتيجـة للتفاوت فى القـدرات العقلية والتى تختلف من مجتمع لاخـر لاسباب عنصرية ولذلك فهـو

يرجع التقدم التقنى للعنصر الاوروبى ، مقارنة مـع الهنود الحمر ، لعوامل وراثية ٠

اما آراء مورجان عن تطور القرابة والزواج فقـد اعتمـدت فى المقام الاول على التاريخ التخمينى ولذلك جاءت غير مقنعة ، خاصـة بعد توفر المعلومات الميدانية فى الدراسات الانثروبولوجيـة المعـاصرة التى تنقض افتراضاته عن الاباحية الجنسية والزواج الجماعى والنظام الامى ، فكل الادلة تشير الى عمومية تحريم الزنا بالمحارم ، كمـا ان هنالك خلط فى آراء مورجان بين اباحة الجنس ومفهوم الزواج فمعظم المجتمعات الانسانية تبيح المعاشرة للرجل والمراة قبل الزواج وتحرم ذلك بعده ، ولذلك يتضح عدم ادراك مورجـان للفرق بين المعـاشرة الجنسية ونظم الزواج ، فوجود مثل هذه المعاشرة لايعنـى ان ليس للمجتمع قوانين وقيود تنظم الزواج والعلاقات القرابية ٠ بالاضافـة الى هذا ، فان الدراسات الانثروبولوجية الحديثة توضح وجود الزواج الآحادى بين كثير من المجتمعات البسيطة المعاصرة كما هـو الحال بين سكان جزر اندامان Andaman فى استراليا والفيدا Veddas والناجا Nagas فى اسام والكـارين Karens فى بورمـا ، ممـا يـدحض الافتراض الذى يقرن بين اتساع العلاقات الجنسية والتخلف الحضارى، وفى الواقع لايمكننا ان نستوعب انماط الزواج بمعزل عن العـلاقات الوظيفية التى تربطها مع النظم الاجتماعية الاخرى وقد تختلف هـذه العلاقات الوظيفية من مجتمع لاخر لاختـلاف العـوامل الاقتصاديـة والثقافية والبيئية والدينية بين المجتمعـات ، وليس من المقبـول ان نرجع ، مثلا تعدد الزوجات فى كل المجتمعات الى التشابه فى مراحل التطور الانسانى المنسق ، بل لابد ان نبحث عن الوظائف الاجتماعية لهذا النمط فى كل مجتمع على حدة ٠

اما افتراضه الذى يعتمد على ان الانحدار الامى قد سبق الانحدار الابوى ، اصبح جدلا لاطائل منه ولايستطيع احد تقديم احد النظامين

على الاخر ، لان قوانـين الانحـدار مرتبطة بالعوامـل الثقافيـة والاقتصادية والمناخية فى المجتمع . والانحدار الامى ليس له اثر على مكانة المراة ومركزها ، لان المعلومات التى لدينا تدل على ان الحقوق الاقتصادية والسياسية فى المجتمعات الامية تنتقل عـن طريق الذكـور وليس الاناث ، حيث يكون اخا الام هو رب العائلة الامية ، والفـرد يرث مكانته الاجتماعية والسياسية وحقوقه الاقتصادية عن اخ الام .

واعتقد مورجان ان الانحـدار الامى مرتبطا بمرحلة الاباحيـة والزواج الجمعى وقد نتج عن صعوبة تحديد الابوة ، ولكن من المثبت ان كل نظم القرابة تعتمد على نوعين من الروابط همـا رابطـة الدم والرابطة الاجتماعية ، وقـد تتطابـق هاتـان العلاقتـان فى بعض المجتمعات وقد تختلفان فى البعض الاخر وفقـا للقوانين والاعـراف السائدة فى كل مجتمع وفى النهايـة تكون العلاقـة القرابيـة مفهومـا ثقافيا اكثر من كونها مفهوما طبيعيـا ، وعلى هـذا الاساس يحـدد المجتمع الابوة ، اى يمكن ان يكون هنالك فرق بين الاب الاجتـماعى والاب الطبيعى ، والمهم هنا هو الاول ، كما فى حالة التبنى ، اذ يكون الاعتماد على الرابطة الاجتماعية وليس على رابطة الدم ([1]) ولذلك لايمكننا قبول راى مورجان الذى يجعـل النظـام الامى هو الاصـل نسبة لعدم معرفة الاب الحقيقى .

ادوارد تايـلور : E. TYLOR

يعتبر ادوارد تايلور مـن جيـل الرواد البارزيـن فى تاريـخ الانثروبولوجيا ، ومن اعماله : ابحاث فى التاريـخ القديـم للجنـس البشـرى ١٨٦٥ Researches into the Early History of Mankind وكتابه «الثقافة البدائية Primitive Culture الذى نشر عـام ١٨٧١م .

---

1) HARRIS, C.C. The Family : George Allen and Unwin, London, 1970. ص ٢١

ثم «الانثروبولوجيا : مقدمة فى دراسة الانسان والحضارة» عام ١٨٨١م
«Anthropology :An Introduction to the Study of Man and civilization»
ولقد استخدم المعلومات الاثرية بالاضافة الى النظم الثقافية البدائية المعاصرة له لدراسة اتساق التطور العالمى للثقافة الانسانية ولقد حاول ان يبحث فى العلاقة بين تطور الثقافة المادية والنظم الاجتماعية الاخرى مثل القرابة والزواج والسياسة والدين ([1]) . واعتقد تايلور أن النظم الثقافية البدائية المعاصرة هى بمثابة رواسب لمراحل ثقافية قديمة فى تاريخ المجتمعات الانسانية ، وهنا ظهر القصور الواضح فى المعلومات التى اعتمد عليها سواء كانت معلومات اثرية أو اثنوغرافية عن المجتمعات البدائية اذ لايمكن مقارنة مراحل تاريخية مختلفة تفصل بينها فترات زمنية طويلة ، وتصنيفها فى مستوى واحد على سلم التطور ولايمكن أن نحدد شكل النظام الاجتماعى الذى كان سائدا فى الماضى استنادا على معلومات الاثار .

كما حاول أن يبحث فى تطور الدين وعلاقته بالزواج والنظام الاقتصادى والسياسى ولقد كان هذا هو الموضوع الاساسى فى كتابه الثقافية البدائية Primitive Culture ويعتقد أن التفكير الدينى قد بدأ فى المجتمعات الانسانية بعبادة الارواح ، وهذا ما يعرف بالمذهب الحيوى Animism فى دراسة الدين وهى مرحلة بدات عندما اكتشف الانسان الروح عن طريق الاحلام ، ويفترض أن هذه ظاهرة مشتركة بين كل الثقافات . ثم تم بعد ذلك تحول تدريجى الى مرحلة تعدد الالهة Polytheism واخيرا وصل الانسان بعد فترة طويلة الى عقيدة التوحيد Monotheism

---

1) SAHLINS, MARSHALL, D., «Evolution : Specitic and General» in : MANNERS, R.A. and KAPLAN, D. (eds) Theory in Anthropology, Routledge and Kegan Panl, London, 1968
ص ٢٤١ - ٢٢٩

ومن الملاحظ ان تايلور قد اعتمد علـى مفهـوم الرواسـب فى دراسة الدين واهمل الحقائق التاريخية الثابتة فى هذا المجال .

ولكن بالرغم من اوجه القصور الواضحة فى منهج تايلـور الا ان له بعض الاثار الايجابية على تقديم الدراسات الانثروبولوجية خاصـة فيما يتعلق بمفهوم «الثقافة» وتعريفه «الثقافة هى الشكل المركب الذى ينطوى على الجوانب المادية واللامادية فى المجتمع من معرفة ، ولغة ومعتقدات ، وعرف ، وعادات وتقاليـد ، وفنون وآداب ومهـارات يدوية يكتسبها الفرد بحكم انتمائه للمجتمع ويتناقلها من جيل الـى جيل » وقد اسهم هذا المفهوم فى تعميق فكرة تكامل الثقافة ، بمعنى انها تتكون من أجزاء مترابطة ترابطا وظيفيا ولايمكن تجزئتها ، مما ساعد على قيام الدراسات الوظيفية للثقافة فيما بعد وحاول تايلـور ان يخلص مفهوم «الثقافة» ، من فكرة الحتمية العنصرية ، ويدعـو للرأى الذى يقول بأن الثقافة مكتسبة وليست موروثة .

كما كان لتايلور اسهاما واضحا فى تقدم المنهج المقارن معتمـدا على معلومات احصائية جمعها من ٣٠٠ الى ٤٠٠ مجتمعا ، كما يتضح ذلك فى مقاله الذى نشره فى عام ١٨٨٩ بعنوان :

on a methed investigating the Developnent of institution : Applied to Iaws of Marriage and Descent.

ولقد حاول فى تلك الدراسة ان يحـدد الارتباط بين قوانين سـكن الزوجين ، ونمط الانحدار والنسق القرابى لكى يستطيع أن يكتشف العوامل التى تحدد الزواج الداخلى **Endogamy** ، والزواج الخارجى **Enogamy** ، والزواج المفضل ، والعلاقات الجنسية المحرمة فى كل مجتمع من المجتمعات التى يدرسها .

خاتـــمة :

فى النهاية اود ان اوضح بأن الهدف من سردنا لهذه الاعمال المبكرة فى تاريخ الانثروبولوجيا هو توضيح حقيقة للقارىء ، وهى ان فكرة تطور النظم الاجتماعية البدائية كانت جزءا لايتجزأ من الفكر الانثروبولوجى منذ نشأته ، وظلت هذه الفكرة تمثل العمود الفقرى للدراسات الانثروبولوجية ، وان اختلف الانثروبولوجيون كثيرا حول رؤيتهم وتحليلهم لمفهوم التطور .

واود ان أؤكد مرة اخرى ان الاختلاف بينهم ليس جوهريا وهذا لايعنى قبول مفهوم التطور بجزئياته ، فهنالك الكثير من التفاصيل الخاطئة فى الافتراضات التطورية ، ولكن بالرغم من ذلك فقد اسهمت المدرسة التطورية اسهاما كبيرا فى بلورة النظريات الانثروبولوجية اللاحقة مثل التاريخية ، والانتشارية ، والوظيفية ـ والبنائية .

ولقد ذكرنا سابقا أن النظرية التطورية تعتمد على فكرة التقدم الانسانى وتطور النظم الثقافية وفقا لمراحل محددة ، ويمكن ان تفسر هذه النظم بالرجوع الى اصلها البسيط قبل ان تتطور تدريجيا وتصل مرحلة التعقيد ووفقا لهذا المفهوم يمكن توضيح التباين الموجود بين الثقافات الانسانية على انه مجرد تفاوت فى مراحل التقدم وليس اختلافا فى الاصل وبالمثل يفهم التشابه فى النظم الثقافية المعزولة عن بعضها البعض على انه تشابه فى مراحل التقدم وليس ناتجا عن الاحتكاك الثقافى او التاثير المتبادل بينها .

ولكن هنالك الكثير من الاعتراضات التى توجه الى هذه النظرية على أساس انها قامت على التخمين واعادة بناء التاريخ القديم كما اعتمدت آراء التطوريين عن المجتمعات البسيطة على المعلومات الثانوية التى استقوها من الرحالة والمكتشفين والهواة والاداريين والمبشرين وهذه فئات غير مدربة على أساليب البحث الحقلى العلمى ،

ولم تكن لهم تجربة فيه . فاتسمت نظرتهم للمجتمعات البسيطة بالتحيز العنصرى والسياسى والدينى والفكرى فى اطار السيطرة الاستعمارية على الشعوب المتخلفة ، وتعصب الاوروبيين لحضارتهم وثقافتهم على انها ارقى ثقافة فى العالم وهى النموذج المثالى الذى يجب أن يسود ويحتذى به . كما نلاحظ القصور الواضح فى آرائهم عن المجتمعات البدائية اذ كان الهدف الاساسى هو التركيز على السمات الثقافية الشاذة وعلى ماهو غريب ومختلف عن الثقافة الاوروبية مما أثر على نظرتهم الموضوعية لثقافات تلك المجتمعات . وكان التطوريون يفكرون وفقا لتصنيفات محددة وأحكام مسبقة انطبعت فى اذهانهم عن هذه المجتمعات .

كما كان تفكير علماء الانثروبولوجيا التطورية مقيدا بمفهوم القانون الطبيعى للتطور البشرى استنادا على فكرة التطور البيولوجى وبالطبع لايمكن قبول مثل هذا التعميم المطلق على جميع الثقافات لان كل ثقافة تتأثر بعوامل متنوعة ومتداخلة توجه تغيرها من نمط لاخر وهنالك متغيرات ثقافية لايمكن التحكم فيها وبالتالى لايمكن التنبوء بالاشكال التى ستكون عليها فى المستقبل . ولكل هذا ، لم ينجح التطوريون فى وضع نظرية متكاملة ، وفى الواقع اعتمدت دراساتهم على بعض «المفهومات» أو النماذج Models التى لاترقى الى مستوى النظرية .

وايضا نلاحظ أن الاعمال التطورية قد اعتمدت على انتقاء بعض العادات والسمات الثقافية التى تتفق مع ما يتصورونه من مراحل تطورية ، ويهملون الجوانب الثقافية التى تتعارض مع تلك التصورات .. ولذلك جاءت كتاباتهم عن المجتمعات البدائية مبتورة ومشوهة وفى معزل عن الاطار العام لكل ثقافة ، بمعنى آخر انهم اهتموا بالشكل الخارجى واغفلوا المضمون الاجتماعى لتلك العادات والتقاليد والسمات الثقافية وهذا ادى الى عدم التكافؤ فى المقارنة بين الثقافات المختلفة

لان التشابه فى الشكل ليس دليلا على التشابه فى المضمون فمثلا نظام تعدد الزوجات قد يكون موجودا فى أكثر من مجتمع ولكن مع الاختلاف الجذرى فى مضمونه الاجتماعى .

ومع تقدم البحث الحقلى والاتساع فى حجم المعلومات عن المجتمعات البسيطة ، قامت اتجاهات جديدة تدحض الاراء التطورية، ومن هذه الاتجاهات المدرسة الانتشارية التى كان منطلقها الاساسى هو ان التقدم الانسانى يتم عن طريق انتشار السمات الثقافية من مجتمع لاخر ، ولايمكن ان يكون هنالك نمو حضارى مستقل ، ولذلك اعتمدت هذه النظرية على الانتشار الثقافى الافقى فى تفسير التشابه بين المجتمعات المختلفة .

ولقد اختلف الانتشاريون فيما بينهم حول مفهوم الانتشار ، ففريق منهم يرى أن هناك تأثيرا متبادلا بين جميع المجتمعات الانسانية بينما يرى فريق آخر ان التاريخ الانسانى قد عرف مراكز ثقافية نشأت فيها الثقافة وبعد ذلك انتشرت منها الى المجتمعات الاخرى ويعتقد فريق ثالث من العلماء فى ان الحضارة الانسانية قد بدأت فى مركز واحد من العالم ثم انتشرت منه لبقية المجتمعات ويمثل هذا الاتجاه اليوت سميث **E. Smith** الذى يفترض ان مصر تمثل المركز الاساسى الذى انتشرت منه الحضارة الانسانية لبقية أجزاء العالم عن طريق الاتصالات بين الشعوب (١) .

ولكن من الملاحظ ان الاتجاه الانتشارى لم يبتعد كثيرا عن النظرة التاريخية فى دراسة الثقافة بل اتخذ موقفا وسطا بين التطور المستقل والتطور عن طريق الاحتكاك الثقافى وهذه الرؤية لم ترفض

---

(١) عباس احمد ، الانثروبولوجيا الاجتماعية : مقدمة عامة مكتبة المكتبة ، العين ١٩٨١ ، ص ٣٠ .

فكرة التطور فى عمومياتها حيث افترضت انه يمكن ان يكون هناك تطور جزئى لبعض العناصر الثقافية فى اماكن جغرافية معينة من العالم وخلال مراحل تاريخية محددة • ومن هنا بدأ علماء هذا الاتجاه يركزون على دراسة تطور اجزاء كل ثقافة على حدة بدلا من وضع عموميات عن التطور الثقافى المتسق •

ويعتبر (فرانز بواس FRANS BOAS رائدا لهذا الاتجاه فى امريكا ، وكان هدفه تنقية الانثروبولوجيا من النقاش النظرى الذى لايستند على حقائق تاريخية او معلومات مؤكدة عن المجتمعات البسيطة ، الامر الذى جعل الانثروبولوجيا التطورية تقوم على كتابات الهواة والمنظرين الذين سماهم (بواس) بأنثروبولوجى المقاعد الوثيرة Arm - chair Anthropologists ، ولذلك نجده يؤكد على اهمية البحث الحقلى ويقدمه على الجانب النظرى ، ويرى ان الالتزام الجامد بالنظريات والتقيد بفكر مدرسة معينة دليل على عدم نضوج العلوم الاجتماعية ويستدل على هذا الرأى بالاتجاهات البحثية السائدة فى العلوم الطبيعية والتى لانجد فيها المدارس النظرية المقيدة للباحثين •

ولقد اعتمد (بواس) على مقدرته الفائقة فى المنطق الاستقرائى الذى اكتسبه من خلفيته العلمية فى دراسة الفيزياء والرياضات والجغرافية ليطور مناهج البحث فى الانثروبولوجيا ، حيث ادخل عليها الاهتمام بالقواعد العلمية للبحث الميدانى مثل تحديد المشكلة وتوضيحها واتباع الموضوعية والوصول الى العموميات عن طريق دراسة الجزئيات ([1]) •

وبعد ان رسخ (بواس) فكرة تقديم البحث الحقلى على الاطار النظرى اتجه لنقد ودحض مفاهيم المدرسة التطورية ، وكان الموضوع

---

(١) المرجع السابق ص ٣١٠ HARRIS, M.

الاساسى الذى بنى عليه كل نقاشه هو رفضه لمبدأ اتساق التغير التطورى فى كل المجتمعات Uniformity of Evolutionary Change ووضح مواطن الضعف والقصور فى المنهج المقارن الذى اتبعه علماء المدرسة التطورية لتبرير نظريتهم وعمومياتها ، وهنا يعتقد (بواس) أن المشكلة الرئيسية فى اراء المدرسة التطورية هى الفصل بين فكرة التطور المتوازى ونقطة الالتقاء عند نشأة كل نظام اجتماعى أو عنصر ثقافى. فالنظرية التطورية ظلت تهمل باستمرار توضيح بداية النظم الثقافية المتشابهة ، بل اهتمت بتفسير التشابه بين هذه النظم أثناء مراحل تطورها .

كما يؤمن (بواس) بأن هنالك عناصر ثقافية كثيرة متشابهة ولكنها توجد فى مجتمعات مختلفة ، ولايمكن تبرير هذا التشابه بينها عن طريق مفهوم الانتشار الثقافى . ولذلك ينتقد ، أيضا ، المدرسة الانتشارية ويصفها بالخيال لافتقارها للحقائق التاريخية الثابتة عن انتشار العنصر الثقافية من مجتمع لاخر .

ولقد حاول (بواس) ان يؤكد بأنه ليس هنالك أدلة كافية لتثبت او تنفى لنا اذا ماكان هنالك تشابها فى بعض المراحل التطورية ، وفى رأيه لابد أن يستند الحكم النهائى على جمع معلومات دقيقة ومفصلة عن تلك المراحل كما يجب أن تجمع تلك المعلومات من مناطق جغرافية محددة حيث حدثت تلك المراحل بالفعل ، ومن هنا عرف منهجه بالخاصية التاريخية (1) Historical Particdarism

ويلاحظ (بواس) أن كثيرا من السمات الثقافية يمكن أن تتصف بالعالمية بالرغم من وجودها فى أماكن معزولة عن بعضها البعض ،

(١) حسين فهيم : قصة الانثروبولوجيا : فصول فى تاريخ علم الانسان : سلسلة عالم المعرفة ، الكويت : فبراير ١٩٨٦ : ص ١٥٨
اطلق على هذا المنهج : «الاتجاه التاريخى التجزئى»

ويجب الا نفسر هذه العالمية وهذا التشابه عن طريق افتراض التطوريين الذى يدعى ان السمات الثقافية المتشابهة تكون قد نشات من اسباب متشابهة • ويقرر بطلان هذا الافتراض مستدلا بالحقائق الواقعيــة من المجمتعات المعاصرة ويوضح ان هنــاك الكثير مــن السمات الثقافيــة المتشابهة قد نشات من أسباب مختلفة فمثلا تعدد الزوجات يمارس فى كثير من المجتمعات ولكن قد تعود هذه الممارسة لاسباب متباينة ، ففــى بعض المجمتعات يقوم تعدد الزوجات على أسباب سياسية وفى بعضها على عوامل دينية وفى أخرى على عوامل اقتصادية ولذلك يرفض راى التطورية القائم على المنهج المقارن ، والراى الارجح عنده هو تنوع التطور فى المجتمعات الانسانية •

ومن هنا حاول (بواس) ان يتوسل الى نوع من الموازنة بــــين مفهوم التطور العام ومفهوم التطور الجزئى •

لكن التركيز الشديد على البحث الحقلى والاهتمام به قــد عــاق تقدم الجانب النظرى فى الانثروبولوجيا فمع مرور الزمن سار البحث الحقلى هو حجر الزاوية فى الدراسات الانثروبولوجية ، واستحوذ على تفكير الانثروبولوجيين • ونحن هنا لاندعو الى الاستغناء عن البحــث النظرى أو التقليل من أهميته بل نرى ضرورة التركيز على الافتراضات النظرية أيضا واعتبار البحث الحقلى أداة مساعدة أو وسيلة لتقـــدم النظرية الانثروبولوجية بدلا من أخذه كغاية فى حد ذاته ، مما أفقــد المعلومات الاثنوجرافية الاطار النظرى الذى يربط بينها وبالتالى لــم تتقدم النظريات الانثروبولوجية كثيرا بعد مضى أكثر من مائة وخمسين عاما على نشأة الانثروبولوجيا كتخصص أكاديمى •

بالرغم من كل جوانب النقد التى اثيرت هنا حــول الاتجاهــات التطورية والتاريخية والانتشارية فى دراسة الثقافة ، الا ان كل هــذه الاتجاهات قد لعبت دورا هاما فى ارساء القواعد الاساسية للانثروبولوجيا

الثقافية فى أمريكا والانثروبولوجيا الاجتماعية فى بريطانيا فلقد ترك علماء القرن التاسع عشر تراثا ضخما من المعلومات المدونة والموثقة عن المجتمعات الصغيرة المنتشرة فى أماكن مختلفة من العالم . وكونوا بذلك أول مصدر للمعلومات اعتمد عليه الباحثون المعاصرون فى اجراء المزيد من البحوث واعادة صياغة الفروض النظرية واختبارها بصورة مستمرة . كما ان الانثروبولوجيا مازالت تعتمد على المفهومات الاساسية التى وضعها كتاب تلك الفترة ومثال ذلك المصطلحات القرابية، ومفهوم الثقافة والبناء الاجتماعى والبناء الانقسامى فى المجتمعات القبلية ، ونظم الزواج وتصنيفاته ، بالاضافة الى المفهومات السائدة فى دراسة الدين والنظم السياسية والاقتصادية .

الفصــــل الرابـــع

البحث الانثروبولوجــى ـ تطوره ـ ووسائله ـ وصعوباته

كتب هذا الفصل د٠ عبد الله عبد الغنى غانـم

الفصل الرابع

البحث الانثروبولوجى ـ تطوره ـ ووسائله ـ وصعوباته

تطور البحث الانثروبولوجى :

يقوم البحث الانثروبولوجى اساسا على « الدراسة الحقلية» وتعنى الدراسة الحقلية تواجد الباحث فى ميدان بحثه اى فى المجتمع الذى يقوم بدراسة حيث يقوم الباحث بدراسة الناس فى مجتمعهم ومكان اقامتهم الطبيعى ، سواء كان مجتمع البحث مجتمعا محليا ، او مؤسسة او مصنعا او احدى القبائل او حتى جماعة اجرامية او غير ذلك . وتقتضى الدراسة الحقلية ان يقيم الباحث فى الميدان مدة قد تصل الى عام وقد تصل الى ثلاث سنوات على ما فعل مالينوسكى فى دراسة على قبائل التروبرياند ، ويقوم الباحث خلال اقامته فى مجتمع البحث بملاحظة سلوك اعضاء المجتمع والاندماج فيه اندماجا يمكن من ان يعرف بقدر الامكان كيف يتحدث ويفكر ويشعر ويعمل كأحد اعضاء ثقافة ذلك المجتمع فى الوقت الذى يتصرف فيه كانثروبولوجى ينتمى الى ثقافة اخرى (١) .

وتعتبر الدراسة الحقلية بهذا المعنى أهم ما يميز البحث الانثروبولوجى . ويوضح كلووليفى ستروس أهمية الدراسة الحلقية بالنسبة للانثروبولوجى بقوله « أن علماء الانثروبولوجيا راغبون جميعا فى الاعتراف بالاهمية للعمل الميدانى كضرورة أولى للباحثين الانثروبولوجيين جميعا » « الاثنوجرافى الذى يتقصى اطوار الحياه ، والاثنولوجى « عالم الاعراق» الذى ينصب اهتمامه على الدراسات المقارنة ، وكذلك لعالم الانثروبولوجيا النظرى الذى اختط لنفسه اسلوبا

---

(١) هـ. باودر ماكر . الدراسة الحقلية . مجالات الانثروبولوجيا ترجمة علية حسنين والسيد حامد . دار العلم ـ الكويت ١٩٨٥ ص ١٤٤

خاصا فى ابحاثه (١) ، وقد ظلت الدراسة الحقلية هى الطريقة الاساسية فى البحث الانثروبولوجى دائما ، ولا يعنى ذلك ان البحث الانثروبولوجى قد تمسك بأساليب وأدوات جامدة ، ذلك انه على الرغم من ان الدراسة الحقلية قد ظلت هى دعامة البحث الانثروبولوجى وطريقته الوحيدة الا ان الانثروبولوجيين قد طوروا بين وسائلهم ومناهجهم وادوات الدراسة التى يجرون بها بحوثهم الحقلية ٠ وقد تضافرت مجموعة من العوامل والظروف فى دفع التطور المنهجى فى الانثروبولوجيا وتحديد مساره ٠

وهنا يمكن القول ان البحث الانثروبولوجى قد تاثر بعدد من العوامل المختلفة منذ قيام هذا العلم وحتى الان ٠ وسنحاول فيما يلى متابعة منهج البحث الانثروبولوجى ووسائله من خلال التركيز على على هذه العوامل واثرها ٠ وبذلك نجمع بين عرض ملامح المنهج ٠٠ من ناحية والعوامل التى اثرت فى تطوره واثر كل عامل منها من ناحية اخرى ٠ ويمكن حصر العوامل التى اثرت فىمسيرة البحث الانثروبولوجى وتطوره فيما يلى ٠

اولا : التطور فى مجال البحث الانثروبولوجى واهدافه

ثانيا : شخصية الباحث ونوعه

ثالثا : تطور الموضوعات فى البحث الانثروبولوجى

وتتناول هذه العوامل بايجاز فيما يلى :

اولا : تطور مجال البحث الانثروبولوجى واهدافه :

يمكن القول بصفة عامة ان مجال البحث فى الانثروبولوجيا قد طرا

---

(١) كلود ليفى ستروس : الانثروبولوجيا ٠ ٠مجلة ديوجين ٠٠ العدد الثانى والاربعون ٠٠ اغسطس ١٩٧٨ ص ٥٨ ٠

عليه عبر الوقت تغيرات كبيرة كان لها اثرها الكبير على اسلوب البحث الانثروبولوجى ووسائله .

فبعد أن كان قاصرا على المجتمعات والثقافات البدائية ، فان المحدثين من الانثروبولوجيين قد ركزوا كل اهتمامهم على المجتمعات المعاصرة على اعتبار أن الجانب الاكبر من الثقافات البدائية قد اختفى أو ابيد تقريبا او لان الثقافات البدائية قد تغيرت تغيرا جذريا بسبب المد الحضارى الحديث . واصبح الباحث الانثروبولوجى يهتم بدراسة أساليب الحياة المختلفة فى المجتمعات الحديثة . كما اتجهت نحو دراسة المجتمعات المعقدة غير المتجانسه بعد ان كانت تركز فى بادىء الامر على المجتمعات البسيطة وقد ارتبط هذا التحول فى مجال البحث فى الانثروبولوجيا بظهور مشكلات عدم الملائمة عند تطبيق وسائل البحث التقليدية مثل المقابلة Face to Face وكان ظهور هذه المشكلات منطلقا نحو تطوير الادوات والاساليب التى يستخدمها الانثروبولوجى فى اتمام دراسته الحقلية والتى استخدمها جنبا الى جنب مع الوسائل التقليدية ويشير احد الباحثين الانثروبولوجيين الى ذلك بقوله :

« لقد اتضح أن المفاهيم التقليدية التى كان الانثروبولوجيون يستخدمونها غير كافية لدراسة المجتمعات المعقدة ، وهنا فقد ظهرت مفاهيم جديدة كان لها أثرها على اثراء وتطوير البحث الانثروبولوجى ومن اهم المفاهيم الجديدة التى استخدمها الانثروبولوجيون مفهوم الشبكة Network ، الذى طوره بارنز عام ١٩٥٤ واستخدمته بوت Bott أيضا عام ١٩٥٧ . ومفهوم الحقل الاجتماعى Social Field الذى استخدمه فورتيس وجلوكمان وتلاميذه ١٩٥٨ ، ثم مفهوم التنظيم الاجتماعى الذى تطور على يد فيرث عام ١٩٥١ . والذى استخدمه ليشير الى الاختلاف بين البناء الاجتماعى المعيارى وبين نماذج

سلوك الافراد والتى تظهر داخل هذا البناء » (١) ، وبجانب ذلك فان تحول الانثروبولوجيين من دراسة المجتمعات القديمة والمجتمعات المحلية الصغيرة الى دراسة المجتمعات الكبيرة ٠قد ادت بالباحث الانثروبولوجى الى استخدام المعاينة Sampling فى حين أن الباحث الانثروبولوجى لم يكن فى حاجة الى استخدام اى مناهج احصائية عندما كان يقصر دراسة على المجتمعات المحلية الصغيرة « لان سكان القرية يظهرون هنا دائما فى الرسوم الجينالوجية (اشجار النسب ، التى يرسمها الباحث الميدانى وكان من السهل عليه أن يوضح تكرار اشكال السلوك بدون استخدام اى مناهج احصائية دقيقة ، اما الان فالدراسة فى المجتمعات الكبيرة قد ادت بالباحث الانثروبولوجى الى ضرورة الاستعانة فى بداية الدراسة الميدانية بمساعدين لاجراء مسوح عشوائية لصياغة الانماط او الاستعانة بهم طوال الدراسة وحتى نهايتها لحصر الجوانب الكيفية للبحث واثباتها او انكارها (٢) واذا كانت هذه أمثلة توضح ان التطورات التى حدثت فى مجال البحث فى الانثروبولوجيا قد اثرت فى المنهج وأدوات البحث وتأثرت به على ما سبق ، فقد كان لاهداف البحث الانثروبولوجى ، وما طرأ على هذه الاهداف من تغيرات دوره أيضا فى تطور طرق وأدوات البحث الانثروبولوجى ٠ فنحن نعلم أن اهتمام الانثروبولوجيين الاول قد كان منصبا على كشف القوانين الرئيسية العامة التى تحكم كل المجتمعات الانسانية ، ومع انه قد واجهتهم مجموعة متباينة من المعلومات الا أن الباحث الانثروبولوجى لم ييأس من انجاز بحث متكامل ٠ خاصة وأن نموذج الثقافة الانسانية ليس بسيطا وسهلا كما ظن الكثير من الاثنوجرافيين الاوائل الذين استخفوا بالتعقيدات والصعوبات القى واجهت الانثروبولوجيين (٣) ،

---

1) S.N. Eisenshtadt, Anthropological studies of complex societe-, in Man, November 1967 p. 43

(٢) هـ٠ باودر ماكر : مرجع سابق ص ١٥٤

3) Manchip White, Anthropology, Butler tomner Ltd, London 1954. p. 163.

والواقع أن ثمة اتفاقا بين الانثروبولوجيين على أن الهدف الاساسى لعلم الانثروبولوجيا هو تفسير أوجه التماثل والاختلاف ، الثبات والتغير فى الثقافات المختلفة (١) ، ولاشك ان ذلك يصبح ممكنا عن طريق «المقارنة» التى تشكل دعامة منهجية أساسية فى الدراسات الانثروبولوجية إلا أنه قد تبين أن المقارنة - باعتبارها دعامة منهجية أساسية لتحقيق هدف علم الانثروبولجيا تواجه مشكلتين او صعوبتين :

أولاهما تتمثل فى ان الانثروبولوجيين مازالوا منصرفين عن محاولة الوصول القوانين العامة بدعوى ان ما جمعه الانثروبولوجيون من معلومات ليس كافيا بعد ٠ وهنا يقول البروفيسور م ٠ سيرانسكى Speranskr « يواصل علم الانثروبولوجيا بحثه دوما تركيز على النتائج التى توصل اليهاودون فحص المعلومات » Data التى تم جمعها ٠ على أساس أنها غير كافية بعد للوصول الى نتائج عامة ومقبوله من جميع العلماء ٠ وهكذا نجد ان العلم مرة أخرى يركز اهتمامه على جمع وتقويم المعلومات لصلحة الاجيال القادمة ٠ ولكن ماذا ستكون النتائج العامة ، ومتى يمكن أن يتم الوصول اليها ذلك أمر لايزال مجهولا (١) ٠

أما الصعوبة الثانية ٠٠ فانها تتمثل فى أختلاف الاجراءات المنهجية التى يتبعها الانثروبولوجيون عند كتابة تقارير بحوثهم ٠٠ فليس هناك اتفاق حول معايير محدده توجد «المفهومات» بين الباحثين ٠ وتوحد بين مناهجهم مما يجعل المقارنة أمرا صعبا « ففى الوقت الذى تمتلك فيه العلوم الطبيعية والرياضية تصنيفات منظمة بصورة جيدة ومصطلحات متفقا عليها فى مؤتمرات خاصة ، ومنهجية تتطور بانتقالها من الاساتذة الى طلابهم فاننا لانملك - فى الانثروبولوجيا - شيئا من

---

(١) فلاديمر بروب : مورفولوجيا الحكاية الخرافية ٠ ترجمة بكر باقادر ، احمد عبد الرحيم نصر ٠٠ النادى الادبى الثقافى ، جده ١٩٨٩ ص ٥٢ ٠

ذلك (١) مما يجل وضوح التنظيم وحل المشاكل العلمية فى غاية الصعوبة ·

وازاء هاتين الصعوبتين فقد رد البعض على القول بأن ماتم جمعه من حقائق ومعلومات ليس كافيا للمقارنة بأن هذه المعلومات كافية فعلا واننا لسنا فى حاجة الى جمع المزيد من البيانات بل فى حاجة الى تحليلها المهم أن المشكلة ليست فى حجم الماده العلمية · ولكن فى طرق البحث المستخدمة للتحليل (٢) ·

أما الصعوبة الثانية فقد رد عليها بوجوب استخدام التكميم والقياس بحيث ربط البعض بين المقارنة التى تعتبر الوسيلة الاساسية للكشف عن القوانين الرئيسية العامة التى تحكم المجتمعات الانسانية وبين تطور منهجى مجرد فى البحث الانثروبولوجى · حيث راى ان الملاحظة الكمية (٣) تصبح ضرورة لاغنى عنها لامكان أجراء مثل هذه المقارنة - وسوف نتناول هذه النقطة فيما بعد ببعض التفصيل الا ان ما اردنا تاكيده هنا هو أن هناك علاقة واضحة بين هدف البحث الانثروبولوجى من ناحية ، وتطور الاساليب والمناهج المستخدمة فى هذا البحث من ناحية أخرى ·

ثانيا : شخصية الباحث :

اذا كنا قد اشرنا الى أن منهج البحث والادوات المستخدمة فى الانثروبولوجيا قد تأثر بتطور موضوع البحث واهدافه · فان لشخصية الباحث نفسه أثرها أيضا فى البحث الانثروبولوجى ، وتوضح متابعة

---

(١) المرجع السابق ص ٥٤ ·

(٢) فلا ديمير روب ·· مرجع سابق ص ٥٤ ·

3) Monique Borgroff Mulder and T.M. Caro, The us of quantitative observational Techniques in Anthropology. in Current anthrology vol 26. No3 June 1985. p. 324.

التراث . ان ثمة معايير صنف على اساسها الباحثون الانثروبولوجيون وهذه المعايير هى :

المعيار الاول (التخصص) :

وطبقا لهذا المعيار صنف الباحثون الانثروبولوجيون الى الانواع التالية :

الاول : قد يكون رجلا استعماريا او قانونيا او رجل اعمال او مبشرا دينيا . ولابد ان يكون هذا الباحث على درجة كبيرة من الحساسية والفضول العقلى الكافى لتجميع التقارير او الملاحظات عن الثقافة فى التجمعات البدائية التى يعيش بينها . اما المبشرون فقد استهدفوا اساسا نشر دينهم ، وهم يستطيون قضاء ليس فقط شهر بل اعوام بين المجتمعات البدائية وتوجد حقيقة اخرى وهى انهم قادرون على ان يحملوا على عاتقهم معظم الابحاث العميقة الدقيقة المجدية وهم غالبا ما يستطيون ان يتحدثوا اللهجات البدائية بطلاقة ويعاملون على انهم ضمن افراد القبيلة نفسها وعموما فهؤلاء لم يكونوا مدربين فى السلوك الحسى او المرئى وايضا غالبا ماكانوا غير مزودين بشكل كاف بالمهارات الانثروبولوجية لانجاز علمى حقيقى والقيام ببحث متكامل ، ومع ذلك فان مذكراتهم وبياناتهم قد تحفل بنوع من الحقائق التى يستطيع الدارس الفطن ان يستخلص منها معلومات كثيرة .

النوع الثانى : من الانثروبولوجيين الحقليين هم **الانثروبولوجيون المحترفون** وثمة انواع من الباحثين تنتمى لهذه المقولة فهناك :

ا ـ الباحث المحترف الذى يعمل لحساب الحكومات او لحساب هيئة علمية ، وقد وجهت الى هؤلاء كثير من الانتقادات الاخلاقية والخروج عن الالتزام بمصلحة المجتمعات محل البحث ([1]) . وبالطبع

---

1) Lucy Maire Applied Anthropology in Eanycolpedia Praitanca, Part 1-2, p. 329.

تحدد المؤسسة او الحكومة التى يعمل هذا الباحث لحسابها له عملا محددا وتهيىء له أن يقضى مدة طويلة من الملاحظة والرقابة المتصلة .

ب - قد يكون الانثروبولوجى محاضرا جامعيا (ينطلق ويبدأ فى جولات متعاقبة من العمل الحقلى) ولذلك فانه لابد له من الاعداد والتجهيز لرحلته وهذا الاعداد والتجهيز يكون فى شكل قراءة الدراسات السابقة واستشارة او الاستعانة بزملاء له من ذوى الخبرة بالمنطقة محل الدراسة أو منطقة البحث ، ولكن يجب ان يكون حذرا من تكوين احكام مسبقة يمكن ان تكون عائقا أو مشوها لموضوع تحقيقاته فيما بعد ، فمن المهلك بالنسبة للباحث الانثروبولوجى ان يضع آراء سابقة لاوانها عن الاديان البدائية ونظم القرابة وما الى ذلك ، وحيث تعتبر الجماعات البدائية مثل الامم الراقية خاضعة لقوانين التغير ، لذلك فهم يقاومون التغير لاقصى درجة ممكنة فانه لشىء بعيد الاحتمال ان تتصرف قبيلة سنة ١٩٥٣ بنفس الطريقة التى سبق للمشاهد ان وصفها سنة ١٨٨٣ أو حتى سنة ١٩٢٣ ، ولذلك فان الدراسات السابقة تمكن الانثروبولوجى من قياس اى معايير اتجاه التغير واستخلاص تعليقات وافية وصحيحة عنها .

المعيار الثانى (عدد الباحثين) : وهنا فقد ميز البعض بين الباحث الفرد وفريق البحث . فقد يذهب الانثروبولوجى وحده أو قد يصطحب اسرته معه الى مجتمع البحث . أو قد يكون عضوا فى فريق للبحث . وكان الاسلوب الاول - الباحث الفرد - هو الاسلوب السائد فى مراحل الانثروبولوجيا الاولى واذ ظلت له السيطرة حتى الان ، الا أن فريق البحث الذى يتألف من عدد من الانثروبولوجيين أو العلماء الذين يمثلون تخصصات مختلفة يعد اسلوبا جديدا الان فى الدراسة الحقلية . ولكل من الاسلوبين مزاياه وعيوبه فالانفراد فى الدراسة يهيىء للباحث درجة اكبر من الخبرة الحقلية ويعطيه الفرصة للحصول على معلومات اكثر دقة نتيجة اندماجه مع الاهالى . الا أن من عيوبه شعور الباحث بالوحدة فضلا عن اعتماده فى جمع المعلومات والبيانات على جهوده وحده ، فى

حين أن فريق البحث يعمل بكل تأكيد على اتساع نطاق المعلومات والبيانات التى يمكن جمعها . الا ان من مساوئه انه يجعل من الصعب تكوين علاقات قوية مع الاهالى فى حالة تقبلهم احد افراد الفريق فى الوقت الذى يرفضون الاخرين (١) .

المعيار الثالث (الموطن) :

وهنا فقد ميز المتخصص بين الباحث المحلى . والباحث الاجنبى (الزائر) ومما لاشك فيه أن الانثروبولوجى الاجنبى تتاح له امكانات محددة بالمقارنة بالباحث المحلى بجانب انه يواجه مشاكل متنوعة تحد بدورها من امكاناته كباحث انثروبولوجى وقد اوضح مؤتمر عقد عن مشاكل البحث الانثروبولوجى فى امريكا اللاتينية انه بالنسبة للباحث الاجنبى فان كل الدول تضع شروطا امام الباحثين الاجانب الذين يجرون بحوثا فى بلادها . وقد انشغل المؤتمر اساسا بالاعتبارات القانونية والعملية التى تربط بين الانثروبولوجى الاجنبى والحكومة الوطنية ، والاجراءات البحوث الانثروبولوجية فى كل دولة من دول امريكا اللاتينية ، والمعايير والضوابط والاجراءات الرسمية وغير الرسمية ذات الاهمية بالنسبة للانثروبولوجيين . وقد راى المؤتمر أن يجمع ذلك كله فى كتيب (دليل عمل) يقدم للانثروبولوجيين الاجانب (١) .

وعموما فان الانثروبولوجيا كعلم كانت تقوم فى مراحلها الاولى على اكتاف الباحثين الاجانب ،بل لقد بدأت الانثروبولوجيا اصلا معتمدة على اعمال رحاله نقلو عن الثقافات الاخرى ما اثار حب الاستطلاع لدى العلماء وادى الى ظهور علم الانثروبولوجيا وهنا يقول اليفن هالش : ان الانثروبولوجيا علم حديث ، فالاوربيين خلال تاريخهم كانوا يعطون

---

(١) هـ . باوكر ماكر : مرجع سابق ص ١٤٥

1) Luise Margolies, Problem of Anthopological research in latine America, in Current anthropology Vol 23, No 4 august 1982, p. 451.

اهتماما قليلا بالشعوب الاخرى • ووجهوا اهتماما قليلا لدراسة أسلوب حياة الشعوب الاخرى دراسة منظمة ، الا أن ذلك الاهتمام قد زاد بعد رحلات كولمبس للعالم الجديد ، حيث ادى التوسع الاوربى والاستكشافات الى زيادة حب الاستطلاع عن (الاجانب) والعادات الغريبة والشعوب التى تختلف فى شكلها بل ورائحتها عن ما هو مالوف محليا (١) •

واذا كان من الثابت أن البحوث الانثروبولوجية قد اقتصرت على الباحث الاجنبى لفترة طويلة من تاريخ الانثروبولوجيا • الا انه قد بات واضحا الان ان الباحثين الانثروبولوجيين المحليين قد اصبحوا يشكلون جزءا هاما من الانثروبولوجيين المعاصرين وحتى أولئك الذين اعترضوا يوما على ظهور الانثروبولوجيين المحليين • قد عادوا ليؤكدوا أهمية الدور المتعاظم لهم ويطالبون باستمرار هذا الدور ومساندته وهنا يقول كلود ليفى ستروس انه حينما تدرس حضارة ما بواسطة احد أفرادها فان الانثروبولوجيا تفقد طابعها الخاص وتكون حينئذ شبيهة بالعلوم الاجتماعية الكلاسيكية وعلم اللغويات وفقه اللغة والتاريخ وعلم الاثار (٢) ولكن كلود ليفى ستروس عاد فى نفس المقالة ليقول فى موضع آخر • « ان البحث الانثروبولوجى التجديدى يجب أن يتابع ويدعم حيثما تمكنت حضارات وطنية ، حتى تلك المهددة بانقراض وشيك ، من الاحتفاظ بجزء ما من هويتها الادبية ، وحينما يظل السكان أقويا طبيعيا ، بينما تتغير حضارتهم حتى تشبه حضارتنا فيجب ان تركز الانثروبولوجيا فى يد العلماء الوطنيين اهدافها وتبنى طرقا شبيهة بالطرق التى برهنت منذ النهضة ، على جدواها فى جمع معلومات عن حضارتنا ، ومنذ نهاية القرن التاسع عشر وفى كثير من اقاليم العالم ، قام علماء لانثروبولوجيا بتدريب باحثين وطنيين ندين لهم بالكثير من

---

1) Elvin Hatch, Theories of man and Culture, Colombia University Press, New York, 1973, p. 3.

(٢) كلود ليفى ستروس •• الانثروبولوجيا مرجع سابق ص ٧٤

الاعمال الاساسية : فى امريكا الشمالية مثلا ، فرانسيس لافليشى ، ابـن رئيس من رؤساء او ماها ، وجيمس مورى من هنود بونى ، وجورج بونت ، من هنود كواكيوتيلى ، وهنرى ثات من هنود تشيمشيا (١) .

ومن الجدير بالذكر ان تزايـد ظهـور الانثروبولوجيين المحليـين يرتبط بظهور صعوبات واخطار عديدة تواجه البحـث الانثروبولوجـى بشكل عام ـ وسنتناول هـذه الاخطـــار فى جزء لاحـق ـ بجانب ان الانثروبولوجى الزائر قد نظر اليه دائما « على ان ممثل للاستعمار ليس على المستوى الايديولوجى فقط ولكن ايضا على المستوى التخصصى فانه غالبا ما ينظر الى الانثروبولوجيين الاجانب على انهم يجمعون البيانات فقط لاستخدام النتائج اما لمصلحتهم الشخصيـة او المصلحة بلادهـم . ولا شك ان هذه النظرة مبنيه على ما حـدث فضـلا فى الماضى . فـان التجارب مع الدارسين الاجانب ولمدى طويل قد اوضحت ان التعاون مع الاعداء يعتبر السمه المميزة لهم (٢) .

وثمة ملاحظة يجب توضيحها هنا . فانه على المستوى التحليلى يجب ان نوضح ان مصطلح الباحث الاجنبى ـ او الانثروبولوجى الزائر قد نظر اليه دائما على انه يشير الى . باحث ينتمى الى دولة اخـرى ويحمل جنسية مختلفة تماما عن المبحوثين ... وهذه النقطة فى حاجة الى مزيد من المراجعة ذلك ان الباحث المحلى قد يتوافر فيه خصائص المحلية والاجنبية فى نفس الوقت فى كثير من البحوث الانثروبولوجيا . ويمكن توضيح ذلك بالقول ان الباحث الاجنبى من وجهة نظرنا نوعان

ـ باحث اجنبى ينتمى الى دولة اخرى ويحمل جنسية اخرى .

ـ باحث لاينتمى لثقافة المجتمـع المحلى ولكنه يحمـل نفس الجنسية التى يحملها المبحوثين .

---

(١) المرجع السابق ص ٥٧ .

2) Luise Margolies, op - cit., p. 451.

واذا كنا قد اشرنا الى النوع الاول ٠ فقد بقى ان نوضح ان النوع الثانى نعنى به الباحث الذى يدرس مجتمع محلى له ثقافته الخاصة المختلفة تماما عن ثقافة الباحث ٠ فعندما يقوم استاذ جامعى باجراء بحث انثروبولوجى فى مجتمع السجن ٠ وعندما يقوم طالب للدراسات العليا باجراء بحث بين المتسولين وعندما يقوم باحث انثروبولوجى جامعى يبحث بين جماعة من الغجر ٠ وعندما يقوم كل باحث من هؤلاء وغيرهم ممن يدرسون موضوعات فى مجتمعات مماثلة بالمعيشة فى مجتمع بحثه الذى يحمل ثقافة فرعية خاصة به وحده يجهلها الباحث ولاينتمى اليها فان هذا الباحث يعتبر شخصا اجنبيا عن ثقافةالمجتمع٠الا انهينتمى لنفس الجنسية التى ينتمى اليها افراد هذه المجتمعات ٠ ومن هنا فان الباحث المحلى يتحقق له ممزايا «المحلية» و «الاجنبية» فى نفس الوقت فى عدد كبير من البحوث الانثروبولوجية ٠

اما عن نوع الباحث ذكر ـ انثى ٠ فقد وجد البعض ان للانثى تميزا خاصا فى اجراء البحوث الانثروبولوجية ٠ فهى لا تعانى (من وجهة نظرهم) من صعوبة عند رغبتها الدخول الى اى مجتمع « لان الانثروبولوجية قادره بمفردها ـ دون الانثروبولوجى ـ على ان تشارك الحياة الاجتماعية اكثر مما يستطيع الباحث الانثروبولوجى لان تحريات الرجل وتصرفاته تكون فى العادة قاصرة على وجوده مع غيره من الذكور وحتى فى المجمتعات التى تقرر وتؤكد عدم الاختلاط بين الجنسين تستطيع المراة ان تعمل مع الرجال والنساء على السواء (١) بجانب ما نسبة البعض الاخر الى المراة حين اشار ان النساء عموما يستطعن ـ اكثر من الرجال استرجاع تفاصيل الملابس ولوانها والديكور والزينة وغير ذلك ٠

---

(١) باودر ماكر ٠٠ مرجع سابق ص ١٤٩

ثالثا : تطـور موضوعات البحث الانثروبولوجى :

لقد كان اتجاه الانثروبولوجيا الى تناول موضوعات جديدة احـد الامور الهامة التى عملت على تطوير البحـث الانثروبولوجى واثـرت كثيرة فى وسائله وادواته . ذلك ان هنـاك موضوعـات يقتضى بحثهـا استخدام وسائل بحثية جديدة وعلى الباحث تطوير الوسيلة البحثيـة التى تمكنه من دراسة «الظاهرة» أو «الموضوع» أو «المجتمع» موضع الدراسة وهنا يقول احد الانثروبولوجيين « ان على الباحث ان يبتكر من الوسائل ما يضمن توافر التمثيل والموضوعية فى ملاحظته » (١) .

وهنا فقد كان من الضرورى الاستعانة بوسائل وطـرق منهجيـة جديدة عند دراسة بعض الموضوعات فى فروع الانثروبولوجيا المختلفة ، الاخذه فى التعدد والتنوع عبر الوقت . فقد كان امتداد الانثروبولوجيـا الى مجال الاداره مثلا ـ دراسة العلاقات الانسانية فى الصناعة ـ احـد دعائم تطوير استخدام المناهج الكميـة فى الانثروبولوجيا حيث وجـد المختصون ان « باستخدام الطرق الانثروبولوجية يستطيع الادارى ان يحقق الضبط فى مجال العلاقات الانسانية ويستطيع ان يستخلص ويفهم تاثير التغير فيها ويحدد الخطوات التى لابـد مـن اتخاذها لاجـــراء التعديلات فى التنظيم او للابقاء عليه فى حالة من التوازن . وهنا فقـد ظهر فى مجال الادارة ما اسماه هؤلاء Anthrorological Engineering وقد تطور هذا الاتجاه المتضمن التوسع فى استخدام التحليل الكمى فى المانيا بوجه خاص خلال السنوات الثلاث أو الاربع الماضية (٢) .

واذا كنا قد ذكرنا امتداد مجال البحث الانثروبولوجى الى مجـال الادارة وعلاقته باستخدام مناهج التحليل الكمىفى الانثروبولوجيا فانذلك

1) Pelto, Pretti, Anthropological resarch, London 1970, p. 98.

2) Zliot D., Chapple, Anthopological engineering .... in Neoble, reading in anthropology. T.S. Hill book New York. 1955 p. 344.

كان مجرد ضربا للمثال فقط . ذلك ان هناك موضوعات عديدة عملت معالجتها فى الانثروبولوجيا علـى تطوير اساليب بحثية جديدة خاصـة فى مجال الانثروبولوجيـا الاقتصاديـة التى طـورت استخدام النمـاذج الرياضية - مثل نموذج نظرية المباريات - والبرمجـة الخطية . فقد اقتضى اتجـاه الانثروبولوجيـا الـى دراسـة علاقـات الصـراع والتنافس بين الافراد والجماعـات تطـوير وتكييف مدخـل «نظريـة المباريات» التى طورت اصـلا «كمدخـل ريـاضى لدراسـة مثل هـذه الموضوعات . واستخدمت بنجاح فى تحليل مشكلة الصراع رغم ان مجال استخدامها فى العلوم الاجتماعية محدد نظرا لان الصـراع الكامل بـين المصالح هو الاستثناء فى الحياة الاجتماعية ([1]) . وقـد كانت دراسـة عملية اتخاذ القرار فى المجتمعات التقليدية مدعاه للاهتمام بما يسـمى بالبرمجة الخطية . وهو نموذج يستخدمه الاقتصاديون عادة فى دراسة عملية اتخاذ القرار فى المجتمعات المتحضرة وقد اختبرته Sutti ortiz فى دراسة عن عملية اتخاذ القرار بين هنود كولومبيا كما استخدم لينونارد جوى نموذج البرمجة الخطية فى دراسة اتخاذ القـرار فى دار فـور فى محاولة لاختيار نمـوذج فريدرك بارث ([2]) واستخدم فريدريك بـارث نموذج نظرية المباريات فى دراسة التنظيم الانقسامى بين القبائل الفارسية كما استخدم هذا النموذج ايضا فى تحليل الاسطورة على ما فعل فيليب ريتشارد ، روبرت جليز ([3]) .

والامر نفسه نجده ينطبق عـلى الانثروبولوجيـا السيكلوجيـة -

---

1) Martin Shubik, game Theory, in Insyclobidia of Social Scence, P. 69.
- انظر Raymond Firth : Economic Anlhropology :
صفحات ٣٨ ، ١٧٥ - ١٨٩ ، ٢٢٤ .

2) Fredrik Barth, Segmentary opposition and the Theory of games, p 10 - 21.

3) Richard. F. & R. g : Anhropolegy et calcul p. 248 - 269.

وانثروبولوجيا التغذية ـ وغيرها هذا بالطبــع فضلا عن ابتكار وسائل جديدة تماما لدراسة ما تغطيه الانثروبولوجيــا البيولوجية وفروعهــا المختلفة من موضوعات خاصة وان الانثروبولوجيا الفيزيقية أول علم من العلوم البيولوجية التى استفادت الى اقصى حد من الرياضات وبخاصة الاحصاء (١) ٠

ومن الجدير بالذكر أنه اذا كان التطور فى موضوعات البحث قــد اثر فى المنهج واسلوب البحث فى الانثروبولوجيا : فان تفضيل البعض لاستخدام مناهج معينة فى البحث الانثروبولوجى قد كان له دوره ايضا فى التوجه نحو موضوعات بعينها ٠ذلك ان محاولة بعض الانثروبولوجيين فى استخدام مناهج العلوم الطبيعية وتخليص الانثروبولوجيا من النزعة الانسانية قد جعلهم يختارون الموضوعات الميدانيــة التى يعتقدون انهــا توفر لهم المنهج العلمى الدقيق (٢) وسنتناول هذه النقطة بتفصيل فيما بعد ٠

خطوات البحث الانثروبولوجــى :

يمكن بايجاز ان نحدد خطوات البحث الانثروبولوجى على النحــو التالى :

أولا : العمليات التحضرية للبحث :

١ ـ اختيار مجتمع البحث ٠
٢ ـ قراءة ماكتب عن مجتمع البحث ـ مسح التراث ـ
٣ ـ تحديد نوع الدراسة والاطار النظرى المرجعى للبحث ٠
٤ ـ الاتصال بالسلطات الرسمية واستئذانها ٠

---

(١) هارى شابيرو ٠٠ الانثروبولوجيا الفيزيقية ٠٠ ترجمة علية حسين والسيد حامد ـ مرجع سابق ص ٤٦ ٠
(٢) هـ ٠ بادور ماكر ٠٠ مرجع سابق ص ١٥٧ ٠

ثانيا ـ اجراء الدراسـة الميدانية :

١ ـ استخدام الملاحظة بالمشاركة ، وهنا نجد نوعين من الملاحظة

أ ـ الملاحظة الكيفية .

ب ـ الملاحظة الكمية .

٢ ـ الاستعانة بالاخباريين .

٣ ـ المقابلـة .

٤ ـ مدخل تاريخ الحياه ـ وقصة الحياه .

اولا : العمليات التحضرية للبحث :

اختبار الموضوع والمجتمع موضع الدراسة .

الخطوة الاولى فى البحث تتمثل فى تحديد موضوع الدراسة . وعند اختبار موضوع البحث . يجب أن يراعى الباحث تحديد موضوع الدراسة بلغة واضحة تماما ذلك أن اللغة التى يصاغ بها موضوع البحث كفيلـة بابراز النقاط الهامة التى يجب أن يتناولها الباحث بجانب انها تمكـن الباحث من استنباط نقاط اهتمام مختلفة متتالية (١) . وبعد اختيـار موضوع الدراسة يعمد الباحث الى اختيار مجتمع البحث . وهنا لابد من الاشارة انه ليس من الضرورى ان يتم اختبار موضـوع اولا ثم اختيـار المجتمع بعد ذلك . فهناك من الدارسين من يذهب الى مجتمـع محدد لدراسة ذات المجتمع بحيث يصبح هذا المجتمع هو ذاته موضوع البحث، وهذه النقطة يؤكدها باودر ماكر حين يوضح انه عندما يذهب البـاحث لاجراء دراسته الحقلية « يحدث فى الغـالب الان ان يعطى الباحـث الانثروبولوجى اهتماما خاصا الى مشكلة معينة (موضوع) بالذات »(١).

---

1) Bernard S. Philips, Sociol research strategy and tactics, collier macmillan publishing, London 1976. p. 108.

(٢) باودر ماكر .. مرجع سابق ص ١٤٤ .

اذن فالبحث الانثروبولوجى الذى يبدأ أولا باختيار - موضوع للدراسة قبل اختيار مجتمع الدراسة يمثل اتجاها حديثا فى الانثروبولوجيا فعادة ما كان الانثروبولوجيين الاوائل يختارون مجتمعا للدراسة ويتخذون منه موضوعا لدرستهم دون ان يكون ثمة مشكلة محدده يختبرونها فيه ... وبالطبع لازال كثير من الانثروبولوجيين المعاصرين يحتفظون بهذا المدخل .

٢ - قراءة ما كتب عن موضوع البحث ومجتمع الدراسة . سواء كان الباحث يبحث مشكلة محددة فى هذا المجتمع أو يتخذ من المجتمع ذاته موضوعا للدراسة . وعموما فان الباحث فى قراءته ما سبق كتابته عن مجتمع الدراسة وموضوع بحثه لايقرأ لمجرد القراءة بل يقرأ البحوث والدراسات السابقة بهدف تطوير فروض بحثه . وتحديد نقاط الاهتمام فى دراسته ، ووضع ما انتهت اليه الدراسات السابقة موضع المقارنة مع ما سينتهى اليه . وابراز أوجه الاتفاق وتبرير أوجه الاختلاف .. وهكذا

٣ - يحدد الباحث مدخله فى الدراسة فيحدد ما اذا كانت دراسة وصفية ام تحليلية . وهنا يحدد الباحث النظرية التى ستشكل اطاره المرجعى فى عملية التفسير ، وبالتاكيد فان الاحاطة بالنظرية يعتبر أحد ركائز التفسير الصحيح وهى هامة واساسية لابد من توافرها . وهنا فان اعادة التاريخ ، والوظيفية ، والاتجاه البنائى والثقافى والانثروبولوجيا النفسية جميعها من الاطر المرجعية الاساسية ، فكل اتجاه منها يؤثر فى اختيار الباحث المبدائى للموضوعات التى يدرسها ونماذج المعلومات التى يجمعها وكيفية التغلب على المعلومات وبعض الاساليب الفنية التى يعتمد عليها والفروض التى توجه الدراسة والفسيرات التى يلجأ اليها (١)

ويوضح البعض أثر الاتجاه النظرى بالقول : ان الوصف والتفسير

---

(١) باودر ماكر مرجع سابق ص ١٥٢

الذى يقدمه الباحث ليست عملية موضوعية دائما لانها تتاثـر بالرؤيـة الذاتية للباحث التى يتفهـم بها ما يجمـع . وهـذه النقطـــة يمكن تفسيرها بما قاله Khun وهو مؤرخ شهير فمن وجهة نظر Khun فان الحقائق لايمكن فهمها الا من خلال سياق نظرى ، وان ما يمكـن فهمه أو التوصل اليه من حقائق فى ضوء نظرية معينة يختلف عما يمكن فهمه أو التوصل اليه فى ضوء نظرية اخرى ([1]) كذلك فىحالة استخدام الملاحظـة الكميـة أو القيـاس فانـــه مالـم تكـن الاساليـب الكميـة quantitative techniques منبثقـة ومستمـدة من افكـــار نظريـــة theoreticol Ideas ، فان العلاقات Correlations التى يتـم التوصل اليها يتم استنتاجها بطريقة ميكانيكية تفقدها معناها وتصبـح غير ذات مغزى ([2]) .

٤ ـ من الخطوات التحضرية الهامة السابقة على أجزاء الدراسـة الحقلية أخذ موافقة الجهات المسئولة على أجراء البحث وقد زاد أهمية هذه النقطة خاصة بعد أن امتد مجـال البحوث الانثروبولوجيـة الـى المؤسسات المختلفة كالشركـات والسجـون والمستشفيـات والمشروعـات التنموية المختلفة . وهنا لايمكن أجراء الدراسات بها دون معاونة وتأييد

السلطات المسئولة عنها . فضلا عن نامين الباحث وتهيئة ما يحتاج اليه من وثائق واحصاءات هامة ولا يختلف الحال طبعا بالنسبة للفرد والقبائل وغيرها من المجتمعات المحلية .

ثانيا : أجراء الدراسة الميدانيـة :

بعد اتمام الخطوات التحضرية السابقة يبدأ الباحـث فى اجـراء الدراسة الميدانية فينتقل للاقامة فى مجتمع البحث فترة لاتقل كمـا قلنا

---

1) Elvin Hatch. op - cit. p. 11
2) Manique Borgerhoff Mulder & T.M. Caro, op - cit. p. 324.

عن سنه أو ثمانية اشهر على الاقل ،وهنا يستخدم الباحث الانثروبولوجى وسائل وادوات محـددة لاتمـام هذه الدراسة ، وهنـا يقول Pclto :

« تستخدم الانثروبولوجيا اكثـر من مقياس واكثـر من طريقـة للملاحظة عند دراسة النظم الثقافيـة . وهـذا ما يعبر عنه بالبحـث المتعدد الوسائل « ذلك ان الانثروبولوجى يحتـاج الى عـدد من ادوات البحث المتعددة حتى يتمكن من اجراء دراسة » (1) .

وعلى عكس الحال بالنسبة للعلـوم المعملية فـان الانثروبولوجيا تتضمن عددا اقل نسبيا من الادوات وتحتاج فى نفس الوقت الى حساسية اكبر وادراك للذات Self Awarenese حيث ان الباحث الانثروبولوجـى هو ذاته اداة بحثه ، اما المناهج التى يستخدمها فهى بدائـل لاضفاء الموضوعية والتقنين على قواه الادراكية ، وادوات البحث التى يناقشهـا هذا الفصل هى التى تظهر غالبا فى الابحاث الانثروبولوجية . فهـى ليست وسائل مبتكرة تماما وعلى كل باحـث انثروبولوجى ان يكـون منتبها الى امكانية ايجاد وسائل جديدة للملاحظة يكمل بها تلك الوسائل التقليدية ، وغالبا ماتكون الوسائل الجديدة للدراسة الحقلية تحسينات وتعديلات لواحد او اكثر من تلك الوسائل التقليدية . والنتيجة الطبيعية لتلك القاعدة هى انه فى كل دراسة حقلية فان الوسائـل المطبقة انمـا يكيفها الباحث لمتطلبات المسرح الثقافى ، فليس ثمة وسائل جاهزة ، وانما يعد الباحث لاجراء التعديلات والاختيار بين البدائل المتاحة من ادوات البحث .

الملاحظـــة بالمشـاركة : Participant Qbservation

تكلم مالينوفسكى بالتفصيل عن الملاحظة بالمشاركة ، واهتم ايضا باظهار اهميتها للدراسة الحقلية الفعالة . والمشاركة مسالة درجة فالمغامر

1) Eliven Hatch, op - cit. p. 11.

العرضى أو الرحالة ، يلاحظ بالمشاركة ولو حتى للحظات . ولكن الباحث الانثروبولوجى المحترف لابد وأن يغرق نفسه فى حياة الناس وذلك لان البحث لايتم الا بالاقامة الطويلة لشهور عديدة فى المجتمع المحلى . كما يجب أن يحسن التخاطب بلغة الاهالى حتى ولو كان معظم السلوك الذى يشاهده غير لفظى . والاقامة فى مجتمع البحث تعنى ملاحظة دقائق الحياة اليومية ، كما تجرى بين الناس ، وهكذا يرى الباحث عناصر الحياة اليومية تتكرر مرات ومرات امامه وتصبح من الامور العادية بالنسبة له . واكثر من ذلك فان جزءا لا بأس به من معرفة الباحث تصبح جزءا من الروتين اليومى الخاص به لانه بذلك يتفهم الكثير من عادات واهتمامات الناس ،ويختلف الباحثون الانثروبولوجيون الى حد كبير فى المدى الذى يمكنه به تمثل السلوك الثقافى . الا انه من الامور المعروفة ان العمل الميدانى يتم تعلمه بالممارسة وقد كانت التجربة الميدانية ذاتها مثلا مصدرا من مصادر المعارف الاساسية لرواد الانثروبولوجيا (ريفرز) ([1]) .

والمعلومات التى تاتى من الملاحظة بالمشاركة مهمة بالنسبة للوسائل الاخرى حيث أن المعلومات الاولية المتحصلة من الملاحظة بالمشاركة تمد الباحث بالاستبصارات اللازمةلتصميمالاستمارات والاختباراتالسيكولوجية وغيرها من وسائل البحث الاخرى المتخصصة . كما أن الملاحظة بالمشاركة هامة لاختيار المعلومات الحقلية اللازمة لتقييم الشواهد التى جمعت بالوسائل الاخرى المتخصصة ، أن الجدول الزمنى للبحث الحقلى يتضمن التداخل بين الملاحظة بالمشاركة والاساليب الاخرى لجمع المادة. وكل فرد انما هو ملاحظ بالمشاركة ، اذا لم يكن للثقافات الاخرى ، فعلى الاقل بالنسبة لثقافة مجتمعه شخصيا ، ولكن المستوطن غير الانثروبولوجى فى مجتمع أجنبى فهو يعود الىوطنه بصورة غير منظمة

---

1) Aly isa, Social Anthropology, Darelmaraf. Cairo, 1960 p. 68.

وغير كاملة للمجتمع الذى قام بملاحظته . فالدراسة الحقلية تتطلب اذن ماهو اكثر من مجرد التواجد Being there والمراقبة السلبية لما عليه الناس . ذلك انه غالبا مايحتاج الباحث فى ملاحظته الى التحرى عن كثير مما يظهر له فى أول الملاحظة ، والاطار النظرى أو المرجعى للباحث يمده بمجموعة من التساؤلات والموضوعات ذلك انه عندما يشاهد واقعة يحاول ان يكتشف علاقة هذه الواقعة بهذا الاطار المرجعى كله - ويجب ان نوضح انه فى الحالات التى يشعر فيها الباحث أن مجموعة هامة من المعلومات متاحة له من خلال ملاحظته لنمط معين من الوقائع يجب ان يبتكر وسائل لضمان توافر التمثيل والموضوعية فى ملاحظته وذلك بتكرار حدوث الواقعة المحددة بواسطة الملاحظات المنظمة والتحرى المنظم للعلاقة بين مختلف الوقائع والتى تتم من خلال اجراء المقابلة والمراقبة والاختبارات وبذلك فان الملاحظة يمكن أن تصبح صالحة للاستخدام العلمى ويتم بذلك (اضفاء العلمية على الملاحظة) . وهنا فان بعض الافراد يعتبرون ملاحظين مدربين - بينما يفشل الاخرون فى الملاحظة وتذكر عديد من الدقائق كما ان بعض الافراد مشاهدين جيدين ويستطيعون امدادنا بدقائق السلوك المشاهد كما يختلف الناس من ناحية الجوانب التى تسترعى اهتمامهم .

مثال : النساء عموما اكثر من الرجال أستطعن استرجاع تفاصيل الملابس والوانها وديكور والزينة بطريقة افضل من الرجال .

وعموما فكل فرد لديه مجال اهتمام خاص يؤثر على عاداته اثناء الملاحظة . ويحتاج كل باحث حقلى الى أن يتعرف على نقاط الضعف ونقاط القوة التى تميز طريقته فى الملاحظة ،وعليه أن يمارس ملاحظة وتسجيل الوقائع ليتبين ما لديه من انحرافات أثناء الملاحظة وكى يمكنه ان يكون أساليب اكثر ملاءمة للاسترجاع Recall فعلية أن يكتشف مدى مايجب عليه لضمان دقة الملاحظة لكى يضمن بالتالى دقة استرجاع (ما يلاحظ) . ويجب ان يتعلم أن يوجه انتباهه الى التفاصيل التى

اعتاد أن يتجاهلها . أن الملاحظة لها علاقة وطيدة بالاطار النظرى للباحث . فالباحث الذى تدرب وفق النظرية البنائية الوظيفية سوف يرى فى أحد الاعياد أو فى السلوك الاحتفالى خلاف ما يراه الانثروبولوجى الذى يهتم بعمليات الانتشار الثقافى .

والأنساق النظرية تقدم المفاهيم والاطارات المرجعية لتصنيف الملاحظات والباحث يحتاج دائما الى ان يفحص بعناية كبيرة المصنفات والمفاهيم التى يستخدمها فى الملاحظة الحقلية . ثم أن هناك خطرا مستمرا يكمن فى القفز السريع الى التجريد . فالتسجيل الابتدائى أو الاولى للوقائع المشخصة يجب أن يتم على أدنى مستوى من التجريد ما أمكن . ولذا فان بعض العبارات مثل «كان الرجلان عدوانيين» أو «ان البناء كان متهدما» هى أحكام عامة والتى قد تبدو كافية للباحث أثناء الكتابة فقط ولكنها تصبح صعبة التفسير بعد عدة شهور يجلس بعدها الباحث لكى يصنف ويحلل هذه الملاحظات . وهنا تذكر ان البعض قد صنف الملاحظة فى البحث الانثروبولوجى الى نوعين ، ملاحظة كيفية . وملاحظة كمية ، وصنفها البعض الاخر الى ملاحظة مباشرة وأخرى غير مباشرة ، ونتناول هذه النقطة ببعض التفصيل فيما يلى :

أولا : الملاحظة المباشرة وغير المباشرة :

أما الملاحظة المباشرة فقد اشار اليها مونتاجيو بقوله : فى حالة دراسة المجتمع البدائى فان الدراسة لايمكن أن تتم الا بالملاحظة المباشرة [١] ، وهنا لابد أن يراعى الباحث أثناء ذلك الاحتفاظ بمذكراته وبأدواته الاخرى بعيدا عن الانظار ويعمل على تقليل الاختلافات فى المظهر بينه وبين المبحوثين كلما كان ممكنا ،ويريد الباحث الانثروبولوجى دائما أن يحمل المبحوثين على الثقة به ويكون اهتمامه الاول هو الا

---

(١) آشلى مونتاجيو : البدائية محمد عصفور ، عالم المعرفة الكويت ١٩٨٢ ص ٧٦ .

يخرج عنهم أو ينشق عنهم فهو يعيش فى كوخ بدائى ويتناول طعـام بدائى ويشترك فى اللهو والشعائر القبلية أيضا اذا كان يبحث مجتمعـا بدائيا أو قبليا • ونفس الحال اذا كان يدرس مجتمعا محليا فيحـاول الاندماج فى هذا المجتمع دون أن يتسبب فىاضطراب حياة مضيفية • وفى اثناء ذلك يكرس وقته لتعلم اللغة كلما امكن ذلك كى يلاحظ رجال ونساء القبيلة الذين يبدون سعه فى الاطلاع واكثر ثقة ووقار ، ونجد أن افضل طريقة لاستنتاج المعلومـات هـى توجيه اقل قـدر من الاسئلـة الغير مباشرة كلما امكن بهدف أو بقصد تشجيع المبحوث على التحدث بحرية وبلا تصنع ويقوم الباحث بتسجيل المعلومات أو المذكرات التـى جمعها فى خلوة أو عزلة كالمسكن الخاص به حيث تكون أكثر ملاءمة ، اما عن الصور الفوتوغرافية فان الفرد يجب أن يكون حذرا فى ادخـال هذه الاضافة الضرورية لعمل الباحث خاصة فى حالة بحث الانسان البدائى الذى يستقبل الصور الفوتوغرافية أو الصوت المسجل بالرعـب والفزع الذى يكمن فى ذهنه تجاه الظلام والمخيلات وصدى الصوت اذا مازادت الحساسية ضد الاجهزة الميكانيكية الحديثة اما اذا كان الباحث يعمل فى مناخ ملائم كما هو الحال فى بعض المجتمعات المحلية الحديثة ، فـان الكاميرا وشرائط التسجيل تصبح اكبر معاونة للعمل الحقلى فهى تهيىء له سجلا دائما مصنوعا من الموسيقى والرقصات والنشاطات الاقتصادية وهى أيضا ذو قيمة كبيرة بخاصة فى تسجيل المحادثات والقصص والتراجم الذاتية التى يمكن أن تدرس أوقات الفراغ فى فتـرات لاحقة وتعتبـر التسجيلات أيضا ذات فائدة لاى عالم لغويات يتجه فيما بعد لبحث اللغة بشكل منسق •

ـ الملاحظة الكيفية والملاحظـة الكميـة :

ترتبط الملاحظة الكيفية بالنزعـة الانسانيـة التى سيطرت عـلى الانثروبولجيا لفترة طويلة والتى كانت تجعل الباحث ينفر من استخدام التكميم والارقام • وينفر من استخدام الاستبيان نفورا تامـا • بحيث

كان استخدام الارقام والاحصاءات أحد المآخذ التى تؤخذ على الباحث الانثروبولوجى وقد كان احد مصادر الاعـزاز والترحيب لاى بحـث انثروبولوجى هو عدم استخدامه للجداول والارقام او الاحصاءات فضلا عن معطيات علم الاحصـاء بالطبـع بحيـث « رأى البعضـ أن دور الانثروبولوجيا واسهاما فى العلوم الاجتماعية يتمثل فى دراسة لظواهـر الاجتماعية ، والكشف عن الجـانب الشخصى الكيفـى فى العمليـات السياسية والاقتصادية التى تتناولها العلوم الاخرى بشكل تجريدى وعلى نطاق واسع (1) .

وفى ظل الملاحظة الكيفية يكتفى الباحث بتسجيل البيانات Data التى يحصل عليها عن طريق «الوصف» اعنى وصف ما يشاهد ويلاحظ وصفا كيفيا لا كميا . وقد ظل هذا الاتجاه مسيطرا لفترة طويلة فى تاريخ الانثروبولوجيا المبكـر . الا أن الانثروبولوجيين انفسهـم مالبثـوا أن تبنهوا الى القصور الذى يكتف طريقهم هذه ، وفى مراجعتهم لمناهجهـم اكد البعض الاهمية الكبيرة لاستخدام للرياضات والاحصاء فى الدراسات الانثروبولوجية على أساس أن « السلوك الانسانى يمدنـا بفئتين مـن المعلومات أو الحقائق : حقائق لها دلالات كمية تشير الى الحجـم أو المقدار » مثل مقدار المهر واتساع نطاق القرابة وعمق البدنة مقدرا بعدد الاجيال التى تفصل بين الاعضاء الاحياء ومؤسس البدنة الاصلى ، ومدى اتباع ومراعاه احدى القواعد القانونية أو التعاليم الحقلية ، وما الـى ذلك من العلاقات الاجتماعية التى قد تحتاج الى القيام بالاحصائيات وحقائق ذات دلالات كيفية تحتاج الى مجرد الوصف والتفسير ولكـن الواقع أن هذا التمييز تمييز تعسفى الى حد كبير ، لان كل الحقـائق الاجتماعية وكذلك العلاقات التى تقوم بينها لها كلا المظهرين : الكيفى

---

1) Carol M. Counihon, Bread as world food hatuts as world relation in modermizing Sardinia, in Anlhropological quarterlly p. 56.

والكمى [١] ، وعلى الرغم من ظهور اعتراضات على استخدام الرياضات عند جور فيتش ، الا ان الاهتمام بالرياضات والاحصاء بلغ مداه عند ميردوك وعند كلود ليفى ستروس الذى قال : « من المؤكد ان الشبان الذين سوف يتخصصون فى العلوم الاجتماعية لابد وان تكون لهم ثقافة اساسية قوية فى الرياضيات والاطردوا من المسرح العلمى [١] وهنا فقد لخص البعض ما شاب المنهج الانثروبولوجى فى ظل غياب استخدام التكميم على النحو بقوله :

ان الملاحظة بالمشاركة واجراء المقابلة مع الاخبارين تشكل جوهر الابحاث الانثروبولوجية ، ولكن لو اخذناها على علاتها فان تلك المناهج قد عرضت الانثروبولوجيا لانتقادات خطيرة يمكن ذكرها فيما يلى :

١ ـ **التكميم** : رغم ان مالينوفسكى وغيره من الرواد قد اصروا على ضرورة العد والقياس ما امكن الا ان ذلك هو ما ينقص معظم الابحاث الانثروبولوجية .

٢ ـ **التمثيلية** : فى الحالات التى تجمع فيها البيانات من اخباريين مختلفين او من الملاحظات الشخصية العديدة فان الباحث عادة لايحدد المجتمع الذى تعتبر تلك الملاحظات عينة منه . ولا تتخذ الخطوات لتاكيد ان العينة ممثلة للمجتمع .

٣ ـ **تحديد اجراءات البحث** : فى عديد من الحالات لايعطى الباحثون ملعومات عن مناهج البحث المستخدمة ، وعلى ذلك لايمكن للناقد ان يقيم الثقة والثبات .

---

(١) احمد ابو زيد .. المفهومات .. الهيئة المصرية العامة للكتاب الطبعة الثامنة ٢ي١٩ ص ٤٩ ـ ٤٨ .

ولقد طور الانثروبولوجيون عددا من الوسائل المنقحة لتجاوز هذه الانتقادات أحدها هو كشف المقابلة Interview Schedule وتستخدم فى التعداد : Census واستخدام كشف المقابلة الشاملة يتطلب دراية معقولة بالانماط الثقافية المحلية والجماعات الاجتماعية عن طريق الملاحظة بالمشاركة والاستعانة بالاخباريين (١) . وتوسع البعض فى استخدام الملاحظة الكمية لتلافى هذه الانتقادات .

الملاحظة الكمية فى الدراسات الانثروبولوجية :

سبق أن أشرنا أن ثمة اتفاق بين الانثروبولوجيين على أن الهدف الاساسى لعلم الانثروبولوجيا هو تفسير أوجه التشابه والاختلاف ، ودراسة أوجه الثبات والتغير فى الثقافات المختلفة واوضحنا انه رغم هذا الاتفاق بين الانثروبولوجيين . فانه من الغريب ان نجد ان البيانات Data المتاحة من خلال بحوث الانثروبولوجيين والخاصة بعملية المقارنة بين الثقافات المختلفة ليست كافية .

ولقد اشار ميردوك عند تصنيفه وتبويبه الاطلس الاثنوجرافى عام ١٩٦٧ الى ان ذلك مرجعه عدم وجود اتفاق بين الاثنوجرافيين حول معايير محددة يلتزمونها عند كتابة تقاريرهم الاثنوجرافية ولا شك فى ان ذلك النقص قد القى بطلانه على نظرية التباين أو الاختلاف بين الثقافات Cross Culture Theory وقد اكد جونسون استمرار هذا النقص حين اكد ماذهب اليه ميردوك عام ١٩٧٨ . ذلك انه رغم ما استحدث من تطور فى المجال النظرى والامبريقى فى الانثروبولوجيا فان نقصا واضحا لازال يعترى مصداقية مقارنة الدراسات الاثنوجرافية التى نشرها الانثروبولوجيون دون أن يشيروا الى الاجراءات المنهجية التى اتبعوها ، ولاشك أن تحقيق اى تقدم فى المجال النظرى لايمكن أن يتم الا اذا وجدت معايير او قواعد واضحة تحكم مقارنة البيانات

1) Pelto. op-cit., p. 29.

المتاحة عن الثقافات ، واذا كان Pelto ـ ١٩٧٠ قد قال ان المشكلة الملحة التى تواجه البحث الانثروبولوجى تتمثل فى «جمع المعلومات» ، فى حين قال Goodenough ١٩٧٠ انها تتمثل فى « تحديد واضح للمفاهيم » فقد اكد جونسون ان المشكلة الاساسية التى تعوق تقدم البحث الانثروبولوجى تتمثل فى اسلوب القياس ، وعموما فقد كان الاهتمام «بالقياس» و «التكميم» فى الانثروبولوجيا استجابة وسدا لاوجه النقص العديده السابق الاشارة اليها . بجانب انه كان اخذا بتقليد او اتجاه عالمى ظهر فى السنوات الاخيرة « حيث اتجهت العلوم الاجتماعية فى العالم كله فى السنوات الاخيرة الى استخدام ادوات جديدة ومناهج جديدة بل وتساؤلات جديدة تختلف عن تلك التى استخدمتها فى الماضى وان هذه الادوات والمناهج والمسائل الجديدة تندرج كلها تحت مبدأ عام هو «التكميم» ([1]) وقد كان من نتيجة ذلك ان اخذ استخدام الطريقة الكمية quantative method فى جمع البيانات فى الانثروبولوجيا فى الفترة الاخيرة يحقق قبولا سريعا بين الانثروبولوجيين فى جميع مجالات البحث الانثروبولوجى . فقد استخدم هذا الاسلوب فى انثروبولوجيا التنمية على مافعل بلرتون جونس (١٩٧٢) ، وفى الدراسات الانثروبولوجية الاقتصادية (عند جونسون ١٩٧٥ ، منج كالفانا ١٩٧٨) .وفى دراسة موضوع التطور (عند شاجنون وايرن Chagnon & Iron وايرن ١٩٧٩) . وفى انثروبولوجيا التغذية (عند ماسير ، وفى الانثروبولوجيا السيكلوجية عند Whiting and Whiting (وعند وتنيج ، ويتنج) ١٩٧٥ ، روف ١٩٧٨ . ويسمح المنهج الكمى باختيار فروض محدده احصائيا ويمكن الباحث من اجراء مقارنات دقيقة بين الثقافات المختلفة على اساس كمى . ولا شك ان هذه المقارنات تعد مطلبا هاما خاصة وان المجتمعات المختلفة تتعرض لعملية تغير سريعة وان الملاحظات

---

1) Reinhard Mann, quantification and methods in Social Science research in social science information vol 17-no 2, 1978. p. 343.

التى يلاحظها الانثروبولوجى غير قابلة للتكرار بجانب ان ذلك يجعل علم الانسان يحظى بالقبول بين العلوم الاخرى .

ومع ذلك فان اساليب الملاحظة التى تم استعارتها من مجال دراسة أسلوب الحيوان لايمكن تطبيقها فى دراسة السلوك الانسانى . كما هى دون مراعاة بعض الاعتبارات الهامة .

وقد ناقش ماينك بور جريف طرق قياس النشاط الانسانى ، وعدد مصادر التحيز bias التى تكمن فى استخدام أسلوب الملاحظة فى دراسة الانسان واقترح طرق علاجها بعد أن تناول مفهوم النشاط الانسانى كما قدم بعض البيانات الاضافية التى يمكن الحصول عليها من خلال الملاحظة والتى يمكن بواسطتها الربط بين النشاط الانسانى الذى نقوم بدراسته وبين مايسمعه الباحث ، ووضع مجموعة القواعد Code أو المبادىء التى تمكن للانثروبولوجيين من مقارنة الدراسات السلوكية والنشاط ، والتفاعل بزيادة وعى الانثروبولوجى بخصائص أسلوب الملاحظة وأوجه القصور التى يتضمنها هذا الاسلوب فى البحث (١) .

وعموما فان الاتجاه الكمى ـ الاحصائى والرياضى بمعناه الحقيقى قد اخذ يلقى قبولا كبيرا بين الانثروبولوجيين . ويمكن تلخيص العوامل التى عملت على تدعيم هذا الاتجاه فى الانثروبولوجيا على النحو التالى :

١ ـ انه اتجاه يدعم ويتفق مع الهدف الاساسى لعلم الانثروبولوجيا المتمثل فى التعرف على اوجه التشابه والاختلاف بين الثقافات والمجتمعات البشرية .

---

1) Monique Bargerhoff Mulder and T.M. Caro, op-cit., p. 323.

٢ ـ أنه اتجاه يدعم مكانة الانثروبولوجيا كعلم ويجعله يلقى القبول والاعتراف من التخصصات الاخرى ويساء نزعة عالمية تسود معظم العلوم المعاصرة ٠

٣ ـ انه اتجاه يتفق مع توجه علم الانثروبولوجيا الى الاهتمام بالمجتمعات الغير متجانسة والمعقده نسبيا ٠ وهى مجتمعات تتعرض لتغيرات سريعة نتيجة لعمليات التحضر والتصنيع ، ولايكفى لدراستها المناهج ووسائل البحث التقليدية كالمقابلة Face to Face التى كانت ملائمة للمجتمعات الصغيرة ٠

٤ ـ أنه اتجاه يلائم الدراسة المقارنة للتغير الاجتماعى وهو موضوع أصبح مجال اهتمام عدد كبير من الانثروبولوجيين حيث نجد أن التركيز على التغير الاجتماعى حل محل التركيز على النظم الاجتماعية الثابتة أو المفترض ثباتها الى حد ما ٠ ولاشك أن ذلك قد جعل الانثروبولوجيين يبحثون عن القياسات الكمية للتغيرات الاجتماعية مثل قياس معدلات الهجرة ، التكيف ، التغيرات فى الاستقرار الاسرى ٠٠٠ الخ ٠

٥ ـ يتناسب هذا الاتجاه مع الاهتمام باختبار الفروض فى البحث الانثروبولوجى ٠ حيث نجد الكثير من الدراسات فى الوقت الحالى قد وجهت الى اختبار فروض محددة بواسطة أدوات بحثيه محدده ٠

وهنا لابد من التنبيه الى امر هام ، فقد حدث خلط كبير بين الانثروبولوجيين بالنسبة لمفهوم التكميم من ناحية ٠ واستخدام معطيات الرياضات وعلم الاحصاء من ناحية أخرى ٠ فقد اعتقد عدد كبير من الانثروبولوجيين ان مجرد جمع البيانات فى شكل كمى واستخدام الاحصاءات والجداول يعتبر استخداما لمعطيات علم الاحصاء ، ولاشك ان فى ذلك خلط واضح بين مفهوم «الاحصاءات» وعلم الاحصاء ٠ بل لقد اعتقد البعض أن مجرد جمع بيانات كمية هو استخدام للرياضيات٠

وزعم هـؤلاء أن بحوثهم هـذه تمثل «الاتجـاه الكمى ، أو الاتجاه الاحصائى » . الا اننا نرى أن الاتجاه الكمى أو الاتجـاه الاحصائى لايعنى مجرد تجميع بيانات رقمية عن الظاهرة موضع الدراسة . فليس عمل الاحصاءات والجداول استخداما لعلم الاحصاء ولاتمثل بالمرة الاتجاه الاحصائى فضلا عن الاتجاه الرياضى . ذلك أن الاتجاه الاحصائى يقتضى متابعة العلاقات الاحصائية من معاملات ومتوسطات مختلفـة ولايتـاح استخدام معطيات علم الاحصاء بالطبع لا لدارس هـذا العلم دراسـة متعمقة وللمتدرب على استخدام قواعد علم الاحصاء على البيانات التى يتم جمعها من حقل الدراسة . ومن الملاحـظ أنه حتى بالنسبة للذين يتلقون كورسا دراسيا فى علم الاحصاء لايسهل عليهـم استخـدام هـذا العلم فى دراستهم الميدانية حيث يتلقونه فى شكل نظرى ومجموعة مـن المسائل المجرده البعيدة عن البيانات الواقعية التى يتطلب اخضاعهـا لمبادىء هذا العلم تكييفا خاصا وتفهما دقيقا بطريقة استخدام معطيات هذا العلم .

أما عن استخدام النماذج الرياضية فى الانثروبولوجيا . فانه لـم يصادفنى دراسة واحده باللغة العربية توضح ان هناك تطبيقا لاى من النماذج الرياضية فى الانثروبولوجيا او حتى علم الاجتماع . ولعل ذلك يرجع الى ان ثمة نقص واضح بل وشديد الوضوح فى المعارف الرياضية بين طلاب العلوم الاجتماعية – الانثروبولوجيا وعلم الاجتماع . وليس ذلك غريبا اذا ما قلنا انه لايوجد كتاب واحد باللغة العربية عن عـلم الاجتماع الرياضى أو الانثروبولوجيا الرياضية فى العالم العربى كله طبقا لمعلومات المؤلف على الاقل .

٢ – الاستعانة بالاخبارى فى البحث الانثروبولوجى :

ان احد الاساسيات فى البحث الانثروبولوجى هو استخدام اخباريين رئيسيين كمصادر للمعلومات عن ثقافاتهم ، وهذه الوسيلة لامناص منها للحصول على المعلومات عن أساليب الحياة التى انتهت أو التى تغيرت

قبل وصول الباحث الى المجتمع ٠ وعلى ذلك فـان معظم الدراسـات المتاحة للثقافة الخاصة بهنود امريكا قد اعيد بناؤها من تقارير الاخباريين عن طريقة الحيـاة فى الماضى والتى لم تعـد موجـودة وقت البحث ٠ فالملاحظة بالمشاركة كانت غير مجدية ولذلك كان المصـدر المتاح هـو استثارة الناس الذين شاركوا فى تلك الثقافة ، ومن خبرتنا بالناس نعرف ان الافراد يتمايزون فيما بينهم بالنسبة الى معرفتهم وتفسيراتهم لنظمهم الاجتماعية والثقافية ، فبينما نجـد بعض الناس موسوعيين بالنسبـة لقواعد السلوك فان الآخرين يجهلون ذلك ، وبالنسبة للآلات والادوات المستخدمة نجد أن البعض يعرفها فى حين يعتمد الآخرون على زملائهم فى المعرفة بها ، كما يختلف الناس فى اهتماماتهم وقدراتهم على التعبير اللغوى وبالتالى لايجد الانثروبولوجى الا عددا قليلا من الافراد يصلحون كاخباريين ملائمين ٠ وهنا فان بعضا من قدرات الاخبـارى يكتشفهـا الباحث الانثروبولوجى ذاته ، وهو يدربه على تصوير المعلومات الثقافية فى الاطار المرجعى الذى يستخدمه الانثروبولوجى وهذا يصدق خاصة على الدراسة اللغوية والسوسيولغوية وعـلى جميـع فـروع الدراسـة الانثروبولوجية عامة ٠

ويتعلم الاخبارى بالتدريج قواعد السلوك فىمواجهة الانثروبولوجى ولو طال التعامل بينهمـا فربما يستخدم المفاهيـم النظرية الخاصـة بالانثروبولوجى فى تحليـل ثقافتـه الخاصـة ٠ وهكذا فانـه فى بعض الدراسات التى تضمنت اعتمادا كبيرا على الاخباريين ولفترات طويلـة فانه يمكن القول أن التفسيرات الخاصـة بالتنظيم المعرفى والمسلمـات الأساسية أو العـلاقات الوظيفيـة التى تظهـر فى صورة طبيعيـة لدى الاخبارى قد تشكلت الى حد كبير بواسطة الانثروبولوجى ذاته وهو يعلم الاخبارى بدوره الخاص كشارح لنظمة الثقافية ٠ وهنا فان فرانك وروث يونج قاما بتحليل لفعالية الاخبارى أثناء دراسة أجرياها فى المكسيك ، ووجد أن الاخباريين كانوا على مستوى من الثقة والفعاليـة فى اعطـاء معلومات عن موضوعات محددة مثل :

١ - الجغرافيا الطبيعية والمبانى العامة مثل التساؤل القائل (هل يوجد مسجد بهذه البلدة ؟) .

٢ - النظم والادوار النظامية (هل لديكم طبيب هنا ؟) .

٣ - تواريخ الاحداث الهامة فى المجتمع (متى دخلت الكهرباء فى تلك المدينة) .

ومن ناحية اخرى فقد وجد أن الاسئلة التقييمية مثل (هل ثمة اى تغير فى التمسك بالدين فى هذا المجتمع فى العشر سنوات الاخيرة ؟) او (ما نسبه الناس الذين ياكلون البيض هنا ؟) . تلك الاسئلة تظهر اتفاقا اقل بكثير بين الاخباريين (ومن ثم تقل درجة الثقة بها) .

ولكن حتى لو كنا نتوقع ان دور الاخبارى سوف يكون فى حاجة لمراجعة فى ظل ظروف الاتصال الوثيق والعلاقة الوطيدة بينه وبين الانثروبولوجى ، فان من المحتمل انه حين يتعلق البحث بظواهر تلاحظ مباشرة كالخصائص الطبيعية او النظم والامور التى تتطلب القليل من التقييم او الاستنتاج ، فان الاخباريين سوف يظهرون درجة مرتفعة نسبيا من الثقة وعموما فان الثقة بين الاخباريين - كما يوضح يونج وغيره - مسالة احتمالية ، وهم يوضحون ان ثمة اتفاقا نادرا بين الاخباريين حول اى موضوع او بالنسبة لكل المجتمعات . والثقه هى اتفاق معظم الاخباريين فى معظم المجتمعات على اجابه معينة .

ومن الجدير بالذكر أن معظم التاكيدات حول فعالية الاخبارى انصبت على البحوث المسحية على المستوى الكبير وليس فى حالة المواقف التى تستخدم فيها المقابلة المركزة على مدى زمنى كبير فى مجتمعات صغيرة نسبيا .

وثمة نقطة هامة ينبغى الا تغيب عن الذهن وهى أن باحثين مختلفين قد يحصلون على اجابات مختلفة من نفس الاخباريين ، ذلك

أن الخصائص الاجتماعية والطريقة التى يقدم بها الباحث نفسه تؤثر على الاشخاص الذين يقابلهم والمعلومات التى يسجلها الباحث فى مذكراته أو فى كشوف المقابلة تختلف الى حد كبير على أساس طريقة ادارته للمقابلة ·

ويقال دائما أن الباحث يثق فى الاخبارى بسبب علاقة الصداقة الطويلة المدى التى تجمعهما ، ولكن لابد من الالتفات الى ان تلك الصداقة ، لابد وأن تخلق نوعا من التفاعل ومجموعة مشتركة من الاتجاهات والميول التى قد تلقى بظلالها على المعلومات التى يعطيها الاخبارى · كما أن الباحث الذى يهتم اكثر بالخصائص السلبية للناس، مخاوفهم ، عداواتهم ، عدوانيتهم والانحرافات السلوكية بينهم - من المحتمل ان يظهر وصف السلوك الذى يتضمن فقط تلك الصفات السلبية· وكذلك الامر بالنسبة للباحث المهتم بالخصائص الايجابية ، من المحتمل ان يبرز فى وصفه للسلوك الكثير من الصفات الايجابية · وتلعب الملاحظة بالمشاركة دورا هاما فى اختيار الاخبارى الافضل · بجانب أن عدد الاخباريين المختارين لابد وأن يتناسب مع الانماط الثقافية فى المجتمع بحيث انه من الضرورى أن تجرى عملية اختيار واعية لعدد من الاخباريين يكون مناسبا وممثلا للتباين فى مجتمع البحث ، فمن خلال الملاحظة بالمشاركة فان الباحث يلاحظ أى الناس يشارك أكثر فى الفعل ؟ وهؤلاء هم مصادر اكبر قدر من المعلومات الجديدة · فضلا عن أنه يتعرف على المكانة الخاصة للاخبارى فى السلوك الاجتماعى · ومن ثم يستطيع ان يقدر احتمالية تحريف اى اخبارى للمعلومات ليحافظ على احترامه لذاته او لاغراض أخرى · ان مشاهدة الباحث تجعله يصبح اقل تعرضا للتضليل بالتقارير المشوهة للمنتصرين أو للمنهزمين · فهو يستطيع أن يقابل الطرفين او يعين المشاهدين المحايدين للفعل ، ان الملاحظة بالمشاركة جوهرية لاختبار وتقييم الاخباريين · . .

٣ ـ استخدام المقابـــلة :

تلعب المقابلــة دورا هــاما فى البحث الانثروبولوجى ، ويحتــاج الانثروبولوجى بالطبع الى اجراء مقابلات مــع بعض ابنــاء المجتمع الذى يقوم بدراسته خاصة الاشخاص ذوى المكانة والتاثير الكبير فى نظم المجتمع المختلفة . وللباحث أن يستخدم المقابلة الموجهه او غير الموجهه واثناء المقابلة يطرح الباحث من التساؤلات مايمكنه من معرفــة الفرق بين ما يعتقده المجتمع ويراه مثاليا وبين ماهو واقعى بالفعل فى مختلف جوانب الحياة الهامة ففى العادة يوجد تناقض بين ما هو مثالى وماهو حقيقى (١) ، وقد ادرك الانثروبولوجيون الاختلاف من فترة طويلــة بين مايفعله الناس وما يقولونه (٢) وهنا فقد تمكن الانثروبولوجى من تسجيل مقابلاته على مافعل أوسكار لويس عندما سجل مقابلات مــع أعضاء الاسر الخمسة التى قام بدرستها وقد لايجد الباحث أن التسجيل متاحا . فيكتفى بالاحتفاظ ببعض الاجابات الهامة التى يحصل عليهــا فى ذهنه على أن يسجلها فيما بعد . وتلعب المقابلة دورا أساسيا عندمــا يراد جمع مادة مكثفة من اشخاص بعينهم فى المجتمع أو عنــد دراسة موضوعات معينة مثل نمو الشخصيـــة Personolity development سواء فى مجتمع محدد أو فى مجتمعات مختلفة أو الرغبة فى الحصول على سجلات دقيقة عن تعاقب أو توالى الانشطة حيث يستخدم هنا مايسمى Focal subject sampling وهــى الطريقــة التى تقتضى التركيز على فرد معين (٣) ، وينقلنا ذلك الى مدخل تاريخ الحياه ، وقصــه الحياه .

مدخـل تاريـــخ الحيــــاه :

قد يميل الباحث الى جمع مادة مكثفة من اشخاص ذوى فصاحــة طبيعية ولديهم حساسية فى تقديم البيانات الشخصية والثقافية وعــلى

---

(١) باودر ماكر .. مرجع سابق ص ١٥٠ .

2) Manique Borgerhoff .... op - cit, p. 329.

3) Monique Borgerhoff .... op-cit. P. 324.

ذلك ففى معظم الحالات فان تاريخ الحياة بوصفه مصدرا اساسيا للعلومات بالنسبة للحالات المدروسة يمثل الاشخاص غير العاديين فى المجتمع وعلى الرغم من تلك الحقيقة فان الطبيعة الشخصية لتاريخ الحياة تمثل تكاملا للمعلومات الثقافية له أهميته الكبيرة لفهم طرق الحياة الخاصة .

وتجمع مادة تاريخ الحياة عادة فى محاولة لربط تجريدات الوصف الاثنوجرافى بحياة الافراد فى المجتمع وهنا فقد اوضح جون دولارد انه يجب أن تكون عناصر السلوك المدروسة تاريخيا ذات دلالة اجتماعية ويجب الاهتمام بدور الاسرة فى نقل المعايير الثقافية خلال عملية التنشئة الاجتماعية ويجب الاهتمام بمراحل النمو المختلفة للحالة وابراز المواقف الاجتماعية فى كل مرحلة .

وهنا فان L.L. Langness قد درس استخدام تاريخ الحياة فى البحوث الانثروبولوجية كما درس مشكلات الترجمة والثقة والعينة Sampling وبالنسبة للاعتراض بأن بيانات تاريخ الحياة لايمكن اختبارها بواسطة الملاحظات الموضوعية للسلوك الحقيقى ، يجيب هو على ذلك بأن أحد الاهتمامات الرئيسية للبحث الانثروبولوجى هو تنميط معتقدات الناس وتصور الاحداث الماضية وليس مجرد البحث عن صدق أو كذب تلك التقارير ومن وجهة النظر هذه فان مادة تاريخ الحياة تكون اكثر فائدة لفحص أنماط القيم العامة وتصور العلاقات الاجتماعية والطبيعية اكثر مما تكون «تاريخا حقيقيا» . فهى تعكس تصورات الناس ومعتقداتهم واتجاهاتهم والتعرف على تلك الجوانب يعتبر هدفا هاما فى ذاته . وهناك دراسات انثروبولوجية عديدة فى هذا المجال وأحد الابحاث الطموحة التى تضمنت تاريخ الحياة هى دراسة Dora Du Bois بعنوان The People of Alor فقد جمعت تاريخ حياة ثمان شخصيات واستخدمت الاحلام واختبارات الروشاخ وغيرها من المواد السيكولوجية . وقد جمعت Du Bois تاريخ تلك الشخصيات

لتحليل الشخصية الالورية ، ان مشكلات التمثيلية ([1]) توجد فى كل الدراسات التى تتضمن تاريخ الحياة . والطريقة الوحيدة للتغلب على تلك المشكلات هى استخدام تاريخ الحياة كمادة تفسيرية وتصويرية مرتبطة بالانواع الاخرى من البيانات التى جمعت بطرق أخرى تتوفر فيها التمثيلية . كما يجب أن يتحرى الباحث الموضوعية بان يختار حالات نموذجية ممثله بحيث تكون الدراسة مفيدة فى التعميم .

ويرتبط بمدخل تاريخ الحياة مدخل آخر هو مدخل قصص الحياة .

مدخل قصة الحياة : lite story approach

وقد عرف البعض قصة الحياة على أنه منهج لجمع البيانات ([1]) ونعنى بقصة الحياة القصة الشفاهية المتعلقة بالسيرة الذاتية للمبحوث .

وهناك اتجاهان محددان فى مدخل قصص الحياة الآن :

الاتجاه الاول :

يركز على الرموز الاجتماعية والمعانى المرتبطة بها وفى ضوء هذا الاتجاه فان طريقة جمع وتحليل قصص الحياة تتمثل فى المقابلة الشفهية ، والتفسيرات الذاتية .

الاتجاه الثانى :

فانه ينظر الى من يتم مقابلتهم باعتبارهم اخباريين فى عملية الوصف الاثنوجرافى .

وقصص الحياة تستهدف عموما الحصول على وصف دقيق وصحيح

---

(١) المقصود بهذا المصطلح صحه تمثيل العينة لمجتمع البحث .

1) Daniel Bertaux, The life story approach; A continenal view, in Ann Rev, social, 1984. p. 215.

لمسارات حياة المبحوثين فى السياق الاجتماعى وذلك للكشف عن انمــاط العلاقات الاجتماعية والعمليات التى تشــكل هــذه العلاقات وبالطبــع تستخدم المقارنة استخداما واسعا فى هذا الصدد • ويستمر العمل بهذه الطريقة حتى يتم الوصول الى نقطة التشبع وهى النقطــة التى يتم عندها الحصول على قدر كاف من المعلومات تمكن الباحث الاجتماعى من الوصول الى نموذج يمكن تعميمه على الوسط الاجتماعى كله •

وقد تطور الاتجــاه الاول الآن بشــكل كبير فى المانيـــا والبــلاد الانجلو سكسونيه ، فى حين ان الاتجاه الثانى اكثر انتشارا فى أمريكــا والبلاد اللاتينية فى أوربا •

ومن المهم ان نؤكــد هنــا ان مدخل قصــة الحياة قــد اســتخدم استخدامات متعددة بحيث لانجد الآن منهجا مقننا لاستخدامه الآن • ولا نتوقــع ظهور مثل هذا المنهج قريبــا ، ونتوقــع استمرار طرقــا مختلفة فى جمع وتحليل ونشر قصص الحياة ، ومع ذلك فانه ينظر الى تاريخ الحياة الآن باعتبارها تربة خصبة لصياغة النظريات التفسيرية •

واستخــدام قصص الحيـــاة لايقتصر عـــلى عـلم الاجتمـــاع والانثروبولوجيا فقــط • بل اننا نجدهــا تستخدم فى مجالاللغويــات والتاريخ (التاريــخ الشفاهى) وعلــم النفس وفى الانثروبولوجيا فــان الانثروبولوجى يطلب من بعض المبحوثين ـ المسنين عــاده ان يلخصوا لهم ماضيهم ومثل هذه السيره الذاتية تاتى لنا باخبار عالم غامض لم توضحه الاثنوجرافيا او علم خصائص الشعوب توضيحا كافيا وهو فضلا عن ذلك عالم غير مترابط محكوم عليه فى الغالب بان يختفى غدا بوفاه آخر ممثليه وهذا هو مايعطى مزيدا من القيمة لهذه النصوص باعتبارها وثائق (٢) •

---

(٢) يانوس زافى : السيرة الذاتية البسيطة • مجلة ديوجين العدد ٧٤ ص ٤٧ •

قصص الحياة فى الانثروبولوجيا (١) :

هناك سجل طويل لمنهج قصص الحيـاة فى الانثروبولوجيا فقـد استخدمه لانجنز langness عام ١٩٥٥ ، كما استخدمة لانجنز وفرانك ١٩٨١ ، واستخدمه اوسكار لويس عام ١٩٦١ ثم سدنى منتز ١٩٦٠ • وقد كان لكتابات منتز تاثير كبير فى اثارة الاهتمام بقصص الحياة ، ومع ذلك ظهر اتجاه رأى أن قصص الحياة منهج لايساير الاتجاه العـلمى ، وقـد ادى ذلك الاتجـاه الى تراجـع اسـتخدامات هـذا المنهـــج فى الانثروبولوجية الفرنسية (وتعتبر دراسـة Mendelbaum عام ١٩٧٣ ، ودراسة Freeman ١٩٧٩ استثناء من هذا الموقف) رغم أن كلودليفى ستروس ـ وهو منشىء الاتجاه العلـمى فى الانثروبولوجيا ـ قـد عرف قصص الحياة فى عام ١٩٤٣ بقوله : انها تسمح للباحث بفهـم الثقافـة الاجنبية فى شكلها الكلى بدلا من الاقتصار عـلى رؤيتها على ـ انهـا مجموعة متنازعة من المعايير والقيم والادوار والشعائر .. الخ • ومعنى ذلك انه بالاضافة الى ماتهيئه قصص الحياة من اطر تحليلية تتضمـن جوانب منهجية مختلفـة ، فان قصص الحيـاة تتميز بقوة تركيبيـة Synthetic power فـاذا قرأ المرء لاحـد المشاهير سيره ذاتية لمجموعة مـن الاهالى فانه سيشعر أنها قد تضمنت كل شىء عنهم ، وبكلمات أخرى فانه بالاضافة الى التعبير عن كل خصائص ثقافة الاهالى • فان اجزاءها ـ اقسام هذه الثقافة ـ يمكن أن تستخلص وتجمع الى بعضها البعض لتصل فى النهاية الى الشكل الكلى للحياة فى المجتمع • وهذا هو ما يمثل الجانب التركيبى فى قصص الحياة •

ولكن يجب أن نؤكد هنا ان هـذا ـ التركيب ـ لايتاتى الا بعـد مرحلة التحليل المتانى •

ان خلف كل (قصة) سيره ذاتية تقراها عن جماعة من الاهـالى

---

1) Ibid. p. 231.

يوجد انثروبولوجى قام بتقصى الحقائق وعايشها وبحثها قبل ان تصل الينا ونقراها ـ اقرا مثلا هنا اوسكار لويس ، روفائيل صمويل ٠٠ او غيرهم ٠ ومعنى ذلك ان ما تتضمنه قصص الحياة من امكانية تركيبية تتحقق فقط من خلال المهارة التحليلية للباحث الانثروبولوجى ٠

المعاينة فى الدراسات الانثروبولوجية :

يلتزم الانثروبولوجى بالخطوط العريضة التى يقررها علم الاحصاء عند اختياره للعينة وفى نفس الوقت فهو يراعى ما يميز مجال بحثه من خصائص محدده ٠ ولعله من الافضل أن نذكر بشكل موجز للغاية الخطوات المقرره فى اختيار العينة بشكل عام ٠

خطوات اختيار العينـة :

١ ـ تحديد وحده العينة : تختلف وحده التحليل فى العينة من بحث لاخر ويعبر رجال الاحصاء عن هـذه القاعدة بأنه يجب تعيين الوحدة ٠ اى وحده الشىء المعدود او المطلوب جمع البيانات عنه تحديدا واضحا ويتم ذلك بتحديد الصفات التى يجب ان تتحقق فى كل وحده من الواحدات ٠

٢ ـ تحديد الاطار الذى تؤخذ منه العينة : اى تحديد مجال البحث ويشترط فى هذا الاطار ان يكون **كافيا** adequate يحتوى على جميع الفئات التى تدخل فى البحث ٠ كما يجب أن يكون الاطار **كاملا** بمعنى انه يجب ان يحتوى على جميع مفردات المجتمع الاصلى وبالاضافة الى ذلك فانه ينبغى أن تكون البيانات المتعلقة بكل وحدة دقيقة ٠

٣ ـ تحديد حجم العينة : ويتوقف ذلك على عدة اعتبارات منها
ـ **اعتبارات فنية :** مثل درجة التجانس او التباين فى وحدات المجتمع فهذا هو الذى يحدد حجم العينة ٠

ـ **اعتبارات غير فنية :** مثل الامكانات المتاحة للبحث والباحث ـ والوقت المتاح ٠٠٠ الخ ٠

٤ ـ تحديد طريقة اختيار العينة : تختلف انواع العينات باختلاف الطرق التى يتم اتباعها فى اختيار العينة • وعلى الباحث ان يفاضل بين هذه الطرق المختلفة لاختيار العينة التى تعطيه افضل النتائج والتى تقتضى اقل التكاليف فى نفس الوقت •

وقد حدد الباحثون مصادر الخطأ فى اختيار العينة فردوها الى احد امرين : الصدفة والتحيز •

والآن الى اى حد التزم الباحث الانثروبولوجى او حتى يستطيع ان يلتزم بالقواعد الفنية فى اختيار العينة ؟

لاشك ان البحث الانثروبولوجى بماله من ذاتية خاصة قد جعل الباحث يواجه الكثير من المشاكل عند التزامه بهذه القواعد وكان ذلك دافعا الى قيام الباحثين الانثروبولوجيين بالمواءمة بقدر الامكان بين التقيد بالخطوات والقواعد الفنية ومجال بحثهم بماله من ذاتية خاصة ولعله من المفيد ان تتابع هنا مشاكل المعاينة فى البحث الانثروبولوجى ونضرب الامثلة من خلال بحوث ودراسات انثروبولوجية محددة •

اولا : تحديد وحدة البحث :

ـ نحن نعلم ان وحدة التحليل فى البحث الانثروبولوجى هى «المجتمع المحلى» وكثيرا ما يجد الباحث صعوبة فى تحديد هذا المجتمع فبين شعوب شرق افريقيا على سبيل المثال نجد ان المساكن عبارة عن تجمعات منتشرة فى مساحات ممتدة وبشكل يجعل من الصعب تحديد المجتمع المحلى المراد دراسته خاصة وانه كثيرا ما تتداخل الجماعات البشرية فى حين انه فى مجتمعات اخرى (مجتمعات الاسكيمو المحلية ـ والجوار الحضرى) تتغير العضوية فى المجتمع المحلى لاعتمادها على الفرص الاقتصادية وتغيرات الاقامة الفصلية ، كذلك فانه عند اجراء البحوث الانثروبولوجية فى المدن قد يصعب تحديد حدود الجماعات

الفرعية مثل الجيوب العرقية لان ذلك قد يستدعى عمل احصاء شامل . ونفس الصعوبة قد تواجه دراسة الجماعات ذات الثقافة الفرعية من ساكنى المدن خاصة اذا كانت هذه الجماعات تسكن مناطق متباعدة ومتداخله مع أبناء المدن فى الوقت الذى يحتفظ فيه ابناءها بطابعهم الثقافى الخاص ويشير كل من سيرفس واندريه الى ذلك ضاربين المثال بما آل اليه الحال فى المجتمع الهندى حيث يقولان : « انه فى الجماعات الهندية التقليدية ـ مثل المجتمعات المحلية والمجتمعات القروية ـ كان من السهل نسبيا تحديد حدود تلك الجماعات ، اما اليوم فالوضع قد تغير نسبيا . فالحدود بين الجماعات قد زالت فهناك دائرة كبيرة من الاشخاص وهناك اختراق متزايد بين مختلف انساق الجماعات والطبقات والفئات وهذه العملية جعلت من الصعب تحديد وتعريف حدود تلك الجماعات (١) ولايستطيع الباحث عمل حصر للجماعة او للمجتمع ككل.

وازاء صعوبة تحديد المجتمع المحلى فانه كثيرا ما يلجأ الانثروبولوجيون الى تحديد المجتمع المحلى او تحديد مجال العينة بالنظر الى الملامح الايكولوجية الطبيعية مثل الانهار والادوية والمناطق الساحلية ، كما قد يضع الباحث معايير اخرى لتحديد المجتمع المحلى او الجماعة التى يقوم بدراستها فقد يضع المهنة او النشاط الذى يعتمد عليه افراد الجماعة فى معيشتهم ـ فنجد مثلا دراسة عن الحمالين ، واخرى عن الصيادين ، وثالثة عن المتسولين ورابعة عن عمال الشحن والتفريغ ، وقد يتخذ باحث آخر الهجرة كمعيار لتحديد الجماعة او المجتمع المحلى حيث تعددت البحوث الانثروبولوجية عن المهاجرين .. وهكذا يحاول الانثروبولوجيون التغلب على صعوبات تحديد المجتمع المحلى باتخاذ معايير مختلفة تساعدهم فى اضفاء الدقة والموضوعية فى دراساتهم .

---

1) N. Srinivos and André lieteille, Network in Indian sochial stru cture, in Man November - Decemben 1964. p. 230.

ثانيا : حجم العينـة ونوعهـا :

يجب على الباحث عند اختيار العينة اتخـاذ الاحتياطات التـى تكفل تمثيل العينة لمجتمع البحـث • وهنا فـان عليه أن يتخـذ مـن الاحتياطات مايكفل عدم التحيز فى اختيار مفردات العينة كما أن عليه مراعاة ان يكون حجم العينة ممثلا للمجتمع تمثيلا يتفق مـع المعايير الاحصائية المتعارف عليها حيث قدر البعض هذا الحجم بخمسة بالمائة على الاقل ويجب الاشارة هنا الى ان Good & Hatt قـد قدمـوا لنا صيغة محدده يستطيع الباحث الانثروبولوجى بها تقدير حجم العينة اللازمة لتحقيق مستوى الدقة والتمثيل المطلوب • ويوضح التراث أنه فى المجتمعات المحلية البسيطة كان من السهل على الباحثين الانثروبولوجيين القيام بعملية انثروبولوجية شائعة وذلك بعمل احصاء وتعداد للعائلات Census ويضم هذا التعداد (حجم العائلة ، مكوناتها ، حجـم الحيازة ـ الموجودات الاقتصادية الاخرى) •

الا أن الامر لم يكن دائما بهذه السهولة حيث كثيرا ما يواجه الباحث الانثروبولوجى بمجتمع كبير نسبيا وهنا فانه من الضرورى أن يلجـأ الانثروبولوجيون الى أخذ عينة من هذا المجتمع ، وحتى فى حالة امكان اجراء تعداد شامل لمفردات المجتمع • فقد يختـار الباحث عدد ممثـل من الوحدات لاجراء دراسة مركزه •

وهنا فـان استعراض التراث يوضـح أن الانثروبولوجيين قـد استخدموا أنواعا مختلفة من العينات فى ضوء تمايز المجتمعات موضـع الدراسة فقد قام مانتج ناش Maning Nash فى بحثـه عـن Machine Age Maye عـام ١٩٥٨ بعمل مقابلـة مع العمال والمزارعين واختار أخيرا عائلة من العمال فى مقابل عائلة من الفلاحين بحيث كانت تعميماته حول التفاعل فى الاسرة وانماط الانفاق والممارسات الدينية والخصائص الاخرى مبنية على الملاحظة ومقابلة عدد مختار من عائلات المجتمـع المحلى • واذا كان بعض الانثروبولوجيين يستخدمون معـايير حدسية

واجتهادية فى اختيــار العينــة فاننا نجد باحثا مثــل David Landy فى دراسته عن تنشئة الطفل فى قريــة مــن قرى بورتريكو عــام ١٩٦٥ يتخذ بعض الخطوات المنهجية فى سبيل اختيار عينة ممثلة حيث قــام بعمل تعداد شامل للعائلات بالمجتمع وتبين له ان اجمالى عدد العائلات ١١٣ عائلة ٠ وقام بجمع قدر كبير من المعلومات الاجتماعية والسيكلوجية والديموجرافية بهذا المجتمع ، وفى ضوء هذا التعداد وهذه المعلومــات قام باختيار (١٨) عائلة من الطبقات الدنيا للدراسة المركزه ٠

ولابد من الاشارة هنا ان اختيار مفردات العينة يجب ان تتم فى ضوء معايير محدده وان هذه المعايير يتم تحديدها على اساس اهميتهــا بالنسبة لموضوع البحث ٠ وارتباطها به ٠ فالمعايير التى وضعها دافيد تضمنت التمثيل الجغرافى والاهتمام بحجم وتكوين العائلة ، مهنة الاب، وغيرها من الجوانب التى لها اهميتها فى عمليات تنشئة الطفل ورغــم ان العينة العشوائية لها النصيب الاكبر فى معظم البحوث الانثروبولوجية ورغم انه نادرا ماتم استخدام جداول الارقام العشوائية ٠ الا ان متابعة التراث توضح استخدام الانثروبولوجيين لانــواع مختلفة من العينــات فى دراستهم ونوضح ذلك بايجاز من خلال الامثلة التالية ٠

العينــة الطبقيــة : Stratified Samples

يستخدم الانثروبولوجيون العينة الطبقية فى تلك المجتمعات التــى تضم جماعات ثانوية مهمة مثــل الطوائــف والطبقــات الاجتماعيـــة والجماعات العرقية ومن امثلة الدراســات الانثروبولوجية التى اخذت بالعينة الطبقية دراسة ثيودور جرافس ، ريتشارو جيسر فى الدراسة التى اجرياها تحت اسم The Tri - Ethnic Research Project فى احدى مدن الجنوب الغربى بالولايات المتحدة بعد ان تبين لهــم ان سكان هذه المدينة نصفهم من الانجلو امريكان وثلث سكانها امريكى من اصل اسبانى والسدس هندى ٠ ولاشك ان استخدام العينة والطبقة امر له اهميته لان الجماعات الفرعية والطبقية لها اهميتها فى المجتمع حتى

ولو كانت اغراض البحث لاتركز اصلا على الاختلاف بين المجموعات الفرعية للسكان ولذلك فانه فى دراسات عديدة نجد على سبيل المثال انه من المهم تقسيم العينة حسب الجنس وحسب فئات العمر وذلك لضمان التمثيل الامثل فى العينة .

العينة العنقودية فى الدراسات الانثروبولوجية : Cluster Probability Samples

يشار الى العينة العنقودية على انها تكنيك تطبيقى يساعد فى اختيار العينة الممثلة ، وقد اشار بارثاما جمدار اليها بقوله : «ان التحليلات العنقودية تمثل اسلوب احصائى يقوم على ترتيب المفردات - او النقط - فى شكل مجموعات يسمى كل منها «عنقود Cluster بحيث ان مجموعة المفردات التى تتبع العنقود الواحد ترتبط ببعضها فى خاصية محدده او على اساس استخدام مؤشرات معينة . وتختلف او تبعد عن تلك المفردات التى تنتمى الى عنقود اخر بالنسبة لنفس المؤشرات او الخصائص - ولتحقيق ذلك يلزم قياس المسافات بين كل زوجين من النقط . وفى دراسة بارثا كانت المفردات او النقط هى الجماعات المكونة لسكان الهند وقد قيست المسافة بين كل زوجين من هذه النقاط بمعيار تكرارات توزيع مجموعة محددة من مجموعات الدم » (١) .

ويتضمن تكنيك العينة العنقودية تقسيم السكان الى وحدات جغرافية متساوية (مقاطعات - مناطق جيره - بلوكات ... وهكذا) وتقصد بهذا النوع من العينة الحفاظ على معايير العشوائية دون اللجوء الى عد كل فرد فى المجتمع مقدما ... ويتناسب استخدام هذا النوع من العينة مع خصائص بعض المجتمعات . فعلى سبيل المثال الفلاحين

---

1) Partha Majumdar and J Roy, Distrbution of ABO blood groups on the Indian subocontlinent : A cluster - Analytic approach, in Current antropology, vol 23 N. (5) October, 1982 p. 539.

المكسيكين فى Municipia فهناك يمكن تقسيم المجتمع الى سلسلة من الجماعات العرقية واختيار قسم معين من كل وحدة فرعية عشوائيا ويمكن ان يكون هناك داخل كل وحده مختاره اقسام فرعية اخرى . ويتم اختيار الوحدات كلها عشوائيا . ولكن يجب ملاحظة ان الاختيار العشوائى للمجتمعات الجزئية الصغيرة (فى المجتمع المكسيكى مثلا) قد يؤدى الى استبعاد الاثرياء جميعا او اى جماعة فرعية اخرى لها اهميتها . ومن هنا يجب عند استخدام هذا النوع من العينة القيام بمسح اثنوجرافى تمهيدى للوحدات المحددة جغرافيا وذلك قبل الحصول على عينة عنقودية .

العينة المختارة بطريقة الحصة : Quta Samples

ثمة ابحاث مسحية معقدة اجريت بالولايات المتحدة . اعتمدت على اختيار ليس عشوائى بالكامل للعينة.وعلى سبيل المثال فان معظم استقصاءات الراى العام لا تبنى على بيانات احتمالية محددة ولكنها تبنى على مايسمى بالعينة بطريقة الحصة وعند اختيار العينة بطريقة الحصة لابد من التاكد من ان بعض الخصائص الهامة فى مجتمع البحث مثل - السن ، المهنة - الجماعات العرقية - مستويات الرجل - سنوات الدراسة وهكذا ممثلةفىالعينة المختارة وبذلك تكون ممثلة للمجتمع فىكلالخصائص وعند مراجعة العينة يجب ان يتاكد الباحث ان كل جزء من الفئة العمرية او مجموعة الخصائص الاخرى ممثلة واذا اكتشف ان هناك نقص فى تمثيل خاصية من خصائص المجتمع عاد الى المجتمع لاستكمالها . فعلى سبيل المثال اذا اكتشف انه ليس هناك تمثيل كاف للعمال فى العينة فانه يجب تصحيح هذا النقص Carrect shortcoming

- واخيرا يجب ان نوضح حقيقة هامة . فاستخدام التكميم فى غير ما حاجه وفى غير مكانه ضار بالبحث وليس مفيدا له .

1) Ibid, p. 236.

ـ والتكميم بدون تصور واضح للمجتمع محل البحث وبدون الاختيار الواعى للعينة الممثلة للمجتمع وبدون التزام الخطوات والاجراءات المنهجية الصحيحة يؤدى الى الخطأ والغموض ٠ ومن هنا فانه من الواضح ان الاحتياطات المنهجية اللازمة لاختيار الغينة الممثلة تتطلب القيام بالبحث الميدانى فالملاحظة بالمشاركة ، واجراء المقابلة ـ والابحاث الكمية ككل يعطينا الواقعية والحقيقة ويكسب البحث معنى صحيح ٠

صعوبات ومعوقات تواجه البحث الانثروبولوجى :

يواجه البحث الانثروبولوجى حاليا صعوبات ومعوقات عديدة يمكن الاشارة اليها تحت المقولات التالية :

١ ـ صعوبات ترتبط بالاختفاء التدريجى للمجال التقليدى للبحث الانثروبولوجى .

٢ ـ صعوبات ترتبط بطبيعة المنهج الانثروبولوجى ومقتضياته .

٣ ـ صعوبات ترتبط بشخصية الباحث نفسه .

ونتناول هذه الصعوبات والمعوقات بايجاز على النحو التالى :

١ ـ الصعوبات ترتبط بالاختفاء التدريجى للمجال التقليدى للبحث الانثروبولوجى :

يشير كلودليفى ستروس الى هذه النقطة عندما يعالج « مستقبل الانثروبولوجيا » فيقول : من الناس من يعتقد ان الانثروبولوجيا مقضى عليها بالاندثار مع مادتها التقليدية التى تتناولها بالدراسة وهى الشعوب البدائية ، ولكى تظل الانثروبولوجيا على قيد الحياة ، فمن المفروض عليها ان تتخلى عن بحثها الاساسى وتكرس نفسها لمشكلات الدول النامية من جهة والى الظواهر المرضية التى من الممكن ملاحظتها فى مجتمعاتنا من جهة اخرى وعلى ذلك برزت الى الوجود الانثروبولوجيا التطبيقية ، بجانب انه مازالت هناك مهام هائلة يجب ان تؤدى فى المجال الكلاسيكى للانثروبولوجيا فمازال هناك فى افريقيا واندونيسيا وماليزيا وامريكا الجنوبية واماكن اخرى عدد كبير من المجتمعات الاصلية لم تدرس اطلاقا وان درست فانما دراسة غير ملائمة. ومع ذلك فلا يجب ان نقلل من الانقراض السريع المفزع لما يسمى بالشعوب البدائية فى جميع انحاء العالم ، بالاضافة الى الانقراض

الطبيعى الذى يتهدد المجموعات التى شكلت المجال الاساسى للبحث الانثروبولوجى • فثمة خطر اخر يواجه البحث الانثروبولوجى يتمثل فى ان بعض الشعوب فى افريقيا وجنوب آسيا وامريكا اللاتينية كانت تتمتع دائما بكثافة سكانية مطلقة • وهذه الكثافة تتزايد الان وهؤلاء السكان قد تجاوزوا مدى دراسة الانثروبولوجيا لا بسبب انها قد اختفت بل بسبب انها قد تغيرت فحضارتهم تتطور بسرعة فى اتجاه النماذج الغربية ، تلك النماذج التى لاتتعلق بها الوسائل الانثروبولوجية ، علاوة على ذلك فانه عند نيل معظم الشعوب استقلالها عقب الحرب العالمية الثانية • بدأ اتجاه عدائى من جانب هذه الشعوب فى مواجهة الانثروبولوجيين حيث بدأت هذه الشعوب أو صفوتهم يعتبرون تقاليدهم القديمة وعقائدهم علامه من علامات التاخر الحضارى التى يرغبون فى تحرير انفسهم منه بأسرع ما يمكن ومن ثم فهم يوجهون اللوم للانثروبولوجيين لاهتمامهم بهذه العادات واضفاء قيمة واهمية عليها فيم يحاولون هم أن ينقصوا من قدرها •لذلك تواجه الانثروبولوجيا التقليدية معارضة فى اجزاء متعددة من افريقيا وآسيا ([1]) وليس من شك أن هذا قد قلل من مجال البحث الانثروبولوجى بشكل كبير وشكل صعوبة ومعوق كبير امام الباحثين الانثروبولوجيين فى قيامهم بأداء ادوارهم ••

٢ ـ صعوبات ترتبط بطبيعة المنهج الانثروبولوجى :

وتتمثل هذه الصعوبات فيما يواجهه الباحث الانثروبولوجى فى الميدان او فى مجال عمله الحقلى •

والآن ماهى الصعوبات التى يواجهها الباحث الانثروبولوجى فى مجال عمله ؟الواقع انه يواجه الكثير من الصعوبات، ومن ذلك ما يرتبط بالمنهج الانثروبولوجى نفسه وما يقتضيه من اقامه فى منطقة او مجتمع البحث (بما قد يوجد به من حيوانات ومستنقعات وأمراض فتاكه ، وبيئات

---

(١) كلودليفى ستروس ••• «الانثروبولوجيا» مرجع سابق ص ٧١ •

مغايرة تماما عما اعتاده الباحث) لمدة لاتقل عن سنة كاملـة وضرورة تعلم لغة الاهالى عندما تختلف عن لغة الباحث وغير ذلك ٠ وقد ذهب الكثير من الرحالة الاول ضحايا ومنهم مانجو بارك الذى قتل بالنيجر ، وهيوكلا برتون وغيرهم ٠ وآخر الانثروبولوجيين من الضحايا احد افراد عائلة روكفلر الامريكية حيث التهمته أحد القبائل فى جيانا ونشرت مجلة لايف صورة له قبل قتله والتهامه مع افراد هذه القبيلة ٠

ولا نجد ضرورة لتناول هذه الصعوبات تفصيليا لاننـا نعتقد أن كل بحث قد يتميز ببروز وصعوبات محددة قد لاتوجد فى غـيره وان كان ثمة صعوبات عامة ومتفق عليها ٠ ونكتفى هنا بأن نسوق ما يشير اليه اميل دوركيم ومارسيل موس فى هذا الصدد ـ اقصد بذلك الصعوبات التى يواجهها الباحث (وهو ما نعتقد انه يرتبط بجانب واحد مـن صعوبات البحث الانثروبولوجى وهـى حالة اختلاف بيئة الباحث عن مجتمع البحث وضرورة تعلمه لغتهم) ٠ يقول دوركيم وموس :

« عندما تجرى عملية جراحية لشخص اعمى منذ ولادته ويرجـع له البصر فانه لايرى مباشرة العالم الغريب الذى نقبله على انه عـالم عادى ٠٠٠

فبدلا من ذلك فانه يصاب بتشوش اليم للاشكال والالـوان وباختلاط واضح للانطباعات المرئية التى لايبدو أن احداها تحمل اى علاقة مفهومة بغيرها ، وهو لايتمكن الا ببطء شديد وبمجهود شاق ان يدرك ان هـذا الاختلاط يدل فى الحقيقة على نظام ، كمـا انه لايتعلم الا بالتطبيـق والتجريب ويصنف الاشياء وأن يكتسب معانى المصطلحات المتداولة مثل (فضاء) و (شكل) وغير ذلك ٠

وعندما يبدأ الاثنوجرافى فى دراسته لافراد مجتمع غريب ، فانـه يجد نفسه فى وضع يماثل هذا الاعمـى الذى ابصر فجاة ويمكن لهـذا الباحث عندئذ ان يوصف بدون تجنى بأنه اعمى ثقافيا ، ذلك انه يواجه

خليطا من الانطباعات الخارجية المتناقضة ، والتناقض بين هذه الانطباعات وعادات مجتمعه يمكن ان يشكل له هزة يمكن ان تحدث شعورا بالصدمة . ويتمكن باشق المجهودات من ادراك شيء عن كيفية رؤية الافراد - الذين يحاول أن يفهمهم - لانفسهم والعالم الذى يعيشون فيه ، ولايتمكن من الانتقال الى الفحوص والاستفسارات الفنية المتعلقة بموضوعة الاكاديمى الا بعد الانتهاء من ذلك .

وقد عبر (ايفانز بريتشارد) عن هذا قائلا : « ان كل باحث ميدانى ذى خبرة يعلم ان اصعب واجب فى العمل الميدانى بالانثروبولوجيا الاجتماعية هو تحديد معانى كلمات قليلة بالاضافة الى فهم يترتب عليه نجاح البحث باكمله » (١) .

عندما يزور الاثنوجرافى افرادا غرباء فانه يكون لديه بعض التصورات مثل : (الله) (قوة) ، (عائلة) ، (هدية) الى آخره وكيفما كان استعداده المهنى فانه سيميل فى البداية الى بحث وتحقيق ما تدل عليه ثقافته الشخصية بهذه الكلمات وان يفسر أحوال الافراد بتعبيراتهم. لكنه يتعلم بالتدريج ان يرى العالم كما يتصوره هؤلاء الافراد لكى يقترب من طبيعتهم المميزة ويجب عليه أن يترك التفرقة بين ماهو طبيعى وماهو خارق للطبيعة ، وبين الجنس البشرى والحيوانات وغير ذلك من مدركاته الشخصية . ويعلق دوركيم على ذلك بقوله أن معرفة الباحث بلغة الاهالى تعلمه وتجعله يفعل ذلك فى حياته العملية (٢) .

---

1) Elivlh Hatch, op - cit. p (1)
2) Durkheim & Mouss, Primitive classification, Translated by Ronald Medham, Colier west, london, 1963., (VII).

٣ ـ صعوبات ترتبط بشخصية الباحث ذاتـه :

هناك نوعان من الصعوبات ترتبط بشخصية الباحث تعترض البحث الانثروبولوجى واول هذه الصعوبات ـ نبع من ذات الباحث واعنى به التحيز وعدم تحرى الموضوعية . اما النوع الثانى من الصعوبات التـى ترتبط بشخصية الباحث فتتمثل فيما يواجهه الباحث باعتباره باحـث اجنبى أو باحث محلى ، وهنا فقد كشفت الدراسات ان الباحث الاجنبى يعانى عادة من مشاكل ترتبط بالاوضاع السياسية والاجتماعية ، ومـن الغريب أن يكشـف مؤتمـر عـن المشاكـل التـى تواجههـا البحـوث الانثروبولوجية فى امريكا اللاتينية عن أن المصاعـب التى يعانى منهـا الباحث الزائر تعتبر قليلة اذا ما قورنت بتلك التى يواجههـا الباحث المحلى (١) .وقد تبين مثلا ان عدم الاستقرار فى امريكا الوسطى يجعل من الخطر القيام بأجراء دراسة ميدانية سواء كان القائم بهـذا البحث باحثا اجنبيا او محليا ، ويشكل ما يسمى الآن بتسييس العلوم الاجتماعية عقبة كبيرة أمام الباحث الانثروبولوجى ، حيث تطلب بعض البلاد من الباحث الانثروبولوجى أن يعبر بحثه أساسا عن الولاء السياسى (١) ، وليس من السهل عموما أن يكون الباحث موضوعيا فيما يتعلق بالمسائل التى تهدد وتشـوه الالتزامات السياسيـة أو غيرهـا مـن الالتزامـات الاجتماعية (٢) ، وعموما فانه بطريقة مباشرة أو غـير مباشرة يتأثر الانثروبولوجى بالجـو العـلمى العام ، كمـا أوضحـت الدراسـات الانثروبولوجيـة ان هنـاك مشكلـة أخرى تحـد من كفـاءة الباحـث الانثروبولوجى .. حيث تبين « أن الظروف قد تفقد الانثروبولوجيين قدرتهم تماما لعى الحركة بحيث يصبح اى تدخل منهم ضارا جدا بعملهم كانثروبولوجيين فمثلا عندما تتوزع الجماعات المحلية فى مناطق محددة لكل منها وعلى أساس امنى يصبح الانثروبولوجيون غير مرغوب فيهم

---

1) Luise Margolies, op - cit p. 451.

(٢) باودر ماكر .. مرجع سابق ص ١٥٥ .

سواء المحلى منهم أو الاجنبى الذى اتهم دائما بأنه نصيرا للاستعمار (١)

اعتبارات يجب أن يراعها الباحث الانثروبولوجى :

ثمة اعتبارات عديدة يجب على الباحث الانثروبولوجى مراعاتها اثناء بحثه وعند كتابه تقريره ومن مراجعة التراث يمكن استخلاص هذه الاعتبارات وعرضها على النحو التالى :

١ - مراعاة مستوى المبحوثين واتجاهاتهم وظروفهم المتغيرة :

فعند دراسة الشعوب البدائية مثلا فان صيغة السؤال المباشر الذى يتطلب اجابات مباشرة لم يكن شيئا ملائما لان البدائيين لايملكون تصورات محدده عن اغراض حياتهم ومطالبهم وهم كذلك لايستطيعون تفسير دوافعهم بسهولة وهم أيضا يميلون الى الاعتقاد بأن مخاطبهم شخص ساذج اذا قام بتوجيه أسئلة ساذجة عن الاشياء التى يعرفها كل فرد بالقبيلة . والباحث الحقلى يتعامل مع اناس غاية فى الصدق والاستقامة وفضلا عن ذلك فانه يجب عليه أن يهتم بتحديد واعادة ضبط معلوماته عند كل نقطة . ذلك لان العرف البدائى يمكن أن يشجع على الادلاء باجابات غريبة جدا لايعتمد عليها ، على سبيل المثال : فان المخبر يمكن ان يعتبر ان من الادب ان يجيب ليس بالصدق والحق ولكن بالطريقة التى يتصور فيها ان السائل يريده أن يجيب وهذا السلوك المالوف للبدائى يكون من وجهة نظر الباحث ازعاج ومضايقة عن كونه أدب وذوق ، وكذلك فان المبحوث يمكن أن يعتقد انه من سوء الخلق أن يجيب على السؤال اذا ما اعتقد بأن السائل نفسه لايعرف الاجابة وهو أيضا يمكن أن يرفض الاجابة فى وجود رئيسه أو وجود شيخ كبير السن . ومن المعروف ان الباحثين قد ابتكروا الكثير من الحيل ليتمكنوا من

---

1) Juise Margolies, op-cit., P. 451.

الحصول على استجابات من البدائيين ، وقد كانت من الحيل الفعالة دائما عند بداية البحث ، الحديث عن الاسلحة البدائية والمعدات مع اصحابها وبما أن الفخر والزهو بالصناعة شعور عام كذلك ايضا الشعور بالبهجة عند توضيح أو تفسير كيفية عمل المعدات والابتكارات الجديدة. فقد كان الباحث يتلقى استجابات طيبة . وايضا حيلة اخرى ادخلها (ريفرز) وهى أن يستميل الشخص المبحوث الى الحديث عن عائلته ثم يعد مسودة أو رسم تخطيطى يبين أصول وفروع العائلة ، ويكرر الباحث هذه العملية مع بعض المبحوثين الاخرين . ومن شجرة العائلة يمكن للباحث أن يتوصل الى الكثير من المعلومات عن النظام الاجتماعى ويمكن للباحث تدعيم هذه المعلومات بالمناقشة مع اشخاص آخرين عديدين من العائلة الواحدة . وقد سميت هذه الطريقة بالطريقة الجينالوجية .

٢ ـ مراعاة ما يطرأ على المجتمعات البشرية من تغير دائم :

وعلى الانثروبولوجى ايضا أن يتذكر دائما ان المجتمع الذى يبحثه يعيش فى مرحلة تغير دائم حتى المجتمعات البدائية التى تتمسك بتلك العادات والتقاليد التى ترى انها اساس وجودها . ولعل هذه النقطة تنقلنا الى موضوع اثر تغير المجتمعات البدائية والتقليدية وعلاقة ذلك بالبحث الانثروبولوجى وموقف الباحث الانثروبولوجى .

المجتمعات البدائية وان كانت لاتظهر استجابة للتغيرات السريعة ، فليس معنى ذلك انها متجمدة أو لاتتغير على الاطلاق . فضلا عن المجتمعات المتقدمة . فالعالم كله فى الواقع يعيش الآن فى عصر غير عادى اذا قورن بتاريخ العصور الماضية . ومن الافضل ان نقول انه خلال المائة سنة الماضية قد ادى تعقد المجتمع الغربى مثلا الى احداث تغييرات كبيرة جوهرية تقع بين كل عقد والذى يليه (والعقد عشر سنوات) اكثر من التغيرات بين القرن والقرن فى الزمن الماضى ، ونحن فى حاجة الى

المقارنة بين المصرى مثلا فى عام ١٩١٠ والمصرى فى عام ١٩٢٠ أو ١٩٥٠، وقد وصلنا الآن الى مرحلة اخرى حيث ازداد الاحتكاك والاتصال بين الثقافات المختلفة والمجتمعات المختلفة وليس هناك قارة لم تتأثر او تخضع لتأثير التكنولوجيا والنتيجة هى أن الباحث الانثروبولوجى الحقلى لديه الآن فرص قليلة لدراسة المجتمعات الاصلية وهى فى صورتها المنعزلة الخالصة • وعبر التاريخ نجد أن المجتمعات المنعزلة خضعت لضغوط جعلتها فى النهاية تغير نظمها بسرعة وبطريقة تحكمية والقليل من السكان مع ذلك يعيش فى منطقة منعزلة تماما وكانوا يستجيبون بشكل بطىء لعمليات الاختراع والانتشار وفى القرن العشرين فان كل الثقافات الاصلية تقريبا دخلت فى عمليات اتصال مع ثقافات وحضارات اخرى مما عمل على انتهاء العزلة وخلال مرحلة سيطرة البيض فى القرنين ١٧، ١٨ وأوائل القرن ١٩ كان من الممكن بالنسبة للجماعات المحلية أن تهرب من البيض أو تتكيف معهم فى مجال الثقافة وكانوا قادرين على تنظيم أنفسهم لكى يحاربوا البيض ونجد أن ثقافاتهم فى عدة نواحى قد حققت بعض النجاح ولكن هذه المرحلة قد انتهت الآن وفى الوقت الحالى نجد ان تقدم حركة التصنيع فى الغرب كان لها آثارا كبيرة فى المستعمرات التابعة للدول الاوربية والمناطق المتاخمة لها وبدأت عملية تكيف ثقافى لم يسبق لها مثيل فى السنوات الاخيرة فى السرعة حتى أنه (اى التكيف الثقافى) احدث تغييرات شاملة وغير عادية فى الاوضاع السائدة من وجهة نظر الانثروبولوجيا •

والسمة التى كانت تحتاج الى قرون لانتشارها نجد أنها الآن تنتشر فى عدة اسابيع ، وفى كل مكان نجد أن الثقافات الاصلية تتعرض للتدمير أو التعديل • والباحث الانثروبولوجى الحديث يجد أنه لايقوم بعملية مسح بهدف ادخال اصلاحات بل أنه يسجل بهذا المسح موت أو نهاية المجتمع الاصلى ، ويلاحظ أيضا المراحل النهائية للمجتمع الاصلى قبل ان يختفى ومن المؤلم بالنسبة له أن يشهد نمط الحياة وهو ينتهى بسرعة وهو نمط لايخلو من الحكمه • وخلال القرن الماضى كان السكان

الاصليون فى العالم ضحايا للتفكك والتمزق وحالة الهنود الحمر فى شمال امريكا تعتبر مثالا لانقراض وازالة السكان الاصليين ، ومن الامثلة على ذلك القبائل الهندية الشجاعة فى شمال امريكا وهذه التى لم يعد لهـا وجود ، والانثروبولوجيون المخلصون الذيـن تنقلوا فيما بينهـم خلال نصف القرن الماضى وجدوهم فى عالم ملىء بالحطام وظلال الاشجار وقد احتج الهنود على الشروط المجحفة التى كانوا يخضعون لها عند الهزيمة ومنذ قرن مضى كان من الممكن لقبيلة أن تحارب قبيلة أخرى أو يقوم كلاهما بالهجوم على مستوطنه الرجل الابيض دون أن تحدث آثار هامة فى حضارة البيض أو الهنود وكنتيجة للتوسع الغربى سوف نجد ان ثقافة الهنود وحضارتهم قد تعرضت للزوال وقد تجمعت البقية الباقية مـن رجال القبائل فى مناطق قاحلة ، وكان هؤلاء الناس يعيشون على هبات وعطايا الغزاة الغربيون الذين كانوا يقللون هباتهـم حتى أن الهنود تعرضوا لمجاعات افنت الكثير منهم وصودرت ممتلكاتهم ، وها هو رجل بوليس امريكى يكتب فى عام ١٩٣٥ قائلا : ان ممتلكات الهنود يجب أن تصادر لحساب البيض . وأن التنظيم الهندى يجب ايقافه وأن العائلة الهندية يجب أن تكون مفككة فى حياتها والثقافات الهندية يجب قتلهـا وتدميرها وأن الهنود يجب أن يموتوا ، اما السياسة الحالية فتتمثل فى أن التنظيم الهندى يجب تشجيعه ومساعدته ، وان العائلة الهندية يجب تدعيمها واحترامها وأن الممتلكات الهندية يجب عدم نقلها للبيض وأن الثقافة الهندية التى اسماها البيض بثقافة العجز يجب تقديرها وتقييمها وادخالها فى مجرى الثقافة الامريكية ككل .

وفى المتحف الوطنى فى ويلز نجـد أنه توجـد من بين الاشيـاء المعروضة هناك قطعـة خشبيـة صغـيرة فى نهايتهـا خيـط سميك وفى السبعينات والثمانينات كانت هذه القطعة الخشبية الصغيرة تستخدم فى مدارس ويلز حيث كان يتم تعليقها حول رقبة أى طفل فى الفصل يتم ضبطة وهو يتحدث لغة ويلز . وفى نهاية اليوم فان الطفل الذى كان يرتدى هذه الخشبة الصغيرة التى يتم تعليقها فى عنقة يوضع فى مجلس . فهـذه

الخشبة كانت رمزا للمحاولات المنظمة لقمع انتشار هذه اللغة الحية وهى لغة ويلز .

ومثل هذه المحاولات كانت تحدث فى كل المستعمرات الصغيرة فى العالم بغض النظر عن انتماء المستعمر لبلد معين . ولقد استخدمت اساليب عديدة فى هذا الشان منها النفى والطرد واجراءات الابادة الجماعية والتكليف باعمال اصلاح الطرق وبناء السكك الحديدية والعمل فى الغابات (١) .

وقد كان لهذه التغيرات الكثير من النتائج الضارة ذلك ان اتصال الاشخاص البيض بالوطنيين كان سببا فى افساد الاخلاق لدى الوطنيين. ومن الملاحظ ايضا ان آثار الاتصال الثقافى بين الاوربيين ذوى التكنولوجيا المتطورة والوطنيين ذوى التكنولوجيا البدائية تأخذ شكلا خطيرا فاذا تعرضت ثقافة الوطنى للضغط فان اسسها بالتالى سوف تتعرض للتقويض ومن ثم يصاب البدائى بالاضطراب ويشعر بضياع كامل ولايستطيع ان يكتشف سبب المتاعب ويعالجه كما ان الوطنى يشعر بالرهبة والخوف تجاه تكنولوجيا الرجل الابيض ويفقد الثقة فى نمط حياته واذا كان كبيرا او هرما فسوف يصاب بالكآبة واذا كان صغيرا سوف يفقد احترامه تجاه الكبار الذين لايستطيعون القتال او التوصل لاتفاق مع القادمين من الاوربيين . فهو يرى انه لاتوجد فعالية للطقوس او التقاليد السحرية التى كان يتمسك بها فالرجل الابيض اقوى بكثير والمواطن الاصلى ليس لديه حل سوى الاعتراف بهذه القوة وتأخذ النظم القبلية فى التفكك واذا ذهب الى العمل لدى الرجل الابيض فان علاقته بقبيلته وعائلته تتمزق وتنتهى ، وعملية التفكك ربما تكون

---

(١) يوجد العديد من الاشارات الى مثل هذه الاساليب بكتاب Manchip & white مرجع سابق . ويمكن للمستزيد أن يرجع الى هذا الكتاب ص ١٦٣ - ١٩٠ .

مصحوبة بعدد من العقوبات أو القصاص ، وكل هـذا له آثار مدمـرة بالنسبة لبناء الثقافة المحلية ، وبالاضافة الى الاثر الخطير على الحالـة الصحية للاهالى حيث ان هناك الامراض التى جلبها البيض والتى كان لها آثار مدمرة وشديدة عند ادخالها فى المجتمعات المحلية وهذه الامراض تشمل السل الرئوى والامراض التناسلية كالزهرى والسيلان وغيرها (١) وثمة نتائج اخرى احدثتها محاولة تغيير الثقافـة الاصلية ذلك ان كـل سمات الثقافة المحلية كانت تعتمد على بعضها البعض وهـذه النقطة تعنى ان كل سمة فى الثقافة كانت تؤدى غرضا او وظيفة محددة وكـل سمة لها أهمية وظيفية . ولقد ذكرنا ان ادخال فؤوس الحرث الحديدية الى السكان المحليين كان له آثار بعيدة المدى لايمكن تقديرها بسهولة ، وعندما كان الموظفون البيض او المستوطنون يعملون على ازالة مجموعة من السمات الثقافية المحلية فانهم بذلك كانوا فى الواقع يلغون وجـود هذه الثقافة ، ومن ذلك مثلا محاولة البيض ايقاف الحروب المحلية بين الاهالى ، فهذه الحروب فى بعض الاحيان هى عمليات للرفاهية الروحية للقبيلة فهى تدعم الشعور بشخصية الفرد كما تدعم الاحساس بالانتمـاء الى الجماعة والقليل من المقاتلين يلقى مصرعه من الجانبين والخسائـر الشكلية يتم تعويضها بالثقـة فى ان الحمـاس يملأ صدور المشتركين فى القتال وان على المشتركين ان يواجهوا التحدى الشرس فى بيئتهم ونفس الشىء يحدث فى الصيد والقنص الذى يرتبـط بعـادات الزواج وربما يندهش الاوربى حين يجد أن الغاء الصيد والقنص سوف يدفع المقبلين على الزواج من السكان الاصليين الى الامتناع عن البحث عن العرائس، وانهم سوف يشعرون بالخجل عندما يذهبون لنسائهم بأياد خاوية وبدون الحصول على جمجمة احد اعدائه من الحيوان والقرار الذى ينص على منع قتل نوع معين من الطيور أو الحيوانات ربما يكون له آثار ضارة

---

(١) على محمود اسلام الفار : الانثروبولوجيا الاجتماعية ـ الشركـة القومية للتوزيع القاهرة ١٩٦٨ ص ٤٠ .

ايضا على القبيلة فى مجال الطعام ويؤدى الى الاخلال بتوازن القبيلة فى هذا المجال او القرار الذى ينص على عدم قتل الاطفال ربما يثير مشكلات لاتحتمل بالنسبة للجماعة الكبيرة فى مجال حياتها واضافة الاخلاقيات الاوربية او التكنولوجية للثقافة المحلية يمكن ان تكون خطيرة مثل تجريد الثقافة المحلية من عناصرها واستبدال عصا الحفر بالمحراث الحديدى يمكن ان يقلب النمط الكلى للزراعة المحلية راسا على عقب .

والاقتصاد المحلى يرتبط نتيجة لذلك بسياسة معينة وادخال الاجهزة التى توفر او تقلل من الاعتماد على الايدى العاملة ربما تكون لعنة وليست بركة او منفعة فمثل هذه الاجهزة تؤدى الى سرعة العمليات الاقتصادية البدائية بدرجة كبيرة مما يؤدى بالتالى الى هدمها بشكل حتمى فهذه الاجهزة تجعل فى الامكان تخطى او تجاهل المراحل الوسيطة فى هذه العمليات او ربما تؤدى هذه الاجهزة الى الاستغناء عن بعض عناصر الصناعة البدائية وفى جميع الحالات تحدث نفس النتيجة . وانماط الحياة التى كانت تملؤها المهمات الجذابة قد اصبحت الآن بدون معنى وقد دخل الشيطان مع دخول الاساليب التكنولوجية المتطورة التى تتمثل فى انتشار استخدام الاسلحة النارية بين السكان الاصليين وتطبيق السمة الواحدة او العنصر الواحد مثل استخدام البندقية ربما يكون له آثار خطيرة مثل استخدام الفاس الحديدى والمحراث الحديدى وكان مقدرا فى عام ١٩٥٢ انه يوجد عدد يتراوح بين ٤٠ الف و ٥٠ الف بندقية فى ايدى الوطنيين الافريقيين وهذه البنادق يتم حشوها من الفوهة ورغم انها كانت من طراز قديم فقد مكنت الافريقيون من قتل الحيوانات المفترسة والحصول على الطعام كان شاقا باستخدام الاسلحة البدائية ولذلك فلا عجب اذن ان البدائيين لم يستخدموا الاسلحة البدائية عندما قدم لهم الاوربيون البارود والرصاص .

وعلى اى حال فليس غريبا ان يضع السكان الاصليون شعائر لتعود عمليات الصيد لحالتها السابقة اذ لم يكن من الممكن بالنسبة للسكان

المحليين أو يتصوروا انتهاء عمليات الصيد وهنود السهول كانوا يصطادون الجاموس بطريقة طائشة وبدون ضوابط لتنظيم الصيد فى القرن ١٩ مثلا كما كان يفعل الافريقيون وهذا بالتالى يهدد الثروة الحيوانية وبعد ذلك تولى الرجل الابيض عمليات ذبح الماشية وعلى الاقل فان قتل الحيوانات بواسطة الاساليب الهندية كان يحتاج الى مهارة وصلابة وتحمل اذا قورنت بالطريقة المستخدمة اثناء مصارعة الثيران والرماة البيض بجيادهم وبنادقهم استطاعوا ان يحافظوا على عشرات القطعان فى حالة جيدة تسمح لهم بتحقيق الربح •

وهناك تقرير عن الدمار الذى اصيب به الجاموس على أيدى الصيادين البيض وهذا التقرير يوجد فى كتاب Night Rider وهو يعطى أيضا انطباعا سيئا عن الحالة التى وصل اليها الهنود الامريكيون الذين انخفض عددهم خلال الثمانينات والتسعينات فى القرن الماضى • وعندما يفرض التكيف الثقافى فى حالة عدم التوازن فى المجتمع الاصلى وهى حالة المشكلات التى تعرف أحيانا بالضغط الثقافى ، والضغط الثقافى ينشأ من الصراع فى اطار الجماعة البدائية بين رغبتين متناقضتين :

الرغبة فى رفض الثقافة الجائرة التابعة للحضارة المتقدمة والرغبة فى تطبيق ثقافة جديدة باكملها ومن ذلك فان العديد من الهنود قلدوا باجتهاد عادات المستوطنين البريطانيين بينما كان غاندى ينشر تعاليمه عن الاخلاص والاتجاه الروحى عن طريق التمسك بمبادىء القرية وهنا يقوم التناقض بين أولئك الذين جذبتهم الابتكارات وأولئك الذين يرفضونها ويعتبرونها مصدرا للآلام والاضرار وعندما تقبل الثقافة المحلية النمط الجديد للحياة الذى يقدمه لها الغربيون فليس من الضرورى أن يشعر السكان المحليون بالشكر والعرفان ، ففى العديد من الحالات كان المجتمع المحلى يشعر بالاسى والمرارة بسبب تخليهم عن أساليبهم القديمة فى الحياة وبسبب طردهم من أماكنهم الاصلية •

وفى الحقيقة فان التغيرات النافعة التى تقدمها الثقافة الجديدة الى الثقافة الاقل عندما تحتك بها لاتقلل من مشاعر الجفوة وغلظة الطبع تجاهها ، والتكيف الثقافى يؤدى دائما الى ادخال ثورة فكرية او تحول فكرى بين السكان الاصليين وهذه الثورة تنشأ عن الانحراف والقلق حيث تظهر آفاق جديدة ومشكلات جديدة ٠

وبالنسبة للباحث الانثروبولوجى الحقلى المدرب فان ذلك سوف يكون ظاهرا وواضحا فى المرحلة الاولى للتنمية ومعرفته للظواهر الاجتماعية وخبرته عن القبيلة والجماعة سوف تكشف له عن نقط التمزق ولذلك فمن المنطقى أن تستغل المهارة الخاصة للانثروبولوجى كطبيب وباحث اجتماعى واذا كنا نجد الآن عددا كبيرا من الحكومات الاستعمارية تعمل على تامين خدمات الانثروبولوجيين لهذا الغرض كمستشارين وموجهين فى حالات الصعوبات الخاصة ، واذا كنا نجد ان ثمة تسليم بأن الانثروبولوجيين يعملون على المحافظة على علاقات عرقية وسلالية مرضية وتبعث على الاطمئنان لانهم خبراء فى تنظيم العمليات الثقافية لتتم بشكل هادىء وطبيعى ٠

واذا كان قد تم التسليم أيضا بأن الانثروبولوجى يمكنه ان يقلل الازمات والضغوط التى يفرضها الاتصال الثقافى ٠

فان هذا كله يجعل الاستعانة بالانثروبولوجيا فى مختلف جوانب الحياة أمرا ضروريا كما فى حالة ادخال مشروعات فى منطق الصحارى المصرية مثلا بين البدو والقبائل الرعوية وكذلك اقامة المدن الجديدة فى مناطق جديدة ليسكنها شتات من الناس لهم انتماءات اجتماعية وثقافية مختلفة ٠ كما أن الانثروبولوجيا له اسهام آخر على المستوى النظرى اذ يمكن ان يساعد الجنس البشرى على فهم العمليات الغامضة فى الديناميات الثقافية ٠

٣ ـ اذا كنا قد أشرنا الى ظروف التغير التى تتميز بها المجتمعات

ونتائجها ، فان الباحث الانثروبولوجى - وهو يدرس المجتمعات الحديثة المحلية ، عليه أيضا مراعاة عدة متغيرات اساسية - منها :

٣ - مراعاة تقاليد المجتمع .. فيجب الا يسال الباحث عن امور تتنافى مع قيم المجتمع وتقاليده ، فلا يسال المبحوثين فى مجتمع متدين عن الشذوذ الجنسى مثلا ، ولا يسال فى مجتمع اسلامى عن عائد تربية الخنزير .. الخ . وبالطبع فان الباحث يستفيد فى هذا الصدد من فترة الانغماس فى المجتمع وهى الاشهر الاولى من اقامة فيه ويستفيد منها فى مراجعة اسئلته ، بالحذف ، وكذلك بالاضافة - فكثير من التساؤلات يتم التوصل اليها بعد الاقامة فى منطقة البحث وليس قبل ذلك ولذلك يجب مراجعة الموضوعات المطروحة للبحث على ضوء رؤيته للواقع الاجتماعى بمجتمع البحث . وذلك لاستبعاد ما يتناقض مع تقاليد المجتمع وما هو بديهى .

٤ - هناك بعض الخصائص التى يفضل مراعتها فى ذات الاسئلة والاستفسارات التى يطرحها الباحث اثناء اقامته بمنطقة البحث ومن ذلك ما يلى :

أ - يجب الا يوحى التساؤل بالاجابة .

ب - ان يصاغ التساؤل بطريقة مفهومة وواضحة .

جـ - ان يتم تجزئه الموضوع الى عدة موضوعات صغيرة متكاملة ، تستوفى كل نقطة قبل الانتقال لغيرها . ويجب أن يراعى فى وضع أجزاء الموضوع ان تكون كل جزئية بمثابة مقدمة لما يلها . بحيث يبدو انتقال الباحث من احداها للتالية منطقيا وطبيعيا . فمثلا بعد السؤال عن الحالة الزواجية للمبحوث . يسال عن قرابة - الزوجة او الزوجات ثم عن المهر وطريقة دفعه . الخ . بحيث يغطى الباحث كل ما يرتبط بالوضع الاسرى للمبحوث قبل الانتقال الى نقطة أخرى .. وهكذا بالنسبة لباقى

الموضوعات الجزئية فى البحث · ويضمن الباحث بذلك استيفاء كل نقطة استيفاءا كاملا حيث يتفرع ذهب المبحوث للنقطة موضع البحث تماما· كما ان ذلك يجعل المبحوث يشعر بجدية العمل وعلميته ونظامه ويضيف بيلتو مجموعة من الامور يجب أن يراعيها الباحث منها ([1]) ·

٥ ـ ان اللغة سواء فى استخدامها المعتاد أو فى المصطلحات النظرية غنية بالمفاهيم Concepts التى تعتبر بمثابة اصطلاحات لسلسلة من أجزاء السلوك والظروف المحددة ·

٦ ـ هذه المصطلحات العامة لامعنى لها الا ان تكون معانى مرتبطة بالوقائع الاخرى فى ذات السياق الاجتماعى ومن ثم فان الباحث قد يخطىء طريقة بميولة الثقافية الخاصة فى الحكم على سلوك معين بأنه عدائى أو غير ودى ·

٧ ـ حين يصدر الباحث أحكاما فى التقارير الميدانية فانه لابد من ذكر مستوى المقارنة الذى أقيمت عليه تلك الاحكام · وعلى ذلك فاذا حكم على منزل بأنه قديم ومهدم فان من المهم أيضاح ما اذا كان هذا الحكم على ضوء المنازل الاخرى فى نطاق الجوار المباشر أم ان الباحث يستخدم مجتمعه الخاص كمرجع فى ذلك الحكم ·

٨ ـ من البديهيات التى يتجاهلها الباحثون دائما حقيقة مؤداها ان أى حكم من الاخبارى لايجب أن يؤخذ كحقيقة على علاتها حتى لو بدا هذا الحكم معقولا ، ومن الافضل أن نسجل أن الاخبارى قال كذا ···

٩ ـ ومن ثم ففى كل حالة يسجل فيها الباحث ملاحظاته يجب عليه أن يسجل الملاحظت نفسها وليس الاستناجات التى يستخرجها من تلك الملاحظات ·

---

1) Pelto, Pretti, op. cit., p. 90-94.

١٠ - ويضيف لويس مارجوليز نقطة اخرى يجب ان يراعيها الباحث قائلا : يجب على الانثروبولوجى - خاصة الزائر - ان يأتلف ويتكيف مع القوانين والاعراف السائدة بالمجتمع . وعليه ان يدرك ان بعض القواعد الموروثة والاثار والتشريعات تحتل مكانة فى نفوس الناس لاتسمح تفسيرها ، ومحاولة تفسيرها قد يؤدى الى اعاقة البحث بل وتوقفه ([1]) .

1) Luise Margolies, op- cit. P. 451.

الفصـل الخامس

الانثروبولوجيـــا البيولوجيـــة

(*) كتب هذا الفصل الدكتور / عبد الله عبد الغنى غانم

واستكمالا لما جاء في الفصل الاول من كتابنا هذا فانه يمكن القول بأن الانثروبولوجيا تنقسم اساسا الى قسمين كبيرين : الانثروبولوجيا البيولوجية والانثروبولوجيا الثقافية . ويوضح الباحثون أن القسم الاول يدرس الانسان نفسه باعتباره كائنا بيولوجيا ، في حين يدرس القسم الثانى أعمال الانسان (١) .

ونركز الآن على القسم الاول الذى يطلق عليه أحد مسميات ثلاثة عادة :

الانثروبولوجيا البيولوجية ، أو الانثروبولوجيا الطبيعية ، أو الانثروبولوجيا الفيزيقية .

وتدور تعريفات هذا العلم حول مايعالجه من موضوعات طبقا لاهتمامات الباحثين ، حيث وضح أن هذه التعريفات تربط بين هذا العلم وبين أحد مجالات اهتمامه . ونستطيع أن نستخلص مجالات اهتمام هذا العلم من التعريفات التالية :

يقول (كيلسو) Kelso لقد ارتبطت الانثروبولوجيا الفيزيقية بموضوع محدد تمثل فى الاهتمام بمشكلة التطور الانسانى ، والتنوع الانسانى ، لذلك فان الانثروبولوجيا الفيزيقية تهتم اساسا بأصل الانسان وتطوره منذ نشأته الاولى حتى الآن ، أى أن موضوعها أو المهمة الاساسية للانثروبولوجيا الفزيقية هى تفسير الاختلافات أو التمايزات البيولوجية فى الانسان . ويضيف (كيلسو) قوله : لاشك أننا بحاجة الى معلومات عن مدى التمايز أو الاختلافات بين المعاصرين من البشر . وهنا ندرس السمات المعاصرة للانسان مثل حجم الجمجمة وطول القامة ونوع الشعر ولون البشرة وشكل الانف والعين ، وكذلك

---

(١) رالف لنتون الانثروبولوجيا .. ترجمة عبد الملك الناشف ، المكتبة العصرية بيروت ١٩٦٧ ص ١٧ .

نحاول التعرف على ماكانت عليه هذه الاختلافات فى الماضى ونحاول تفسيرها وان كانت محاولة التفسير هذه لازالت تنتظر المستقبل (١) .

ويحدد باحث آخر مجالات اهتمام هذا العلم قائلا : تهتم الانثروبولوجيا البيولوجية اساسا بالبحث فى السمات الفيزيقية للانسان (٢) ، وأنها تهتم بدراسة الانسان من ناحية كونه كائنا طبيعيا، فتهتم بتاريخه وتطوره وطبيعة تركيبه الجسمى من اقدم العصور حتى الآن ، اى ان هذا العلم يهتم بتتبع تاريخ الخصائص والصفات الجسمية للانسان (٣) ، مركزا على جسم الانسان سواء من حيث صفاته ومقاييسه أو من حيث اصوله واجداده (٤) ، والخصائص الوراثية التى تتناقلها الاجيال وتوارثها الاجناس البشرية منذ فجر التاريخ (٥) . ولقد استمرت السلالة وعلم التشريح الانسانى المقارن مع التأكيد بوجه خاص على العظام Costology والتطور الانسانى تشكل جميعها الموضوعات الرئيسية للانثروبولوجيا الفيزيقية حتى القرن الحالى (٦) .

واذا كانت هذه التعريفات تقصر اهتمامات هذا العلم على مجالات محددة هى التطور والاجناس بالذات رغم انها قد اشتملت الآن على فروع أخرى عديدة على ماسنرى ، فان مرجع ذلك هو أن تاريخ

---

1) A.J. Kelso, Physical Anthropology P.B. Lppuncott, 1976. p. 305.

(٢) حسن شحاته سعفان : تاريخ الفكر الاجتماعى .. دار النهضة العربية . القاهرة ١٩٧١ ص ١٧٦ .

(٣) عبد الحميد لطفى : الانثروبولوجيا الاجتماعية ، دار المعارف بمصر ١٩٧١ ص ٦ .

(٤) عاطف وصفى : الانثروبولوجيا الاجتماعية ، دار المعارف بمصر ١٩٧٧ ص ١١ .

(٥) قبارى اسماعيل ، الانثروبولوجيا العامة ، منشأة المعارف بمصر ١٩٧٦ ص ٤٣ .

(٦) هارى شابيرد : الانثروبولوجيا الفيزيقية .. مجالات الانثروبولوجيا ترجمة علية حسين ، السيد حامد ، دار القلم .. الكويت ١٩٨٥ ص ٤٤ .

الانثروبولوجيا الفيزيقية نفسه قد ارتبط بتطور هذه الموضوعات خاصة التطور ، والاختلافات الفيزيقية بين أجناس البشر ، تماما كما ارتبطت الانثروبولوجيا الفيزيقية ذاتها بتطور مجالات علمية جديدة . فمن المؤكد أن ثمة ارتباط بين تشابه الانثروبولوجيا الفيزيقية ترتبط باهتمام العلماء بالسلالة الانسانية ووضعها فى المملكة الحيوانية وتصنيف السلالة البشرية التشريح ذاتها من ناحية كما ارتبطت من ناحية أخرى بعلم التشريح وخاصة بعد ان أصبح التشريح المورفولوجى للانسان موضوعا أساسيا من مجالات علم التشريح بما ارتبط به من ظهور اختلافات تشريحية واضحه بين البشر ، ومن ناحية أخرى فانه مما لاشك فيه ان دراسة الانثروبولوجيا الفيزيقية كانت من أهم العوامل التى عجلت بالتقدم نحو انشاء علم الاجتماع بما حملته من قوانين التطور العضوى الانسانى ووصف الحضارات والعادات والتقاليد فى المجتمعات القديمة والسحيقة وعلاقة هذه الانماط الاجتماعية بالناحيتين التضاريسية والمناخية من جهة والتكوين الفيزيقى والعقلى للانسان من جهة أخرى .

تاريخ الانثروبولوجيا الفيزيقية :

حيث أن تاريخ الانثروبولوجيا الفيزيقية قد ارتبط بتطور موضوعات محددة اذن ، مثل سلالات الانسان والدراسات التشريحية المقارنة للانسان مثل التطور والاختلافات بين الاجناس . فقد وجه بالفعل اهتماما كبيرا الى الموضوعات التى تشكل المجال الرئيسى لهذا العلم ، منذ زمن بعيد . فلقد كان مفهوم التطور مثلا أحد الموضوعات الاساسية للانثروبولوجيا قبل ان تظهر نظرية تشارلس داروين (١) كما أجريت فى الفترة ١٦ ، ١٩ دراسات جادة عن الانسان تركزت على دراسة سمات الانسان الجسمية الفيزيقية والثقافية والعقلية ، فقد أجرى A. Vesolins

---

1) Carol R. Ember & Melvin Ember, Anthropolegy Appleton - Century Crofts. New York, 1975, p. (27).

(١٥١٤ - ١٥٦٤) دراسات تشريحية بحثا عن السمات الفيزيقية للانسان ، ثم ميز (كالرلوس) (١٧٠٧ - ١٧٧٨) بين الانسان والحيوان وقسم الانسان الى أربعة أجناس : الابيض ، والاصفر ، والاحمر ، والاسود ، ثم جاء جوهان فرديك (١٧٥٢ - ١٨٤٠) فأسس علم الانثروبولوجيا الفيزيقية وقام بأجراء دراسات تشريحية انثروبولوجية مقارنة ، كما وضع الاسس العلمية لدراسة الجمجة كأساس للتفرقة بين الاجناس أو مايسمى بعلم الجمجة (١) Craniology بل ويشير البعض الى أن فكرة التطور قد وجدت فى الفكر اليونانى القديم وكذلك فى الفكر العبرى (٢) .

ورغم ذلك الاهتمام وهذه الدراسات ، فان (كيلسو) يوضح أنه قبل نشر كتاب داروين عن أصل الانواع ، فان الانثروبولوجيا الفيزيقية لم تكن قد ظهرت بعد كعلم ، بل انه يقول أن من مهام هذا العلم رسم صور الاختلافات بين الاجناس فى الزمن الماضى وان تفسيرات هذه الاختلافات مازالت تنتظر المستقبل اى لم يتم تفسيرها بعد .

عموما يوضح العلماء انه قبل ظهور الانثروبولوجيا الفيزيقية وبلورتها كعلم ، كان قد تبلور الكثير من الاتجاهات والاراء المرتبطة بالموضوعات التى يتناولها هذا العلم وخاصة التطور والاجناس وسمات الانسان المعاصر . وقد تأثرت هذه الآراء بعدة عوامل نستطيع ذكرها على النحو التالى :

١ - الاديان : وقد أثرت الاديان تأثيرا كبيرا فى وضع الانسان فى الطبيعة بالنسبة لبقية الكائنات الاخرى وغير ذلك .

٢ - الاعتقاد السائد القائل بأن الحياة الحيوانية كانت دائما

---

(١) حسن شحاته سعفان .. مرجع سابق ص ١٧٧ .

2) Michael Kenny, Evolution, The english universties press ltd, London, 1966, p. 172.

وستظل كما هى ، وان التغيرات لاتمس الجوهر كثيرا . وقد اثر هـذا الاعتقاد بدوره تاثيرا كبيرا فى تكوين وجهة نظر محدده من مجـالات هذا العلم .

٣ - تقدير عمر الارض ، فقد قدر العلماء عمر الارض فى وقـت من الاوقات بعدد قليل من السنوات وبالطبع كـان لذلك دور كبير فى تحديد اتجاه الكثيرين من فكرة التطور بصفـة خاصة . وقـد سبـق الاشارة الى هذه النقطة .

٤ - رؤية الكثيرين للعالم فى ضوء الانماط المثالية الافلاطونية .

٥ - ظهور وسيادة النزعة التجريبيـة فى مواجهة النزعة العقلانية البحته والمبنية على كتابات ارسطو اساسا ، وتتمثل النزعة العقلية فى الانطلاق من قضية مؤداها ان الحقائق المتعلقة بالتجربة الانسانية يمكن الوصول اليها بقوة العقل وحده ، واستخدام قواعد المنطق فى مقابـل الملاحظة العلمية التى تقوم عليها النزعة التجريبية .

وقد سيطرت النزعة العقلية لفترة طويلة وكان (ليبتز وديكارت) من انصار هذه النزعة الا انه فى القرن الثالث عشر بدات عناصر عديدة فى الظهور عملت على تدمير النزعة العقلية ، حيث ظهر الاتجاه المدرسى أو نزعة المدرسة العلميـة التى ادت الى الاهتمـام بكتابات اليونانيين ووجهت الاهتمام نحو ربط احداث ووقائع العالم بالمستقبـل وتزايـد الاهتمام فى ظلها بمشكلات العالم وشئونه وتطورت الرياضيات وغلبت النزعة الدنيوية خاصة فى الطبقة المتوسطة ، وقد أدى ذلك كله الـى سيادة النزع ةالتجريبية - او الامبريقية - التى تصر على اضافة الملاحظة الامبريقية الى التفسير العقلى السليم . بمعنى اختبار صحة العمليـات العقلية بالرجوع الى الخبره الحسية ، وهذا المدخل الامبريقى تمثـل فى عمل (جاليليو) و (بيكون) و (نيوتن) على وجه الخصوص . وعليه قامت الاكتشافات العلمية فى العصر الحديث ، وانتاج وسائـل وادوات

جديدة مكنت الانسان من التنبؤ بكثير من الاحداث التى لايملك التحكم فيها على ماحدث فى الفلك والفيزياء وغيرها من العلوم الطبيعية . وقد كانت النتائج الهامة التى حققها المدخل الامبريقى فى العلوم الطبيعية سببا فى اثارة تساؤلات مماثلة بالنسبة لموضوعات عديدة ، منها بالطبع دراسة الحياة او علم البيولوجيا ، ومن بينها بيولوجيا الانسان وهو الموضوع الذى شكل عند البعض المبحث الاساسى للانثروبولوجيا ككل . بحيث قيل «ان الانثروبولوجيا هى دراسة اصل وتطور طبيعة الانواع البشرية ([1]) هذا وقد ادى المدخل الامبيريقى الجديد الى احداث تطور كبير فى الانثروبولوجيا الفيزيقية بشكل عام نستطيع ان نشير اليه على النحو التالى :

لقد لعب التقدم والاكتشافات التى تم احرازها فى مجال العلوم الطبيعية ـ خارج مجال البيولوجيا ـ دورا هاما فى مجالات ذات اهمية كبيرة للانثروبولوجيا الفيزيقية ، وكان من الاكتشافات ذات الاثر الكبير فى هذا المجال ، اكتشافات علماء الجيولوجيا وعلماء الحفريات والآثار، اذ بدأ علماء الجيولوجيا فى اكتشاف ادلة مقنعة على أن عمر الارض لايقدر بآلاف السنين ، حيث اكدت هذه الاكتشافات ان الارض قد استغرقت ملايين السنين لكى تتكون ، ومن خلال ملاحظة معدل حدوث الظواهر الجيولوجية فى الوقت الحاضر من ناحية وافتراض أن هذه المعدلات الحالية تماثل معدلات الماضى قدر الجيولوجيون ان القشرة الارضية قد اخذت شكلها الحالى فى زمن يقدر بملايين السنين . فباستخدام سمك الصخور الرسوبية والمعدل السنوى للترسب مثلا قدر عمر الارض بحوالى ١٠٠ مليون سنة ، اما الفلكيون فقد انتهوا من دراساتهم الى تقدير عمر الارض بثلاثة آلاف مليون سنة ، اما الاعتماد على النشاط الاشعاعى فقد قدر عمر اقدم الصخور الموجودة بالقشرة

1) R. Bellse, H., Hager, Alan Beals; Anthropology London, 1967. p. (2) .

الارضية بحوالى ٢٠٠ مليون نسمة كما ان قياس ملوحه مياه المحيطات والمعدل السنوى لزيادة هذه الملوحة أوضح ان عمر الارض ٥٠ مليون نسمة .

كما قدم علم الآثار - الاركيولوجى - اسهاما هاما ، فقد اكتشف علماء الآثار والحفريات الاوائل عددا من عظام حفريات لحيوانات تختلف عن تلك التى تعيش بذات مناطق الاكتشاف الآن من حيث الشكل والحجم ، كما اكتشفت ثدييات ضخمة وزواحف فى شكل متحجر باوربا ، كما ان النباتات التى تم العثور عليها فى شكل طبقة صخرية بعيدة عن سطح الارض وجدت مختلفة عن مثيلتها فى الطبقات القريبة من سطح الارض . واثبتت الدراسات ايضا ان الشعوب التى كانت تعيش باوربا وغيرها فى الماضى البعيد تختلف فى نمط معيشتها عن الانسان الحديث .

وعموما ، فان علم الآثار وعلم الحفريات وعلم الجيولوجيا قد قدمت اسهامين كبيرين لعبا دورا هاما فى تطور الانثروبولوجيا الفيزيقية، وهذان الاسهامان هما :

١ - تقديم تفسير للحقيقة المتعلقة بعمر الارض والحياة التى توجد عليها .

٢ - عرض دليل شامل عن الانواع النباتية والاشكال الثقافية المبكرة التى تختلف عن الاشكال الحديثة فى نفس المنطقة ،كما تختلف ايضا عن الاشكال المعروفة الآن فى جميع انحاء العالم .

وقد ادى هذا التطور الى ظهور أسئلة جديدة منها :

١ - لماذا تتعدد الانماط أو الاشكال فى نوع واحد من الكائنات فى حين يقل هذا التعدد فى أنواع أخرى ؟

٢ - لماذا تتشابه الكائنات الحية الى حد كبير فى بعض الجوانب (على ما أظهر تصنيف كارلوس) فى حين تختلف فى بعض الجوانب الاخرى ؟

٣ - كيف حدث هذا الاختلاف الذى يوجد حاليا فى الانواع الحديثة ، أو كيف ظهرت التمايزات أو الاختلافات السلالية فى الانواع الانسانية والاجناس ؟

٤ - ماهى العلاقة بين أشكال الحفريات والنباتات الحديثة ؟
ولقد ارتبطت محاولة الاجابة على هذه التساؤلات بعدة مباحث مشكلة المجالات الرئيسية للانثروبولوجيا الفيزيقية ، وهذه المجالات هى :

١ - الوراثة .
٢ - مجموعات الدم .
٣ - الانثروبومترية أو القياس البشرى .
٤ - الاجناس .
٥ - انثروبولوجيا التغذية .
٦ - الانثروبولوجيا الفسيولوجية .

وقد قسمها البعض الى قسمين اثنين ، أى انها تنقسم الى : علم الحفريات البشرية (الباليونتولوجيا) ، وعلم الاجسام البشرية (السوماتولوجيا) . وهذين القسمين يشملان ماتقدم بالاضافة الى بعض فروع أخرى رأينا تلخيصها فى الفروع التى اقترحناها .

ولقد فضلنا ان نستبعد فكرة التطور من كتابنا هذا ، ذلك أنه على الرغم من أن الكثيرين قد رأوا انها تشكل اصلا جوهريا فى الانثروبولوجيا الفيزيقية بحيث يقول بعضهم ان الانثروبولوجيا قد اضطلعت اصلا بالدراسة العلمية لمشكلات جوهرية مثل مشكلة أصل

الانسان وتطوره (١) . واذا كان هذا الموضوع قد سيطر على معظم التعريفات التى قدمناها للانثروبولوجيا الفيزيقية . فان عدم علمية هذه الفكرة - البحث عن اصل الانسان - تجعلنا نستبعدها من ثنايا كتابنا هذا . خاصة اذا علمنا انها كانت خلف العديد من الآراء الخاطئة والمتحيزة وهى اراء اسهم الانثروبولوجيون الطبيعيون فى نشرها بتعودهم على الحديث عن التطور واصل الانسان ومن ثم ترتيب المجموعات المختلفة من الرئيسيات على شجرة تطورية يظهر الانسان الابيض عليها كآخر فروعها ، بينما تظهر الاجناس الاخرى وهى تتفرع من المناطق الدنيا والاكثر قدما من جذع الشجرة التى تمثل تاريخ نشوء النوع الاساسى (٢) .

ونحن هنا نساير ماذهب اليه الكثيرون فى هذا الصدد بل نستخدم نفس الفاظهم فى هذا الشأن . حيث يقول رالف لنتون :

ان علم الحفريات البشرية - الباليونتولوجيا - يتناول بالبحث اصول نوعنا البشرى واتجاهات تطوره ، وبخاصة ماكان منها متصلا بالنواحى التى تكشفها الاحافير ، وقد لوحظ انه فى كل سنة تكشف احافير جديدة ، ماتلبث ان تضم الى هذا الفرع وتصبح جزءا من الانثروبولوجيا الفيزيقية مما حدا بالبعض الى التزييف واللجوء الى صناعة مثل هذه الشظيات بغية الانضمام الى مصاف العلماء مستغلا ما يشوب هذه المكتشفات الحفرية من ثغرات وما يرتبط بفكرة البحث عن اصل الانسان من اجتهادات واسعة وجدل كبير . ولم تتمخض الابحاث فى هذا الموضوع الى الآن عن حقائق محدده . ولكن مجرد تخمينات يشوبها الشك والغموض ، ولا زالت الحلقة مفقودة ، ولا نعتقد

---

(١) قبارى اسماعيل .. مرجع سابق ص ٤٢ .
(٢) آشلى مونتاجيو : البدائية .. مرجع سابق ص ٢٢٣ .

أنه سيعثر عليها أصلا . بل أن (رالف لنتون) يشير انه حتى اذا تم كشف هذه اللحقة المفقودة فان ذلك لن يسهم كثيرا بالتغلب على الصعوبات التى تكتنف هذا الموضوع . وفى هذا الصدد ايضا يقول ارثر كيبث (١٨٦٦ ـ ١٩٥٥) « ان الارتقاء غير ثابت ولايمكن اثباته » ([١]).

وبجانب هذه الآراء فان ابحاث رائد علماء الوراثة (مندل) قائمة على وراثة ثابتة لامجال فيها لاى تحول وتطور ابدا .. وبتعبير آخر فان تجارب مندل وقوانينه ـ التى سنعرض لها بايجاز بعد قليل ـ قد نفت نفيا قاطعا كل اسس التحول التى قامت عليها النظرية الداروينية ([٢]) . بجانب ذلك فانه حديثا ظهر اتجاه قوى فى الولايات المتحدة مثله معهد A.P.S الامريكى تصدى بقوة لمحاولة متابعة فكرة الخلق ومحاولة تدريسها كعلم بالمدارس الامريكية وقد استند علماء هذا المعهد الى ان ذلك امر مرتبط بالعقيدة والدين . بجانب انه يتجاهل ايضا ان الحياة قد وجدت على الارض منذ ملايين السنين . وانتهى العلماء هنا الى ان هذا الموضوع لايشكل علما بالمعنى المعروف للعلم ([٣]) .

اضف الى ذلك ان عددا كبيرا من علماء الغرب انفسهم قد رفضوا نظرية داوين تماما ومن هؤلاء :

والاس : الذى اعلن بصراحة ان من المستحيل ان يكون الانسان قد تم تكوينه على طريقة التطور والارتقاء حيث ان الارتقاء بالانتخاب الطبيعى لا يصدق على الانسان .

---

(١) وحيد الدين خان : الدين فى مواجهة العالم ، ترجمة ظفر الاسلام خان . المختار الاسلامى للطباعة والنشر والتوزيع ـ القاهرة ـ الطبعة الثانية ـ ١٩٧٣ ص ٢١ .

(٢) محمد حسن آل ياسين : فى رحاب الاسلام . بيروت ـ منشورات مكتبة الحياة ١٩٨٤ ص ١٥٠ .

3) Mainstream Scientists repond to creationsts, in physics to day February 1982. Vol 35 No (2) p. 53.

- **العالم الفسيولوجى ايلى دوبسون** : الذى سخر من النظريـة قائلا : «الداروينية لاتقوم الا على حكايات مخترعة لاتعلو قيمتها على قيمة حكايات المرضعات .

- **جال بيفتو** : رئيس المجمع العلمى الفرنسى يقول : لقـد وقف العلم نصف قرن تقريبا على دراسة اصل الانسان وقـد ثبت اخيرا ان الانسان ليس له علاقة تجانس بالقرد . وقد ثبت بالادلة ان النظريـة القائلة بوجود اصل مشترك يتشعب منه كل من الجنس البشرى وجنس القرده الكبيرة لم تزل مفتقرة الى البرهان الحاسم وان هذا الشبه بين القرد والانسان غير كافى للجزم بوجود اصل مشترك للانسان والقرد .

- **د. رونالد جونسون استاذ عـلم الانثروبولوجيا** يقول ان العلماء

يستطيعون الان ان يقولوا بنسبة ٩ر٩٩٪ من الدقة ان الانسان سار منتصبا على قدميه منذ بداية تاريخه الانسانى منذ اكثر من ثلاثة ملايين سنـة وقد اعلن ذلك فى مؤتمر صحفى - مارس ١٩٧٤ - وهو يمسك فى يديه بخمس قطع من العظام يرجع تاريخها الى ثلاثة ملايين سنة عثر عليها فى أواخر ١٩٧٣ فى أثيوبيا ويعتبر الآن واحدا من اعظم الاكتشافات فى التاريخ الطبيعى للاجناس البشرية . وقد سدت هذه العظام الثغرة التى ظل العلماء يتحدثون عنها تحت اسم الحلقة المفقودة ، وان ماوصل اليه الدكتور رونالد جونسون كان خاتمه حفريات كثيره تمت خلال سنوات ١٩٦٩ ومابعدها فى كينيا ووادى افار فى الحبشة . ومن اهم ما كشفت عنه ان الجماجم الفريدة فى نوعها كانت تتميز بسعه الدماغ مما جعل العلمـاء يخرجون بانطباع عام وهو ان الانسان لم ينحدر من سلالـة مشتركة تطورت مع الوقت . انما كانت له سلالته الخاصة المستقلة . وهنا يقول دكتور جونسون ان المعلومات التى امكن التوصل اليها عن طريق عظام الساق والفخذ فى مجال تكوين الحوض والبنـاء العظمى تكشف عـن انتصاب الانسان . وأقول اننا نملك ادلة واضحة على ان الانسان القديم كان يسير منتصب القامة منذ اكثر من ثلاثة ملايين سنة .

د٠ بيرسون ٠٠ استاذ علم الوراثة فى جامعة اكسفورد :

اكد انه بالاستناد الى المقارنات الطويلة التى اجراها بين عناصر الخلايا التى تحدد اصول الوراثة أن الانسان لم ينحدر من القرد وانه لم تعد هناك حاجة تدعو الى دراسة ظهور القرد وتطوره على سطح الارض بغية التحقق من طبيعة الانسان الحقيقية ٠ كما اصدر الدكتور بيرسون مع ثلاثة من زملائه قانونا اشتهر باسم (قانون القرد) حظروا فيه على المدارس والجامعات تدريس المذهب الداروينى ـ مذهب النشوء والارتقاء ـ وذلك لبطلان النظرية التى كانت تقول ان الانسان هو الحلقة الاخيرة من تطور انطلق من أول انواع القرود مرورا بالشمبانزى والغوريلا حتى الاوران أوتان ٠

ـ فى السنوات الاخيرة اكتشف العالم ليكى ـ مدير المتحف الوطنى فى كينيا واحد اقطاب الانثروبولوجيا والذى استمر فى اعمال الحفر لمدة تزيد على ٢٨ سنة قبل ان يصل الى اكتشاف جمجمة وعظاما فى أحد جبال كينيا هزت الاوساط العلمية ٠ ذلك انه بعد أن تم قياس عمرها الجيولوجى بواسطة الاجهزة الخاصة بذلك وجد انها ترجع الى مليون وستمائه الف عام تقريبا ٠ ووجد أن أهم ما يميزها هو حجم المخ فقد وجد انه حوالى ٨٠ سنتيمترا أى ضعف حجم مخ القرد الجنوبى وتزيد عليه مليون سنة ٠ ودلل هذا المخلوق الذى يعتبر حلقة هامة من تاريخ تطور الجنس البشرى على اننا ننتمى لفصيلة أخرى غير القرد الشمبانزى وقد أوضحت زاوية ارتباط العمود الفقرى بقاع الجمجمة انه كان قادرا على المشى مثلنا تماما ٠ ولم تكن له صفات الوحش المفترس (١)٠

بجانب أن المهتمين بهذا الموضوع يؤكدون كل يوم انه لايمثل حقيقة علمية ، وآخر ما اتيح لنا فى هذا الموضوع ما نشر أخيرا من أن «الاوساط

---

(١) ماهر خليل : سقوط نظرية داووين ٠ المركز العربى للنشر والتوزيع جدة ١٥٧ ـ ١٥٩ ٠

العلمية فى الغرب قد ضجت ـ وخاصة فى الولايات المتحدة ـ بنبأ الاكتشاف الذى توصل اليه فريق من العلماء الامريكيين ـ بعد نحو عشر سنوات فى البحث والدراسة فى علم الوراثة والجنيات • وقادهم البحث الى اكتشاف ان الجنيات الثابتة فى كل النوع البشرى يمكن تصنيفها الى امراة واحدة (سماها فريق البحث بايف ـ او حواء) انحدر منها كل البشر • وكانت خصبة الولاده واليها تعود الجنيات الثابتة عند كل البشر والبالغة نحو خمسة آلاف جنين • وهذا ما جاء فى التقرير العلمى الذى نشرته مجلة «نيوزويك» الامريكية هذا الاسبوع •

ويحدد العلماء ظهورها على الارض بانه وقع فى آسيا او افريقيا قبل نحو ٢٠٠٫٠٠٠ سنة • وعلى هذا الاساس يمكننا اعتبارها جدتنا • وقد ناقضت هذه الاكتشافات كل ماذهب اليه العلماء من قبل فيما يتعلق بظهور الانسان على الارض •وخاصة ما يتعلق بنظرية العالم الانجليزى داروين حول اصل الانسان (١) •

لذلك كله فاننا نساير رأى (لنتون) ونقرر استبعاد هذا الفرع (الباليونتولوجيا) من علم الانثروبولوجيا من مجموعة ابحاث هذا الكتاب (٢) ، انطلاقا من انه من الافضل التأكيد فى المباحث العلمية على ماهو يقينى وعلمى بدلا من الانطلاق خلف مباحث ظنيه ، ولعل هذا هو الذى سيجعل تركيزنا هنا ينصرف الى تلك المباحث الجديدة فى مجال الانثروبولوجيا الفيزيقية • مثل الاختلافات والفروق بين اصناف البشر واسباب هذه الاختلافات وابراز خصائص الجنس البشرى ، والعلاقات بين اجناسه • والفرق بين انواع الدم بين اجناس البشر ـ مجموعات الدم ـ والاختلاف فىسرعة النمو وسن النضوج وقدر المناعة بين اجناسه ، وغيرها من الموضوعات التى اصبحت تشكل مجالات

---

(١) عن جريدة الشرق الاوسط فى ١٩٨٨/١/٨ •
(٢) رالف لنتون : الانثروبولوجيا وازمة العالم الحديث ، المكتبة العصرية بيروت •• ١٩٦٧ ص ١٨ •

أساسية لهذا العلم ، خاصة وان الافكار التطورية (لم تزودنا بأى تعليل لظاهرة التباين نفسها والتى قالت بها فى الانسان ، مما دفع الانثروبولوجيين الى التخلى ـ منذ القرن الماضى ـ عن الاراء التى قيلت فى تباين بنى الانسان ، وكرسوا جهودهم لتصنيف الانواع العرقية ([1]) .

الانثروبولوجيا البيولوجية والانثروبولوجيا الثقافية :

اذا كانت الانثروبولوجيا الفيزيقية تهتم أساسا او ان موضوعها الاساسى هو تفسير الاختلافات البيولوجية عند الانسان المعاصر من ناحية ، او اختلافات هذا الانسان مع انسان الماضى من ناحية أخرى . فقد تم جمع قدرا كبيرا من المعلومات عن هذه الاختلافات وقد أصبح العلماء الآن يواجهون مشكلة من نوع آخر . فقضية وجود هذه الاختلافات لم يعد محل شك أو تساؤل ، ولكن المشكلة الاساسية الآن هى تفسير وفهم ذلك الكم الهائل الذى جمعه أسلافنا من العلماء والذين كانوا يعملون وفقا لمنطق محدد : اجمع اليوم مانستطيع من معلومات ثم دع التفسير لما بعد . والحقيقة أن محاولة تفسير هذه المعلومات المتراكمة سيعمل على ابراز القيمة العلمية لجهودات الانثروبولوجيين الفيزيقيين ، كما أن هذا التفسير سيعمل على زيادة أهمية الانثروبولوجيا الفيزيقية ذاتها كعلم ، ذلك ان وضع هذا العلم كان ضعيفا خلال القرن التاسع عشر ، وذلك حين كان قاصرا على قياس وتصنيف صفات الانسان الجسمية من النواحى الخارجية فقط ([2]) .

ويشير الباحثون الى أن هذا التفسير يمكن أن يتم بطريقة أفضل عندما يتم دمج البيانات والمعلومات والمشكلات ووجهات النظر المختلفة السائدة فى الانثروبولوجيا الفيزيقية مع نظيراتها فى الانثروبولوجيا

---

(٢) المرجع السابق .. ص ٤٧ .

1) Paul Benjamin : Human heterography R.F. New York 1972 p. 324.

الثقافية . وبمعنى آخر ، فان مثل هذا التفسير يقتضى ان يتحد اتجـاه الانثروبولوجيا الفيزيقية مع الانثروبولوجيا الثقافية مـع علـم دراسة الغدد الصمـاء . ويمكـن أن نناقش احتمـالات ونتائـج مثـل هـذه الاندماجات على النحو التالى :

أولا : الانثروبولوجيا البيولوجية والانثروبولوجيا الثقافية :

لقد ظلت الانثروبولوجيا الفيزيقية لفترة طويلة تدرس بعيدا عن مجال الانثروبولوجيا بشكل عام . بل لقـد كان هـذا الفرع يدرس فى كليات الطب والعلوم ومعظم المتخصصين فيه هـم من علماء الحيـاة والاطباء ولكنه يدرس ايضـا فى كليات العلـوم الاجتماعيـة فى أقسـام الانثروبولوجيا (١) ، ولاشك أن الانثروبولوجيا البيولوجية أو الفيزيقية أقرب للعلوم الطبيعية من الانثروبولوجيا الثقافية .

والسؤال الذى يطرأ عـلى الذهن الآن ، هـو ماذا يفيد طالـب الانثروبولوجيا من دراسة الانثروبولوجيا الفيزيقية (٢) ؟

والاجابة على هذا التساؤل تنبثق من فرضيه محددة مؤاداها أنه عندما نعرف أكثر من بيولوجيا الانسان ، فاننا قد نتوقـع فى النهايـة ان نعرف المزيد عن ثقافته . وهنا فقد استعان علماء الانثروبولوجيـا فى دراستهم لموضوع «التطور الثقافى الذى أصبح موضوعا اساسيا مـن موضوعـات الانثروبولوجيـا بالمعطيـات الفيزيقيـة حيـث وضـع الانثروبولوجيون فى الاعتبار عند دراستهم لهذا الموضوع كل المعلومـات التى سوف تسهم فى دراسته وهكذا لم يعتمدوا على المعلومات التى كانت متوفرة لديهم عن الظواهر الثقافية فحسب وانما استعانوا أيضا بالشواهد والادلة الاخرى التى توفرها الدراسات السلالية والتشريحية بالاضافـة

1) Kelso, op-cit., p. 92.

(٢) عاطف وصفى .. مرجع سابق ص ١١

الى الادلة والشواهد التى يقدمها علم اللغة وعلم الآثار (١) .

وتتمثل الاجابة أيضا فى أنهم بهـذه الدراسة سوف يقدرون قيمـة المتغيرات البيولوجية فى السلوك الانسانى بطريقة صحيحة . واذا كان هذا ماهو ما يمكن أن تسهم به الانثروبولوجيا البيولوجيـة فى مجال الانثروبولوجيا فانه يثار هنا تساؤل هام ، هل تستطيع الانثروبولوجيا الثقافية أن تسهم فى مجال الانثروبولوجيا الفيزيقية أيضا ؟

الحقيقة انها يمكـن أن تسـهم اسهاما حقيقيـا فى فهم المشكلـة الاساسية فى الانثروبولوجيـا الفيزيقيـة والمتمثلة فى محـاولة تفسـير الاختلافات الفيزيقية بين السلالات والجماعـات البشرية . فقد تشـكل خبرتنا الثقافية عونا لنا فى هذا المجال ، فنحن لدينا معلومات ثقافية كبيرة عن الشعوب التى لم تعرف القراءة والكتابة ، سواء المعاصرة أو من السجلات الاركيولوجية . ومن هذه المعلومات يمكن الوصـول الـى الاستنتاجات التالية :

ان الانسان قد عاش فى المراحل المبكرة فى شكل تجمعات سكانيـة صغيرة منعزلة ومتفرقة عبر المناطق الاستوائية فى العالم القديم ، ولكن بمرور الزمن أصبح الانسان بثقافته أكثر فاعلية فى استغـلال وتطويع البيئة ، وقد كان لذلك اثارا تهم المفسرين للتمايز والاختلافات البيولوجية المتاحة عن الانسان ، ومن هذه الآثار مايلى :

١ ـ ازدياد الكثافة الكلية للجنس البشرى .

٢ ـ ازدياد أعداد التجمعات السكانية .

٣ ـ ترتيبا على ما سبق ، فقد بدأت العزلـة التى كانت تعـزل

---

(١) هارى شابيرو .. مرجع سابق ص ٤٣ .

التجمعات السكانية البشرية تتلاشى واصبح الاتصال بين هذه الجماعات اكثر ترددا واكبر تاثيرا ٠

٤ ـ بدأت التجمعات البشرية تمتد الى المناطق المعتدلة ثم المنطقة القطبية الشمالية للعالم القديم ٠

ولاشك أن التطور الثقافى هو المسئول عن هذا التغير الذى لـه آثار كبيرة على التمايز والاختلاف البيولوجى بين البشر ٠

فالتطور الثقافى بدأ بطيئا ، وبعد ذلك أخذ يسير بسرعة أكبر ، واليوم فان التجمعات السكانية المنعزلة التى كان يعيش فيها الانسـان فى مراحله المبكرة قـد انقرضت وحلت محلها القـرى والمدن ، ومـن الواضح هنا ان الثقافة قد تطورت بسرعة اكبر من تطور جسم الانسان بيولوجيا ٠

ولكن كيف يمكن ان نضع حقائق هذا التطـور الثقافى فى خدمـة تفسير تعدد الاشكال فى الانسان بطريقة افضل ؟

ان التطور الثقافى فى الواقع كان عاملا أساسيا فى القضاء عـلى العزلة بين الجماعات البشرية ، تلك العزلة التى كانت عاملا أساسيا فى التمايز والاختلاف بين هذه الجماعات ، ذلك أن التجمعات المنعزلـة القديمة قد ساعدت على تقليل القابلية للمتغيرات الوراثية داخل هـذه التجمعات المنعزلة بسبب انتشار الزواج من الاقارب من ناحية ، وعـدم الاختلاط الجينى من ناحية أخرى ٠ ومن هنا فان الاختلافات بين هذه التجمعات السكانية كانت تحدث بالصدفة ٠

وحين تطورت الثقافة اصبحـت التجمعات السكانيـة اكبر وأكثر عددا ، فان العزلة بين التجمعات السكانية أخذت تتلاشى تدريجيا ، ويبدأ تاثير التطور الثقافى علىقابلية التغيرالوراثىفىالظهور،اذ تبدأ التجمعات السكانية فى الاحتكاك عند انكسار العزلة بينها ومن ثم يبدأ عدم التجانس

الجينى فى الظهور وتصبح التجمعات السكانية اكثر تمايزا واختلافا فى الداخل فى حين ان الاختلافات بين هذه التجمعات بعضها وبعض يبـدأ فى الانحسار وتصبح اقل حده .

وهكذا يجد الباحثون اليوم عددا قليلا جدا من التجمعات الانسانية السكانية منعزلة ، فمعظم البشر يعيشون اليوم داخل وحدات اجتماعية معقدة للغاية ، ولذلك فان التطورات الثقافية التى بدات الحركة خلال العصر الحجرى القديم تنعكس فى توزيع التمايز الجينى الحالى اى ان القضية الاساسية التى يجب التاكيد عليها هنا تتمثل فى انه عندما تتطور الثقافة تزداد قابلية التجمعات السكانية للتغيرات البيولوجية ، ومن ثم فانه يمكن الحصول على نتائج هامة اذا اخذنـا فى الاعتبار العلاقـات المتبادلة بين الثقافة وبيولوجيا الانسان (١) .

ولايفوتنا ان ننوه أيضا الى ارتباط الغذاء والتغذية بالنظم الثقافية على ما سنوضح فيما بعد . وهذه العلاقـة تعكس أيضـا اهمية ربـط الانثروبولوجيا الثقافية والبيولوجية التى تدرس التغذيـة كفرع جديد بها .

الوراثـــة :

يقول رسول ﷺ « تخيروا لنطفكم فان العرق دساس» فكيف تنقل الاجيال خصائصها الى الاجيال التالية ؟

رغم أن هناك عديدا من نظريات الوراثة ، الا ان نظرية وراثـة الخصائص المكتسبة هى اكثر تلك النظريات قبولا .

ولكن مامعنى الوراثـة أولا ؟

ان هناك حقيقة واضحة تبدو أمامنا ، تتمثل فى اننا لانجد أبـدا

---

1) Paul Benjamin : op-cit., p. 328.

شخصين متشابهين ومتماثلين تمام التماثل والتشابه اذن فـان التنـوع هو سمه من سمات عالم الكائنات الحية . فما هى اسباب هـذا التنوع والتغاير الطبيعى ، حتى بين الاخوة رغم انحدارهم من ذات الابوين .

ان هذا التساؤل يجاب عليه عادة بما يسمى بنظريات الوراثة ، ولكن مامعنى الوراثة ؟

الوراثة هى الجبله الطبيعية التى يهبها الله جل وعلا للشخص ، او مايزود به الشخص تجهيزا طبيعيا ، وتفترض النظرية العامة للوراثة انتقال الصفات الوراثية من جيل لاخر بواسطة مـا يسمى بالجينـات والجين هو وحدة توارث الصفات وكلمة جين مأخوذة من كلمة بان جين التى قال بها دى فيرى الذى افترض أن كل كائن يمكن اعتباره من وجهة النظر الوراثية مجموعة صفات متناثرة ومستقلة . ثم افترض أن كـل صفة مرتبطة بجسيم يعمل على توارث هذه الصفة وسمى هذا الجسيم بان جين وقد ذكر ان كل خـلايا الجسم تحتـوى عـلى البان جينات الضرورية لبناء الكائن وكذلك تحتوى الخلايا الجينية على هذه المجموعة الكاملة وتقوم بنقلها الى الذرية بدورها ([1]) ، او ناقـلات الخصائص الوراثية وهذه الجينات توجد فى شكل ازواج فى كل وحدة من وحدات الجين ولكنها تكون مفردة من خلايا الجنس ، ويستقبـل الفرد نصف جيناته من احد والديه والنصف الاخر يستقبله من الآخر . وهنا فـان الوراثة ليست مايولد به الشخص ، لكنها مايتلقاه الفرد عند الاخصاب - اى هبة الله الوراثية للانسان كما يمثلها طراز الفرد الجينى - او البناء الجينى للفرد - الذى يعنى مجموعة مؤتلفه من العوامل الوراثية ([2]). وهو نفسه مايسميه البعض اليوم البرنامج الوراثى .

---

(١) رالف لنتون .. مرجع سابق ص ٤٩ .
(٢) مارسيل بلان : داروين ومندل ومورجان . ومولد علم الوراثة . مجلة ديوجين نوفمبر ٨٦ - يناير ١٩٨٧ ص ١٠٩ - ١١٧

والواقع أن الجينات ـ أى الذرات حاملات الخصائص والصفات الوراثية ـ لايمكنها القيام بدورها فى تطوير الفرد ككائن عضوى لـه وظائف بنائية فسيولوجية ، وسيكولوجيـة دون البيئة التفاعليـة التى يهبها الله لها ٠

فالصورة البنائية التى يظهر بها الكائن العضوى منذ ولادته هـى نتيجة تفاعل الجينات التى تحملها الحيوانات المنوية من الرجل ومن المراة وصدق الله اذ يقول : (فلينظر الانسان مم خلق ، خلق من مـاء دافق يخرج من بين الصلب والترائب ، انـه على رجعه لقـادر) ٠ فالجينات كائنات بالغة الدقة ولاترى حتى مع استخدام المجهر ويعزى اليها على ماقلنا انتقال السمات الوراثية والجينات يحملها ويمرهـا مايسمى بالكروموسمات ، والكروموسومات هـى كائنات خطيـة الشكل توجد فى الخـلايا الجنسيـة ، ويوجـد فى كل خـلية جنسيـة بشريـة ٢٤ كروموسوم ، وعلى ذلك فالبويضة المخصبة المؤلفة أصلا من التقـاء خلية ذكرية مع خلية انثويه تتألف من أربعة وعشرين زوجا من هـذه الكروموسومات ويتألف كل زوج مـن كروموسومه ذكريـة وكروموسومه انثوية ٠ وهذه تؤلف مايسمى بالطراز الجينى (أى المجموعة المؤتلفـة من العوامل الوراثية) ٠

وما ان تلتقى الجينات حتى يهيىء الله لها مايعرف باسم البيئـة الامية او بيئة رحم الام وهى بيئه محميه مظلمه دافئه [1] ٠ وهى بيئة بالغة التعقيد يتناولها القرآن الكريم فى مواضع كثيرة على ما سنرى ٠

وبجانب البيئة الرحمية ، فان البيئة التى تعيش فيهـا الام أى البيئة الخارجية تستطيع التأثير فى الكائن العضوى النامى داخل الرحم،

---

(١) هـ ٠ لاجير كرانتس ، ت ٠ ا سلوتكين ٠ كرب لمولود ٠٠ مجلـة العلوم ـ الترجمة العربية لمجلة العلوم الامريكية ، مارس ١٩٨٧ ص الكويت ص ٧ف

اذ يتاثر الجنين بعوامل من البيئة الخارجية التى تتعرض لها الام ومن هذه العوامل الاشعاع ، الاصوات العالية وغيرهـا حيث يمكـن لهذه العوامل الوصول مباشرة الى الجنين والتاثير فى تطوره دون ارادة من الام بالطبع ، ذلك أن ثمة ادلة كثيرة علمية تؤكد أن كثيرا مـن المنبهات الخارجية المختلفة يمكنها التاثير بدرجـة ملحوظـة فى تطور الكـائن العضوى فى البيئة الرحمية .

اذا كان البعض قد تساءل ايهما اكثر تأثيرا : البيئة أم الوراثة ؟

فالواقع انهما غير منفصلين أصلا بل همـا متكاملان ، والنظـر اليهما على انهما كذلك يهيىء الفهم الصحيح ، حيث ان هذا التصـور يساير طبيعة العلاقة بينها حين يركز على التفاعل ، وهو الصورة التى تعكس العلاقة الحقيقية بينهما وهذا التفاعل هو الذى يهيىء بالفعـل لعمليات تطور الكائن العضوى والتغيرات التى تطرأ عليه وهنا فـان الجينات تتفاعل مع جينات اخرى ، من ناحية وهذه الجينات بدورها تتفاعل مع البيئة المحيطة بهما معا ، بمعنى انه وان كانت الجينات بل والبيئة أيضا توجد بشكل منفصل فعلا الا انها بالنسبة للكائن الجديـد - نتاجهما - وتطوره فانها لاتوجد منفصلة مطلقا ، بل توجد دائمـا فى حالة من التفاعل وهذا التفاعل هو الجزء الاساسى فى عملية تطـور الجنين وهذا التفاعل ينتج تاثيرا متبادلا وتغيرات تمثل فى عمومها موجز لعملية التطور الوراثى التى تنتج تغيرافى أجزاء الكائن العضوى من حيث التعقد والنوع والعدد والشكل والتركيب والوظائف ، بمعنى أن الكائن العضوى يمثل الشكل البنائى الناجم عن تفاعلها معا ، بداية بالخليـة الجرثومية الى حالة البلوغ .

والعمل التجريبى الذى وجه الانظار الى نظرية وراثة الخصائص

المكتسبة (مندل) ([1]) ١٩٦٠ الذى بدأ عمله بمتابعة خضروات الحديقة حيث قام بزراعة نبات الباسلاء واثناء متابعته لاحظ ان هذه النباتات تختلف من واحدة لاخرى فى العديد من الصفات مثل الطـول ، اللون الخاص بالساق والغلاف ، وشكل الساق ، وغير ذلك . وقد كرر الاهتمام بالاختلافات الجيلية فقام باجراء تجربة على سبع من الصفات المزدوجة بحيث عندما كان الساق طويل/قصير كان الهجين أو النبات الناتج عنذلك فى الجيل الاول مستديرا كله وعندما يكون لون الطلع أصفر / اخضر كان النبات الهجين الناجم عنها أصفر كله . ولقد وصل مندل اخيرا الى انه حيث تظهر فى الهجين صفة من هاتين الصفتين ، فان الصفة التـى تظهر فى الهجين هى الصفة المسيطرة ، فى حين ان تلك التى لاتظهر هى صفة منتحيه . ومن مزيد من التجارب التى اجراها (مندل) فقد توصل الى قوانين ، وقال فى قانونه الاول :

١ ـ ان الخصائص الموروثة لدى جيل تنتقل الى الآخر بواسطـة جينات مختلفة تحتفظ بتأثيرها على الرغم من أن مظهر الخصائص لا يدل على وجودها .

٢ ـ أن الجزئيات أو الجينات حاملات الخصائص الوراثية يتـم الحصول عليها فى شكل زوجى ، احداها تاتى من كل واحد من الوالدين وانها تنتقل مفردة أو فى شكل مفرد الى الجيل التالى .

ثم توصل الى قانونه الثانى القائـل بأن المحددات تنتظـم فى عمليات الوراثة بطريقة مستقلة ([2]) . كل منها عن الاخرى .

وقد أصبحت قوانين (مندل) تشكل الاساس فى علم الوراثة وتفسير وفهم كيفية حدوث التشابه والاختلاف الراجعة الى عملية الوراثة . رغم

---

1) Kelso. ip-cit., p. (15).
2) Ibid, p. (17).

أن « مندل كان يجهل بعض قواعد علم الوراثة الحالى وانه فى المقام الاول يظهر فضل مندل فى اعتبار الكائنات الحية مجموعة متناثرة من الصفات الاولية التى تنتقل وراثيا بطريقة مستقلة ، وفى هذا المجال يتطابق علم الوراثة تماما مع اعمال مندل . ولكن على العكس من ذلك لم تكن لدى مندل فكرة واضحة عن الجينات أو سلالات الجينات (اشكال مختلفة للجينات خاضعة لقوانين مندل) ، وفى الجزء الاكبر من تقريره لايذكر مندل سوى الصفات الاولية الظاهرة للعيان (وهو ما يعرف بالمحتوى البيئى) ، وذلك مثل النعومه أو الخشونة فى حبوب البازلاء الخضراء (١) .

وقد اهتم (مولر) H.J. Muller ببحث نقطة اخرى ، فاذا كانت قوانين مندل قد فسرت الاختلافات بين جيل والجيل الذى يليه مباشرة، فقد ظل هنا تساؤل هام مؤداه : من اين تأتى الاختلافات الجديدة التى تطرأ على الجيل التالى ولم يكن لها وجود أصلا فى الجيل الاول (٢) ؟ ولقد قيل هنا بان هذه الاختلافات او التغيرات الجديدة تأتى نتيجة للتعديل أو التغير فى التركيب الجينى أو فى البناء الجينى وذلك مايسمى بالطفرة فى علم الوراثة الحديث ، فالطفرات تؤدى الى ظهور خاصية جديدة تماما ، فالفرد طبقا لنظرية فيرى تظهر عليه صفة جديدة بمجرد أن تكون فى جسمه مصادفة بان جين جديد عن طريق طفرة حدثت فى بان جين موجود لديه وفى هذه الحالة يكون لدى الفرد نوعان من البان جين كل منهما خاص بتحديد صفة موروثة محددة أو شكل آخر للصفة نفسها ، ومع وجود نوعين من البان جين احدهما سائد والاخر منتج تنتقل الصفة السائدة وتورث دون المتنحيه (٣) . ولكن سرعة حدوث طفرات عند الانسان الكائن تشكل عاملا هاما (٤) .

---

(١) مارسيل بلان .. مرجع سابق ص ١١٠

2) Ibid., p. 19.

(٣) رالف لنتون .. مرجع سابق ص ٨١ .

(٤) المرجع السابق ص ١١٥

ويشير بول البرت الى دور هام يمكن ان يؤديه الاهتمام بموضوع الوراثة فى الدراسات الانثروبولوجية الاجتماعية بقوله : « رغم قناعتى بأن الانثروبولوجيا كعلم انما يهتم اساسا بالجماعة اكثر من اهتمامه بالفرد الا انه يبدو لى أن الانثروبولوجيين اذا ارادوا ان يقدموا رؤية واضحة لاسباب اختلاف السلوك فى جماعة انسانية معينة ـ او فى تنظيم اجتماعى معين ـ مقارنا بسلوك جماعة اخرى ، فان عليهم أن يفهموا التفاعل بين النظم الاجتماعية والبيولوجية لكل جماعة . ويعتبر الاخفاق فى دراسة العلاقات بين سلوك الناس والبناء المورفولوجى والوراثى ، احد المشكلات التى تواجه الانثروبولوجيا فى حين أن العلوم التى تهتم بالفرد لم تهمل تلك العلاقة فالطب مثلا يربط بين علم الغدد الصماء والسلوك ، كما أن علم النفس لايشتمل على علم النفس الاجتماعى والسلوك الوراثى فقط ولكنه يتضمن أيضا علم النفس الفسيولوجى ، ولكن لايمكن القول مع ذلك ان هناك قدرا كافيا من المعلومات يمكننا من علاج الفجوة الموجودة بين الوراثة والسلوك فى الانثروبولوجيا . ويرى البرت أن بحث هذه العلاقة كفيل بمدنا ببيانات ومعلومات جديدة عن التنوع او التمايز بين البشر ، بجانب انه سيساعد فى فهم اسباب هذا الاختلاف لانه سيجيب عن سؤالين من وجهة نظر البرت ـ كيف يختلف الناس ؟ ولماذا يختلفون (1) .

ولقد كان عدم وجود قدر كاف من المعلومات التى تساعد على متابعة أسباب التباين بين البشر سببا فى استبعاد العلماء لبحث أسباب حدوث التباين بين بنى البشر . وركز هؤلاء العلماء على التباين ذاته وهو ما سنتناوله تفصيلا فى تناولنا للاجناس فى الفصل التالى :

---

1) Paul Albert, place of physiological studies in Anthropology, Physiological Anthropology, London, 1974 p. (8).

مجموعــــات الــدم

لقد وضح من التعريفات التى قدمناها للانثروبولوجيـا الفيزيقية أن هذا العلم يهتم بدراسة الجوانب الفيزيقيـة القابلة للملاحظـة فى الانسان ، ولذلك فان الانثروبولوجيين الفيزيقيين لايتخذون من هـذه الجوانب موضوعا لدراستهم الا تلك السمات أو الخصائص التى يمكنهم ملاحظتها بطريقة مجدية ، وقد وجدنا ثلاثة مجالات أو ثلاث مجموعات من الخصائص والسمات البيولوجية تشـكل مجالا للبحث الانثروبولوجى:

١ ـ الصفات والخصائص الخارجية مثل لون الشعر والجلد والعين ونسيج الشعر والملامح الاخرى التى يمكن ملاحظتها من الشكل الخارجى للانسان . ولكن مثل هذه الصفات والخصائص يصعب فى الواقع قياسها وتسجيلها تسجيلا كميا .

٢ ـ هناك خصائص وسمات أخرى اكثر دقة من ناحية القيـاس مثل طول القامة ، قياسات الراس المختلفة ، طول وعرض الانف وغيرها من الملامح والاختلافات الانثروبومترية التى يدرسهـا الانثروبولوجيون منذ زمن طويل (وسوف نعرض لهذا الموضوع فى جزء آخر من هـذا الكتاب) .

٣ ـ ثمة مجموعة أخرى من الخصائص لكن لايمكـن قياسها أو تحديد القدر الموجود منها لدى كل فرد مثل (الشعور) .

واخيرا ، فثمة مجموعة اخرى من الخواص لها أهميـة خاصة ، إذ يحكمها التأثيرات الجينيه ، والجين هو الاسم الذى يطلقه علمـاء الاحياء على ناقل الوراثة أو ناقل الصفات الوراثية أى أن هذه المجموعة وراثية ، وبالتالى فهذه المجموعة الاخيرة من الخصائـص ، تظهـر فى مجموعة من الافراد ولاتظهر فى مجموعة أخرى بالطبع ، ذلك أن هذه

الصفات لاتظهر فى الفرد مالم توجد على الاقل فى احد والديه ([1]) .

هذه اذن هى مجموعات اربع من الخصائص او السمات التى تشكل مجالات للملاحظة والبحث .

هذا والقسم الاول من هذه الخصائص - الصفات الخارجية - يمكن الاستفادة منها فى تحديد سلالة الفرد بالفحص المجرد ، رغم ان هذه المجموعة من السمات قد ساعدت فى هذا المجال بدرجة كبيرة من الدقة الا أن ثمة مايعيبها . فهى صعبة الحصر . ولذلك فان صعوبة حصر الملامح وتسجيلها جعلت الانثروبولوجيين الفيزيقيين يلجأون الى الاعتماد على المجموعة الثانية .

وقد وجد ان خصائص وسمات القسم الثانى يمكن بالفعل قياسها وتسجيلها بدقة اكبر ، وقد اعتمد الباحثون هنا على الملاحظة المتكررة، وقد أوضحت الدراسات أن الترددات التى توجد بها هذه الصفات تختلف من سلالة لاخرى وبالتالى فان مدى تردد هذه الصفات يمكن استخدامه كوسيلة للتمييز بين السلالات المختلفة .

وهنا فقد لعبت مجموعات الدم دورا هاما للغاية . فقد اكتشفت الدكتورة كارل لاند فى بداية هذا القرن مادة الانتيجانز Antegense وهى مادة توجد فى خلايا الدم وتختلف من فرد لاخر وتزودنا فئات الدم البشرى بمثال ممتاز يوضح كيفية انتقال العوامل الجينيه ، حيث ان وراثة الدم تنطبق على جميع السلالات والاجناس ([2]) . ثم وضع لاند ستينر Land Steiner نظاما لتصنيف الدم الانسانى . صنف

---

1) Wiliam C. Boyd, The Blood group and tyes, in phsical Anthr-.opology and Race, New York.1976, p. (78).

(٢) ولتون مارتون كروجمان .. مفهوم العرق .. معالم بكتاب الانثروبولوجيا والعالم الحديث مرجع سابق ص ٨٦ .

بمقتضاه دم البشر الى أربعة انواع او اربعة مجموعات ([1]) وبمقتضى هذا النظام فقد استخدمت مجموعات الدم فى تصنيف الجنس الانسانى الى أربع مجموعات مختلفة من حيث نوع الدم أو مجموعة الدم السائدة بها • وقد مثل ذلك الكشف أمرا هاما نظريا وعمليا ايضا (كما فى حالة نقل الدم مثلا حيث يجب الا يتم نقله الا عند تماثل نوع الدم مع دم المصاب) •

وقد اكتشف اثناء الحرب العالمية الاولى أن فصائل الدم تختلف بحسب الاصل السلالى وبالتالى فقد شكل هذا سلاحا جديدا بأيدى الانثروبولوجيين الفيزيقيين ويعتبر مجال فصائل الدم ، ودراسة الاجنة من المجالات الجديدة التى غزتها الانثروبولوجيا الجسمية بعد الحرب العالمية الثانية ، وقد مكنت هذه المجالات الانثروبولوجيا الفيزيقية من ان تزداد تعمقا فى الدراسات التى تتعلق بطبيعة الاختلافات بين الاجناس ([2]) • خاصة بعد ان أدرك الباحثون الحدود الصحيحة لاستخدامات هذه الصفة ـ مجموعة الدم ـ وبعد أن حلت الان معظم الالغاز الخاصة بهذا الموضوع •

وثمة عامل اضفى اهمية على استخدام مجموعات الدم فى التصنيف السلالى واضاف نوعين جديدين للتصنيف • ويتمثل ذلك فى اكتشاف الانتيجانز المسمى M - N والمصل المسمى Bh وهذا الاخير هو مادة كيماوية موجودة بالدم وقد ثبت أن هناك جينات ـ حاملات الصفات الوراثية ـ تدخل فى انتاج هذا التركيب وأنها سائدة فى معظم الناس • ويرتبط هذا العنصر بمجموعات الدم الاربعة التقليدية وهو يأخذ صفتين (سالب) و (موجب) بحيث أن دم الشخص يكون سالبا او موجبا بالنسبة لاستعمال هذا العنصر الكيمائى • وقد كان لاكتشاف

---

1) Partha P. Majumder. op-cit., p. 539.

(٢) عبد الحميد لطفى •• مرجع سابق ص ١٢ •

هذا العنصر أهمية خاصة ، ذلك انه فى حالة اختلاف الصفتين بين الابوين بحيث يكون أحدهما سالبا بالنسبة لهذا العنصر والاخر موجبا ، فانه يحدث غالبا أن يكون المواليد بعد الطفل الاول عرضه للموت بعد الولادة مباشرة الا اذا تم تغيير دم المولود وقد اقتضت حكمة الله هنا أن يكون حوالى ٨٥٪ من الحالات يحمل فيها الافراد (Rh) سالب وبذلك فقد قل خلقيا اثر الاختلاف بين الاباء فى هذا العنصر بشكل كبير . ومع ذلك فان هذا العنصر له اهمية اكلينيكية كبيرة لان اختلاف الابوين فى هذا العنصر قد يؤدى الى تكسر كريات الدم الحمراء وهو ما يسمى بانحلال كريات الدم الحمراء ويعتبر مجال فصائل الدم ودراسة الاجنة من تلك المجالات الجديدة التى خاضتها الانثروبولوجيا الجسمية .

ان الخاصية الاساسية التى تختلف فيها مجموعات الدم عن بعضها البعض هى خاصة التجلط او مايسميه علميا بظاهرة (التلزن) ذلك اننا اذا خلطنا كرات الدم الحمراء الخاصة بأحد الافراد بمصل دم من شخص آخر ، فانهما قد يمتزجان تماما كما لو كنا قد اضفنا لكل منهما مصلهما الخاص بهما ولكن قد لايحدث ذلك بل يحدث أن تتجمع كرات الدم الحمراء الخاصة بأحدهما وتكون جلطة دموية . وهذا مايسمى بعملية (التلازن) .

وعندما يحدث أن تلتحم كريات الدم الحمراء هذه وتكون عجينة متماسكة فان ذلك يعرف باسم تجلط الدم أو تلزنه ، وهنا فان تقسيم مجموعات الدم الى أربع مجموعات انما يعتمد على حقيقة محدده هى أن هناك نوعين مختلفين من كريات الدم من حيث تعرض قوامها للتجلط ويرمز لهما بالرمزين : المجموعة (A) والمجموعة (B) وعندما لاتجد خصائص كلاهما فان هذه هى مجموعة الدم (O) وعند حضورهما معا نطلق عليها المجموعة AB ومن هنا يصبح لدينا أربع مجموعات من مجموعات الدم اصطلح على تسميتها أو الرمز اليها عالميا بالرموز التالية :

الفصيلة (O) والفصيلة (A)

الفصيلة (B) والفصيلة (B و A)

وحيث قلنا ان وراثة الدم تنطبق على جميع السلالات والعروق فان هذا يعنى أن جميع فئات الدم توجد فى جميع السلالات والعروق بحيث لاتختص مجموعة بشرية بمجموعة دم معينة ، وهذا يعنى أن جميع مجموعات الدم توجد لدى جميع الشعوب ، ولكن فى مجموعات متباينة أو مختلفة النسب (أى انها توجد بنسب متفاوتـه فى السلالات المختلفة) وان الفرق فى مجموعات الدم هو فى ذاته مجرد تفاوت نسبى يتمثل فى رجحان (AB أو (A) أو (B) أو (O)

ومن المعروف ان المجموعة (O) تتميز بأن كريات الدم الحمراء بها ليست حساسه للتلزن فى حين كريات الدم الحمراء فى المجموعات الاخرى قابلة للتلزن والالتحام أو التجلط ، بمعنى أن مجموعة الدم التى يرمز لها بالرمز (A) بها كريات دم حساسة أو تحدث رد فعل لمصل تلزن معين يعرف باسم مضاد أو الفا Alpha وان هذا المضاد يحدث رد الفعل هذا فى مجموعتين للدم هما : AB'A

اما المجموعة (B) وكذلك المجموعة (AB) فانهما حساستان لمصل آخر يسمى مضاد (B) أو بيتا Beta وهو المصل الذى يمتلك مثل هذه المادة الملزنة . وهنا يوضح قانون لاندستنر انه قد ثبت ان المزنات أى العناصر المسببه للتلزن ترتبط فسيولوجيا بمجموعة الدم محل البحث. وهذا القانون يعبر عن العلاقة بين المصل الملزن ومضاد (A أو الفا ، ومضاد (B) أو بيتا وخصائص كريات الدم للفرد ، وهذا ويمكن تحديد أو تعيين نوع مجموعة الدم باجراء اختبار لكرات الدم الحمراء للفرد سواء فى انبوبة اختبار أو على شريحة زجاجية وذلك بواسطة متابعة رد فعل هذه الكرات للانتيجينز أو مضادات (B) ، (B) وعن طريق نوع التفاعل يمكن تحديد مجموعة الدم .

هذا وقد اكتشفت مجموعات دموية جديدة عام ١٩٢٧ أطلق عليها مجموعات M-N وقسم الدم الى مجموعات على أساس نظام سمى M-N وهنا وجدنا أن الدم البشرى قد قسم الى ثلاثة مجموعات هى : N و MN و M وقد تم التصنيف هنا على اساس مدى نسبة وجود ازواج من الجينات التى تسمى Allelomorphic وهى ازواج من الجينات تحمل الجينه فى كل زوج منها صفة وراثية مضادة للصفة التى تحملها الجينه الاخرى ([1]) . عموما فاننا نود أن نذكر القارىء ببعض الحقائق المرتبطة بمجموعات الدم ، لقد أوضحت الدراسات أن هناك أربع مجموعات ، هى (O و A,B و AB) وان ثلاثا منها فقط توجد بها مادة تولد الاجسام المضادة وهذه المجموعات هى (AB و B و A) بحيث لايمكن نقل دم مجموعة معينة الى شخص يحتوى دمه على مضاد لهذه المجموعة بحيث لايمكن مثلا نقل دم من النوع (A) لشخص يملك دما من النوع (B) لان جسم الاخير يحتوى على جسم مضاد لهذا الدم . اما المجموعة الرابعة فليس لها أجسام مضادة .

وحيث أن مجموعة الدم تورث عن طريق الوالدين ، وحيث أن كل صفة من الصفات الوراثية يتم توريثها عن طريق اثنين من الجينات ـ اى حاملات السمات الوراثية ـ من جيل الابويين ولذا سوف يكون لدينا الاحتمالات التالية :

فقد ينتمى جيل الوالدين الى المجموعة (A) بحيث أن المرء يكتسب جينتين من النوع (AA) من والديه ، وفى هذه الحالة ينتمى الى المجموعة (A) وقد يكون جينيهما التى يكتسبها المرء (BB) فينتمى الفرد الى المجموعة (B) وقد يكون الجينيين من النوع (OO) فينتمى المرء للمجموعة (O) ، اما اذا كانا (AO) أو (BO) فان مجموعة

---

(١) شاكر عبد السلام .. المدخل الى الانثروبولوجيا بغداد ١٩٧٥ ص ١٦٥ .

دم الابن تكون (A) فى الحالة الاولى وتكون (B) فى الحالة الثانية ، وذلك لان الجين (O) هو جين منتمى الى المجموعة (AB)

واذا كان موضوع الانثروبولوجيا الفيزيقية هو دراسة الاختلافات والتمايز الفيزيقى فى الانسان ، فماذا عن توزيعات الدم سلاليا ؟

ان الاجابة على هذا السؤال تتمثل فى متابعة توزيع مجموعات الدم على الاجناس والمجموعات البشرية المختلفة ، وقد ثبت هنا أن ثمة أختلاف فى توزيع مجموعات الدم من مجموعة بشرية الى أخرى . فلقد وجد مثلا أن مجموعة الدم (O) توجد بين ٣٥ر٤٠٪ من الاوروبيين فى حين أنها تسود تماما بين هنود امريكا ، فهى تصل الى حوالى ٩٠٪ بينهم ، فى حين لانجد بينهم اطلاقا مجموعة الدم (B) ، كذلك اثبتت الدراسات أن مجموعة الدم (B) لاتوجد اطلاقا بين الاستراليين الوطنيين .

ويكشف التداخل بين هذه المجموعات عن مدى الاختلاط والامتزاج بين الجماعات السلالية . واذا كانت المهمة الاساسية للانثروبولوجيا الفيزيقية هى تفسير الاختلافات البيولوجية فى الانسان فان العلم لم يبلغ بعد مرحلة التفسير المقنع ولعل هذه مشكلة يغطيها العلم مستقبلا . اما الان فانه من الافضل التركيز على ابراز الاختلافات بين المجموعات البشرية اليوم وماكانت عليه هذه الاختلافات فى الماضى .

اما من حيث الاختلافات بين الجماعات البشرية فى مجال مجموعات الدم فقد كشفت الدراسات عن درجة أختلاف كبيرة بين الجماعات البشرية فى هذا المجال الا أن هذا الاختلاف لم يصل الى المستوى الذى يمكن معه اتخاذ مجموعات الدم كمعيار للتمييز بين العناصر البشرية (وهو الهدف الاساسى الذى كان ينشده العلماء من تركيزهم على مجموعات الدم) فقد أوضحت الدراسات العديدة عن

مجموعات الدم أن جرعات الدم بكافة أنواعها O و B و A و AB) توجد بين ـ بدون انتظام ـ المجموعـات البشرية وانهـا موجودة او موزعة فى اغلب سكان الارض المعاصرين بنفس المعدل تقريبا (١) ولذلك يقول ميردوك مثلا بتماثل توزيع مجموعات الدم بين اجناس افريقيـا الخمسة (٢) . ولهذا فان مجموعات الدم لم تقدم معيارا او اسـاسا صالحا لتقسيم البشر الى اجناس أو جماعات بشرية متباينة . وان كان ذلك لم يمنع البعض من متابعة توزيع مجموعات الدم تفصيليا ، وهـو العمل الذى نوجزه فيما يلى :

لقد أوضح البعض مثلا أن مجموعـة الدم المسيطرة تماما عـلى الهنود بالولايات المتحدة هى المجموعة (O) حيث بلغت ٩٥٪ بين هؤلاء الهنود ، وعدم وجود المجموعة (B اطلاقا بين الاستراليين الوطنيين. وهو دليل على عدم أو قلة الاختلاط بالغير .

فى حين عبرت مجموعات الدم بين الاسكيميين عن كثافة اختلاطهم الهائل بغيرغهم حيث كشفت فحوص مجموعات الدم بين عينـة مـن الاسكيميين عن البيانات التالية :

جدول يوضح مجموعات الدم بين عينة اسكيمية عددها ٣٧٧ شخص (١)

مجموعة الدم	O	A	B	AB	M	MN	N
النسبة المئوية	٣٦ر٣٤	٥٤ر٦٤	٠ر٥٣	٣ر٧١	٩٧ر٦٤	٢٩ر٩٧	٢ر٣٩

(١) شاكر عبد السلام .. مرجع سابق ص ٣٠

2) Gearge Peter Murdock, Africa, Ncgraw - hill book Co., in., New York, 1959. p. (7).

1) William C. Boyd. op - cit., p. 84.

أما بالنسبة لمجموعات الدم الاخرى فقد اثبتت الدراسات ان ترددات العنصر (N) قليل بين الامريكان الاصليين فى حين ان ترددات العنصر M عالية بينهم ، وفى حين نجد تباينا فى توزيع هذين العنصرين بين الامريكان الاصليين ، فاننا نجد هذين العنصرين يترددان بشكل يكاد يكون متساو بين الاسيويين والاوربيين ، بينما وجد ان تردد العنصر N يتميز بزيادة ملحوظة بين الاستراليين الاصليين .

وعلى الرغم من ان توزيع هذه الجينات لم يكن موضوعا لبحث شامل الا ان لدى الباحثين الان معرفة معقولة بتوزيعات الجين (Rh) وكذلك الجين (Rh) السالب ، الذى قد يكون مسئولا عن أمراض كرات الدم الذى يحدث فى أوربا بنسب ١٣ – ١٦٪ بل ويصل الى ٢٩٪ بين الباسك ، وقد وجد ان جين (Rh) السالب ليس له وجود فى آسيا والاصول الاسترالية وجزر الباسفيك ، اما فى افريقيا فانها مقسمه الى شطرين بالنسبة لهذا الجين فيوجد جين (Rh) فى نصفها .

وكذلك فان متابعة بقية أجزاء العالم قد كشفت عن الاختلاف فى توزيع هذا الجين على المجموعات البشرية ، فبين الهنود الامريكيين الذين أتوا من آسيا عن طريق الهجرة ينتظر ان يكون جين (Rh) قليل الانتشار بينهم ، وقد اثبتت البحوث على قبائل (الفاماهو) الهندية والتى درسها العالم (بويد) انه لايوجد بينها جين (Rh) السالب ، وقد اظهرت الدراسات التى اجريت على اية حال على الامريكيين والاسيويين وجود نوعين من جين (Rh) هى Rh1 و Rh2 وان هذين النوعين يعطيان ثلاثة انماط من الجينات فهناك : (Rh2 Rh1) (Rh2)/(Rh1) (Rh1)/(Rh2) تماما مثلما وجدنا ان هناك جينات MN'N'M

والآن هل اصبحت مجموعات الدم معيارا صالحا لتصنيف الاجناس ؟

يجيب البعض على ذلك بقولهم (لقد ثبت فعلا ان ثمة توزيع

متباين لمجموعات الدم على المجموعات البشرية والاجناس المختلفة ، الا ان تفسير ذلك اصبح الان المطلب العلمى الملح ٠

واذا كان هذا الراى يرى امكانية ملاحظة توزيع فئات الدم فى مجموعات السكان المختلفة التى يعتقد انها تمثل اجناسا بعينها ، الا ان نتائج ذلك غير حاسمة ، لان هناك جماعات بشرية مختلفة اختلافا شديدا من الناحية البدنية ولكنها متطابقة من حيث فئات الدم ، فقد ثبت مثلا ان الاقزام من زنوج الكونغو ، وبيض ايران تتطابق بينهما فئات او مجموعات الدم رغم الاختلاف البدنى الكبير بينهما بل لقد وجد ان فصائل الدم (A.B.O.AB) الموجودة بين البشر موجودة ايضا بين القردة العليا (١) وشتان بين البنيه الفيزيقية بينهما ٠

ورغم ذلك فان البعض قد اشار الى بعض الجوانب الاجتماعية والعرقية بل والدينية المرتبطة بتوزيع مجموعات الدم ٠ فقد اوضحت دراسة عن توزيع مجموعات الدم فى شبه الجزيرة الهندية الى توزع عنقودى Clustes لمجموعات الدم ٠ بحيث وجد الباحث معظم المجموعات القبلية tribal groups التى تتحدث عائلة لغوية واحده ، وقد ترجع الى جذور عرقية واحدة تظهر تجانسا فى مجموعة الدم التى تسود بين افرادها (٢) وبمعنى آخر فثمة علاقة بين تجانس مجموعات الدم والمتغيرات الجغرافية والدينية والاجتماعية (٣) ، وبالطبع لايمثل هذا تفسيرا لتوزيع مجموعات الدم فى الهنود اذ لايقدم تبريرا سببا لهذا التوزيع بل انه مجرد تحليل احصائى للبيانات التى حصل عليها من تحليل الدم وتصنيفه الى مجموعات بين عدد كبير من

---

(١) ارثر جريجورى : الانسان عبر التاريخ ٠٠ ترجمة انور الدين الزرارى ، القاهرة ١٩٧٨ ص ٤٣ ٠

2) Partha P. Majumeder and J. Roy. Ibid p-cit., p. 545.

3) Ibid., p. 539.

سكان شبه القاره الهنديــة [١] رغــم ما يؤكده البــاحث من أن هــذه العناقيد أو المجموعات العنقودية ليست متجانسه فقط احصائيا ، ولكنها متجانسة بالنسبة لمعايير اخرى فهى متجانسة جغرافيا واجتماعيا ودينيا.

(١) أوضح الباحث انه قد اعتمد على بيانات Data جمعها من مصادر عديدة منها التقارير المنشورة وغير المنشورة ، واشار ان التقارير التى اعتمد عليها هى التقارير الخاصة بتصنيف السكان حسب مجموعات الدم منذ بدأت الهند تقوم بذلك أى منذ عــام ١٩٣٠ بجانب انه رجع الى الدراسات التى أجريت على مجموعات الدم بالهند حتى عام ١٩٧٧ .

الفصـل السادس

الاثنروبومترية القياس البشرى

---

(١) كتب هذا الفصل الدكتور / عبد الله عبد الغنى غانم ٠

ماذا يعنى بالانثروبومترية ؟

ان مصطلح الانثروبومترية مشتق من مصطلحين ، او كلمتين : الكلمة الاولى هى (انثروبو) وتعنى الانسان كما سبق واوضحنا . والكلمة الثانية هى (مترى) وتعنى القياس . وبذلك فان هذا المصطلح اى مصطلح (الانثروبومترية) يعنى القياس البشرى .

ونستطيع ان نشير الان الى عدة مجالات تفيد وتستخدم فيها البيانات الانثروبومترية وهى :

أولا : الدراسة الكمية للانسان .

ثانيا : دراسة البقايا الحفرية .

ثالثا : الاستخدام التطبيقى للقياسات فى مجال الصناعات المختلفة والملابس وغيرها من السلع التى تنتج للاستخدام البشرى .

ونتناول كل من هذه الموضوعات ببعض التفصيل على النحو التالى :

أولا : الدراسة الكمية للانسان :

وهذا هو المجال الرئيسى من وجهة نظرنا للانثروبومترية . ويرتبط علم القياس البشرى بفكرة الجنس أو العنصر أو المجموعات البشرية ، ويهمنا ان نوضح اولا ان مصطلحات مثل الجنس او العنصر ليست مصطلحات محددة تطلق على جنس حقيقى محدد ، ذلك انه لايوجد جماعة بشرية نقية نقاءا تاما حقيقيا ، فقد اختلط البشر منذ القدم وتداخلوا او تزاوجوا بحيث لم يعد هناك جنس نقى حقيقى ، كما نجد ان مصطلح جنس اصبح «مصطلحا نظريا» ـ الى حد بعيد يشير فقط الى غلبة وسيطرة ووضوح سمات جسمية محددة على جماعة بشرية معينة تميزها وعلى ان تكون هذه السمات قابلة للانتقال بالوراثة بين اجيالها ، على ان فكرة تصنيف البشر الى مجموعات على

اساس سيطرة صفات مجردة ليس امرا ميسورا سهلا وذلك ان هذه وهى الاهم فى الواقع ـ فان هذه الصفات تتداخل مع غيرها من الصفات تتعدد وتتنوع بشكل كبير هذا من ناحية ومن ناحية اخرى ـ الصفات بطريقة غير منتظمة اذ يختلط اللون الواحد مع اطوال مختلفة للقامة . وكذلك شكل الانف وشكل الراس وغيرها .

ولكن بالرغم من تداخل هذه الصفات فقد اتخذت بعض الصفات اساسا لتقسيم البشر الى جماعات بشرية ملائمة : الابيض (القوقازى) الاصفر (المغولى) ، والاسود (الزنجى) على ما سنرى تفصيلا فى تناولنا للاجناس .

وقد حدد البعض الصفات الجسمية التى اتخذت اساسا للتصنيف البشرى على انها هى لون البشرة ، شكل الراس ، طول القامة [1] . على اساس ان ثمة صفات فرعية ترتبط بها فى حين ابرز البعض الاخر كل صفة على انها رئيسية ، فاشار الى عدة صفات محددة فى هذا الصدد هى :

١ ـ طول القامة ووزن الجسم .
٢ ـ عرض وطول الراس والنسبة بينهما .
٣ ـ عرض وطول الانف .
٤ ـ لون البشرة .
٥ ـ شكل الشعر (لونه وكثافته) .
٦ ـ شكل الوجه .
٧ ـ بروز الفك .

ونفضل مناقشة الموضوعات الاربعة الاولى كل على حده ، وذلك لانها كانت موضع اهتمام علمى كبير ، ونتناول الخصائص الثلاثة

---

(١) عبد الحميد لطفى .. مرجع سابق ص ٤١ .

الاخيرة ضمن موضوع الاجناس حيث يتناولها الباحثون عادة بشكل مريع فى ضوء المقارنة بين الاجنـاس بالذات أو لم يفرد لهـا بحـوث كثيرة مستقله .

ونتساءل اولا : ماهو دور الانثروبومترى فى هذه الموضوعات ؟

ان الانتروبومترى هو العلم أو الفـرع الذى يهتم بقياس وعـد واحصاء هذه الصفات ولذا فانه يلعب الدور الاساسى فى عملية التصنيف هذه ، اى بعملية تقسيم البشر الى مجموعات او اجناس بشرية . ذلك ان تحليل كل من القوام والوزن وعرض وطول الرأس وعرض الانف يعتمد اعتمادا كليا على التحليل الاحصائى لتوزيع هذه الصفات ، وبذلك فان محاولة تصنيف البشر الى مجموعات متمايزة على اساس الخصائص والصفات المقاسة وعلى اساس اختلاف هذه القياسات بين هذه الجماعات يماثل تماما تصنيف البشر الى مجموعات دموية ، عـلى ما راينـا فى دراسة مجموعات الدم ، ولاننسى بالطبع الاشارة الى ان هناك صفات بشرية يمكن ملاحظتها بالعين المجردة كاللون فهى لاتحتاج الى قياس . ولكن ماهو تعريف القياس ؟

تعريف القيـــاس البشرى :

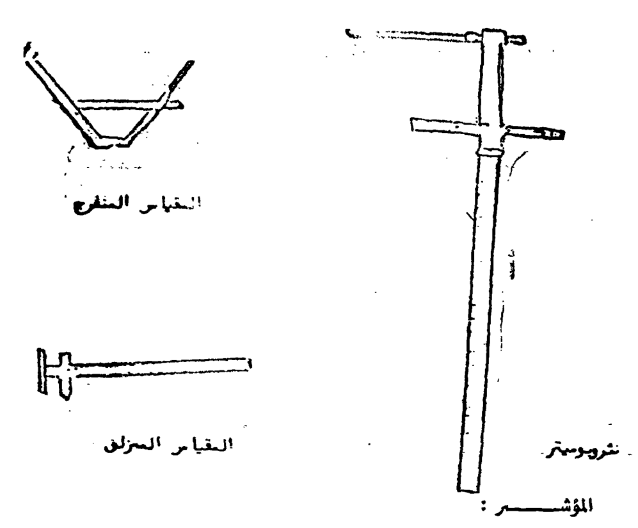
ومعنى القياس هنا هو تكوين مجموعة من المفردات ذات قياس واحد ، وبمعنى أصح انها تعبير عددى عن فئات ذات مقياس مستقل ، متميز عن مفردات تنتمى لفتـرات قياسـية أخرى وليس معنى ذلك ان مفرداتها تماما فى الصفة التى يتم قياسها . ولكن معناه ان مجموعـة افراد هذه الجماعة متقاربون بحيث يكن وضعهـم ضمن فئة قياسـية واحدة . فمثلا طوال القامة من البشر هم أولئك الذين يتراوح طولهم بين ١٦٨ ، ١٧٢ سم . وقصار القامة يتراوح طولهم بين ١٤٨ - ١٥٨ سم وهكذا بقية الصفات على ما سنرى . واذا كانت الانثروبومترية قـد لعبت دورا هاما فى عملية تصنيف البشر هذه الى جماعات واجنـاس

مختلفة ، فانها فى الواقع قد واجهت بعض الصعوبات فى هذا الصدد ، ذلك انها تستند الى مقولة أساسية هى أن الصفات والخصائص تنتقل بالوراثة بين الاجيال المختلفة ، ولا يوجد دليل قاطع عن كمية الصفات الموروثة بين البشر ولكن كل ما هنالك هو نظريات عامة للوراثة . ولذلك فقد اشار ميردوك الى أن الاجناس اى معايير القياس البشرى anthropometric ومعايير الجسم أو الهيكل البشرى Somatology قد أصبحت موضع شك . بحيث وجدنا الانثروبولوجيا الفيزيقية تتحول وتركز على العوامل الوراثية (١) .

ولقد استخدمت فى عمليات القياس البشرى وحدات قياسية مختلفة مثل البوصة والرطل ، السنتيمتر . كما استخدمت الادوات فى عملية القياس ، كما استخدمت مصطلحات ذات دلالة متعارف عليها فى هذا المجال الان .

والرسم التالى يوضح بعض الادوات المستخدمة فى عملية القياس البشرى (٢) :

1) George Merdok. op-cit., p. (7).
2) A. J. Kelso, Physical Anthropology Blppincott comp., New York, 1974- p. 224.



المؤشـــــر :

وهو مصطلح هام فى الانثروبومترية ، والمؤشر هو التعبير العددى عن العلاقات النسبية بين اثنين او اكثر من الاحجام او المقاييس ومـن امثلة ذلك :

المؤشر الراسى وهو يشير الى النسبة بين طول الراس وعرضه .

والمؤشر الافقى يشير الى النسبة بين طول وعرض الانف .

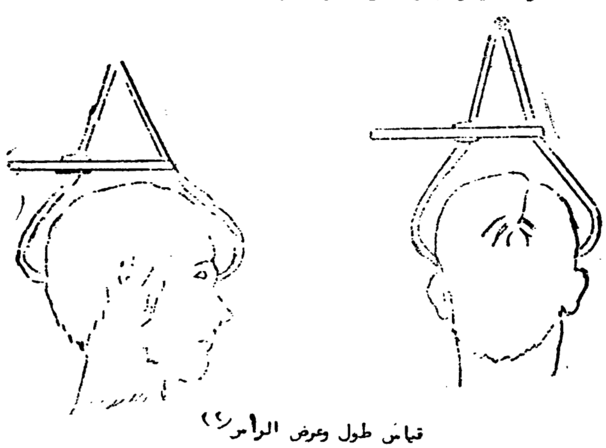
واذا كان القياس والمؤشرات يعبران عن الاختلافات الكمية بـين البشر ، فثمة طريقة اخرى غير القياس تستخدمها الانثروبومترية وهى الملاحظة .

ومن امثلة المعلومات التى تعتمد على الملاحظة فى هـذا المجـال

وصف الشعر مثلا : مستقيم : قليل التجاعيد ، مجعد ، شديد التموج ، ممعقد او خشن (صوفى) ٠

هذا وكثيرا ما تحولت فى هذا العلم المعلومات التى تعتمد فى تحصيلها على الملاحظة الى معلومات تجمع باستخدام احدث الآلات ، فمثلا لون الجسم كان فى الماضى يعتبر معلومة تعتمد على الملاحظة ولكن مع التقدم التكنولوجى اصبح قياس لون الجسم تتم فى صورة وحدات ضوئية معكوسة ، وايضا فان مايمكن وصفه اليوم من الصفات بالكميات او بالطرق الكمية قد يمكن قياسه بالنوعيات فى الصغر المستقبل٠

ونستطيع ان نتابع بعض الخصائص أو الصفات البشرية كما تناولنا القياس البشرى على النحو التالى :



قياس طول وعرض الرأس(٢)

1) Ibid., p. 230.

١ ـ القـامة ووزن الجسـم :

تتراوح قامة الانسان بين الطويل جدا والقزم ٠ وتتراوح الاختلافات فى الانسان عموما بين ١٤٠ سم الى ١٨٥ سم ، وهناك خمسة تصنيفات لطول القامة فهناك الاقزام وهم أولئك الذين يقل طولهم عن ١٤٨ سم، والقصير القامة ويتراوح طوله بين ١٤٨ ـ ١٥٨ ، ثـم متوسط القـامة ويتراوح طوله بين ١٥٨ ـ ١٦٨ سم ، والطويل القامة ويتراوح طولـه بين ١٦٨ ـ ١٧٢ سم ، ثم الطويل جدا ويزداد طوله عن ١٧٣ سم ٠

ويمكن أن نتابع ماتتميز به القامة بين اجناس البشر من تباين ، واختلاف اطوال البشر فى أنحاء العالم باستعراض متوسط طول القامة والانحراف المعيارى فى المناطق الكبرى فى العـالم وذلك على النحـو التالى : (١)

المنطقـــة	متوسط طول القامة بالسم	المقياس الانحرافى بالسم *	العينة
افريقيـا	١٦٤ر٩	٢٤ر٧	١١٥
آســيا	١٦٣ر٠	١٣ر٤	٧٤
أوربـــا	١٦٧ر٢	٣ر٠٠	١٤٩
الصـــين	١٦٧ر٣	٢٤ر٥	٢٦
الهنود الامريكين	١٦٣ر٧	٥ر٧٩	٥٥

ويوضح الجدول ان أوربا تتميز بدرجة عالية وثابتة مع وجـود نسبة صغيرة من التغير ٠ وينتمى الاوربيـــون الى العنصر القوقـازى الذى يتراوح طوله بين ١٦٠ ـ ١٧٠ سم ويتركز قصار الاوربيين فى الجزء الشمالى من السويد والنرويج وفنلندا أى أنهم فى الدول الاسكندنافيه ، وعموما فان قصار القامة فى أوربا هم من سكان اللاب بشكل عام،حيث أن

* المقياس الانحرافى شكل يشير الى اختلافات القياس بين الجماعة البشرية ٠

1) Ibid, P. 225.

سكان أوربا من غير اللاب يتسمون بطول القامة بشكل عام فى حين ان متوسطى وطوال القامة يوجدون فى المناطق الوسطى من اوربا . امـا فى الجنوب فان نسبة القامة لاتظهر اختلافا كبيرا .

فى حين وجدنا أن توزيع طوال القامة يأخذ شكلا بسيطا فى أوربا ، فاننا نجد هذا التوزيع فى آسيا معقدا ، كما انه يتميز بمدى واسع من التغاير والاختلاف وقد أوضحت الدراسات التفصيليـة لتوزيع القامـة والوزن ويوضح توزيع طول القامة ان اقصر الاسيويين قامة يوجدون فى شمال وجنوب آسيا . كما تبين أن طول قامة الاسيويين تأخذ فى التناقص التدريجى من غرب القارة الى شرقها ، هذا وثمة علاقة احصائية تبين طول القامة وخطوط الطول بين سكان آسيا بشكل عام (٠٥١ر) (١) .

ويوضح الجدول التالى ذلك كله .

جدول يوضح متوسط طول القامة بين الشعوب الآسيوية (٢) .

المنطقة	متوسط طول القامة بالسم	المقياس الانحرافى بالسم	عدد العينة
الملايووفنزويلا	١٥٥ر٦٢	٣ر٩٢	١٦
جنوب آسيا	١٥٨ر٨٢	٢ر٣٢	١٤
جنوب شرق آسيا	١٦٠ر٣٢	٣ر١٠	١٧
الهند (السواحل)	١٦٢ر٦٧	٢ر١٣	٣
الشرق الاقصى	١٦٢ر٩٧	١ر٩٨	٨
أواسط آسـيا	١٦٤ر٣٠	٢ر١٤	٩
لهند ـ أماكن مختلفة	١٦٤ر٣٠	٣ر٥٣	١٣
ايـــــران	١٦٥ر٢٨	٢ر٥١	١١
آسيا الصغرى	١٦٧ر٢٦	١ر٨٠	٩

1) Ibid, p. 226.
2) Ibid., p. 266.

اما عن طوال القامـة بافريقيـــا :

فنفضل ان نبدأ باستعراض البيانات التالية :

أوضحت الدراسة الانثروبومترية ان طول واقصر شعوب افريقيـا يقطنون تقريبا بين خط الاستواء وخط العرض ١٠ شمالا ٠

جدول يوضح متوسط القامة بين الشعوب الافريقية (1) ٠

المنطقـــة	متوسط طول القامة بالسم	المقياس الانحرافى	عدد العينات
جنوب افريقيـا (رجال الاحراش)	١٥٧ر٩٣	٢ر٨١	٤
البانتو الشمالين (الاستوائيين)	١٦١ر٩٥	٧ر٤٠	٤٢
مدغشقر والمحيط الهندى	١٦٤ر٥٥	ر١	٤
شمال افريقيا	١٦٦ر٦٤	٣ر٩٠	١٤
شرق افريقيا	١٦٨ر١٧	٢ر٧٠	٢٦
الصحراء الكبرى	١٦٨ر٦٤	٣ر٢١	٩
اقليم البانتو الاوسط	١٦٨ر٧٥	٢ر٣٥	١١
غرب افريقيـــا	١٦٩ر٠٧	٣ر٦٥	٣٠
شرق السودان	١٧٣ر٧٦	٥ر٨٥	١٤

ويوضح هذا الجدول ان ثمة علاقة واضحة بين التجمع حول خط الاستواء وبين طول القامة ٠ فمعدل طول القامة يزداد كلما تقدمنـا جنوبا او شمالا من خط الاستواء ٠ وثمة دلائل على أن سرعة هـذا

1) Ibid., p. 227.

المعدل تزداد كلما اتجهنا شمالا بالمقارنة بما يحدث عند الاتجاه نحو الجنوب . فقبائل الدنكا مثلا تتميز بقامة طويلة جدا تصل الى ٥ اقدام وعشر بوصات للذكر البالغ وتصل قامة ابناء قبائل (الجالا) ٥ اقدام وثمان بوصات (٢) .

وثمة دراسات تفصيلية مقترنة باحصاءات انثروبومترية قد اجريت على شعوب الباسفيك وتابعت توزيع طول القامة وانتهت ايضا الى انه كلما زدنا ابتعادا عن خط الاستواء شمالا أو جنوبا تزايد معدل القامة بين هذه الشعوب . كما اجريت دراسات مماثلة عن متوسط القامة بين الهنود الامريكيين وغيرها .

وقد انتهت هذه الدراسات الى ان توزيع طول القامة فى بقاع العالم المختلفة قد تميز فى كل بقعة بميزة محددة .

ففى آسيا نجد ان القامة لها علاقة بخطوط الطول ، فى حين ان علاقتها بالعرض أوضح فى افريقيا . أما فى الباسفيك فان لها علاقة مع الطول والعرض .

ان خط الاستواء ذو اهمية خاصة لطول القامة ، عموما فان القامة هى سمة معقدة تخضع للتاثيرات البيئية وترتبط اساسا بالجينات الوراثية . ولكن فى الوقت الذى لم تتحدد فيه بدقة بعد مدى كفاءة الجينات فى توريث القامة فثمة من ربط منذ زمن بعيد بين خاصية طول الجسم والمناطق الحارة وذلك على اساس الربط بين حرارة الجسم وحجم الاطراف فى الاجزاء الاخرى ، ففى المناطق الشديدة البرودة مثلا نجد ان الانف والاذنين واصابع اليدين والقدمين تكون دقيقة وقصير عن تلك التى تكون بين الانواع قاطنى المناطق الحارة ، كما

---

2) george peter Murdock, op-cit., p. (9).

استنتج البعض ايضا ان الانـواع غير البشرية والمتاقلمـة على العيش بالمناطق الباردة قصيرة مستديرة بالاضافة الى تداخل طفيف فى خطوط الارتفاعات الخاصة بالاطراف ، اما قاطنو المنطق الدافئة فانه يتوقع أن يكونوا أكثر طولا . وبالطبع فان الوضع يختلف فى حالة الانسان ولاتصبح هذه الاقوال المبسطة والعامة كافية ومناسبة لوصـف الطرق التى يتكون بها جسم الانسان بسبب تقدمه الثقافى .

واذا كان العلماء قد ركزوا على دراسة طول القامة ، فان البعض منهم قد ركز على الوزن - اى وزن الجسـم الانسانى . ومثـال ذلك السمنه ، وقد تطور ذلك الى قياس الجسم ، واستخدمت صور الاشعة لمعرفة تاثير وزن العظام بالنسبة الى حجم ووزن الجسم .

ولكن هناك على مايبدو علاقة واضحة بين البيئة وبنية الجسد ، فثمة بنية يبدو انها قد تشـكلت للعيش فى اقليم جـاف حار المنـاخ ، فالانسان العربى من البشر مثلا (والزرافه من الحيوان كذلك) يجدان صعوبة فى بلاد الجليد والصقيع ، ذلك أن القبائـل التـى تعيش فى الصحراء يمتاز افرادهـا بطول القامـة والنحافـة ورقة العظام ودقـة اليدين والقدمين ، ومن ثم فان تكوين بدنه يعطيـه اقصى حـد مـن الطبقة الجلدية (البشرة) التى تتناسب مع حجمه ووزنه ، وهذه ميزة كبيرة فى المناطق الحارة حيث يفقد الانسان حرارتـه بواسـطة العرق الذى يخرج من الجلد . ويساعد الجسم الذى يكون تكوينه وشـكله مثل الانبوبة على أداء وظيفته فى تكييف الهواء بطريقة افضل من جسـم الاسكيمى مثلا ، فاجسام الاسكيمو تأخذ شكل البرميل ، فهم يعيشـون فى القطب الشمالى . ونعرف انهم قصيرو القامة وممتلئوا البنية لدرجـة البدانة ، وذو صدور واسعة مكتنزه واصابع أيديهم وأرجلهم قصيرة ، وذلك من شانه ان يقلل المساحـة التـى تتعرض من بشرتهـم للهواء الخارجى (بالمقارنة بالشعوب الصحراوية) ، وذلك يجعلهم لقل فقدانـا للحرارة ، بل ان اجسامهم تعتبر بذلك خزانات حراريـة . ذلك أن

ابدانهم المكتنزه او اذرعتهم وسيقانهم المستديرة تختزن حرارة كثيرة ، ووجههم المستدير يحميه من عضة البرد والصقيع ويحتفظ بحيوية وتجويفاته بالدفىء ، والبروز الجلدى السميك فوق الجفنين يقى عينيه من الثلج والرياح (١) .

٢ - شـكل الراس :

ان راس الانسان تاخذ شكلا يمكن ان يصبح معيارا للمقارنة بين الاجناس ، وعادة ماتتم مقارنة اختلاف الاجناس فى شكل الراس على اساس قياسى ينصب على طول الراس ، عرض الراس ويسمى معامل الراس ويحسب كما يلى :

$$\text{معامل الراس} = \frac{\text{طول الراس}}{\text{عرض الراس}} \times ١٠٠$$

ويطلق عليه البعض «مقدمة الراس» او المؤشر الجمجمى وهنا فان المؤشر يشير الى راس ضيقة بينما يتم التعبير عن راس مشعه بمؤشر جمجمى عال وتتراوح العينات البشرية بين ٧٠٪ ، ٩٠٪ (١) . وعلى اساس هذا المعامل او المعيار صنف البشر الى المقولات التالية :

ا - طويـل الراس Dolichocephalic

ويدخل فى هذه الفئة اولئك الذين تتراوح النسبة بين ٧٥ - ٨٠ . عرضها اقل من ٧٥ .

ب - متوسـط الراس Mesocephalic

ويدخل فى هذه الفئة اولئك الذين تتراوح النسبة بين ٧٥ - ٨٠ .

---

(١) ارثرجريجورى .. مرجع سابق ص ١٥٥ .

1) Ibid., p. 229.

جـ - عريض الراس Bracycephalic

وتزيد النسبة هنا عن ٨٠ (١) .

وقد تابع الدارسون احصائيا الاختلاف بين المجموعات البشرية المعاصرة فى معامل الراس وكان ان قدموا عددا كبيرا من البيانات الاحصائية التالية فى هذا الصدد منها :

جدول يوضح متوسط مقدمة الراس (المعامل) فى كبرى مناطق العالم (٢)

	المتوسط نسبة مئوية	المقياس الانحرافى %	عدد العينات
افريقيا	٧٦ر١٧	٢ر٣٣	١١٥
آسيا	٨٠ر٣٢	٤ر٣٨	٧٤
أوربا	٨١ر٦٠	٣ر٠٠	٤٩
أوقيانوسيا	٧٨ر٧٦	٣ر٩٢	٣٦
الامريكتين	٨٠ر٥٨	٢ر٨٢	٥٧

وقد كشفت الدراسة الانثروبومترية الخاصة بتوزيع معامل الراس فى افريقيا عن الحقائق التالية :

١ - ان هناك تناقص ملحوظ فى متوسط معامل الراس كلما اتجهنا من غرب القاره الى شرقها .

٢ - ان هناك علاقة سلبية واضحة بين معامل الراس من ناحية والقامه من ناحية اخرى بحيث ان الافريقيين الاكثر طولا يتميزون

(١) عبد الحميد لطفى . مرجع سابق ص ٤٢ .
2) A.J. Kelso, op-cit., p. 231.

بالرأس الاكثر ضيقا . وقد افترض البعض أن هذه حقيقة عامة تنطبق على الشعوب ، ولكن لم يتوفر الدليل على ذلك بل تبين العكس فى المحيط الهادى والعالم الجديد حيث وجد أن طوال القامة لهم رؤوس اكثر اتساعا ، أما فى آسيا كان توزيع مؤشر الجمجمة يشابه مثيله فى افريقيا فى احدى الجوانب ويختلف عنه فى آخر .. ففى آسيا كما فى أفريقيا هناك علاقة ذات دلالة احصائية سالبة بين طول القامة ومعامل الرأس (ـ ٢٤و) وأيضا ثمة انخفاض تدريجى فى هذا المؤشر من الغرب الى الشرق . بينما وخلافا للحال فى افريقيا فثمة علاقة احصائية موجبة بين خطوط الطول ومعامل الرأس فى آسيا (٢٤و) . وهكذا فان معامل الرأس يأخذ فى التزايد كلما اتجهنا من الشرق الاوسط الى الشرق الاقصى .

أما فى أوربا ، فرغم أن هناك تعقد فى نمط توزيع معامل الرأس الا أن هناك بعض الدلائل التى توضح أن الاتجاه الذى يأخذه معامل الرأس من الغرب الى الشرق . فى أوربا يماثل نظيره فى آسيا ، فى حين توضح القياسات الانثروبومترية أيضا تزايد المؤشر أو معامل الرأس من الشرق الى الغرب فى جزر المحيط الباسفيكى ([1])* .

ومن الجدير بالذكر أن نتائج دراسات الكفاءة الوراثية التى تم الحصول عليها من عينات من توائم متماثله ككل من معامل الرأس ، وطول القامة ([2]) قد اوضحت أن معظم الاختلافات فى هذين المعاملين ترجع الى العوامل الوراثية أو ترجع لعمل الجينات .

★ للمستزيد هناك بيانات تفصيلية كاملة عن توزيع متوسط معامل الرأس بين شعوب افريقيا وشعوب آسيا وشعوب أوربا وغيرها أوردها أ.ح كيلسو فى كتابه Physical Anthropology الفصل السابع
— IBid .... 232.

(٢) المرجع السابق ص ٢٢٨ ، ٢٣٤

٣ ـ معـامل الانــف :

لقد استخدم معامل الانف بشكل واسع فى وصف وتصنيف الجماعات الانسانية وذلك على اساس انه معيار واضح نسبيا للمقارنة بين الاجناس، كما استخدم شكل الانف ايضا فى المقارنة بين الانسان وغيره من الكائنات على اعتبار ان الانف الانسانى يختلف كثيرا ويعتبر سمه مميزه للانسان عن غيره من الكائنات الاخرى .

ولكن كيف يحسب معامل الانف ، أو النسبة الانفية ؟

يحسب معامل الانف على النحو التالى :

$$\text{معامل الانف} = \frac{\text{عرض الانف}}{\text{طول الانف}} \times 100 = \text{--} \%$$

وعلى اساس النسبة الانفية هذه يصنف البشر الى :

عريض الانف broad nosed ويزيد معامل الانف او النسبة الانفية هنا عن ٨٥٪ .

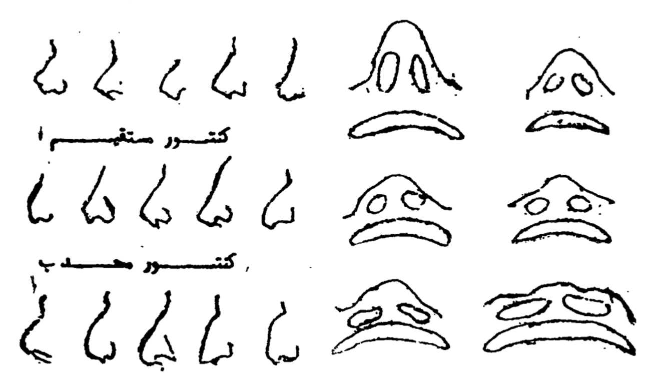
ـ متوسط الانف Medium nosed ويكون معامل الانف هنا محصورا بين ٧٠٪ ـ ٨٥٪ .

ـ ضيق الانف narrow nosed وتقل النسبة الانفية هنا عن ٧٠٪ .

وليست النسبة الانفية هى المعيار الوحيد لتصنيف الانف ، بل أن هناك طرقا أخرى لوصف الانف ، وهذه الطرق هى :

١ ـ من الصور الجانبية للانف . From profil view
٢ ـ من اسفل
٣ ـ من الامام .
٤ ـ بواسطة حساب معامل الانف .

والاشكال التالية توضح هذه الطرق الاربعة :



ولكن مع وجود طرق اخرى لوصف الانف فان الشائع الان هو استخدام النسبة الانفية فى مجال المقارنة .

ويتراوح التفاوت بين البشر فى النسبة الانفية بين ٤٠ الى ١٤٧ فى المائة حسبما أوضح مارتن وسالر عام ١٩٥٥ - ١٩٦٦ فى حين يتراوح متوسط التوزيع بين المخلوقات البشرية بين ٦٠ - ١١٠ فى المائة .

ويصل التفاوت الى ان نجد اشخاصا يبلغ عرض الانف عندهم اقل من نصف طولها ، ونجد أشخاصا آخرين يبلغ طول الانف عندهم ربع عرض الانف ويبدو ان الفروق الفيزيقية يمكن رؤيتها على انها

نوع من التكيف مع البيئة ([1]) فقد انطلق من هذه الرؤية عدد من العلماء ليوضح أن توزيع النسبة الانفية على بقاع العالم المختلفة انما يساير ظروف بيئية محدده ، وان هذا التوزيع يختلف على أساس الرطوبة والحرارة استجابة لمطلب وظيفى بحت بحيث أن وظيفة الانف الاساسية هى التى تحدد النسبة الانفية المنتشرة فى منطقة محدده .. وتتحد هذه النسبة استجابة لظروف البيئة ذاتها كنوع من التكيف . ويمكن أن نربط هذا التعليل العلمى بالتفسير الدينى البسيط فقدرة الله سبحانه وتعالى ومشيئته تتجلى فى أن يهيىء كل شىء لما خلق لـه . ومن هنا تتفاوت سمات الاشياء وشكلها بما يساعدها على القيام بوظيفتها الاساسية ، فسبحان الخلاق العظيم ، الذى جعل طول الانف وعرضها وبالتالى النسبة الانفية تأخذ القدر الملائم تماما للتعامل مع نسبة الرطوبة ودرجة الحرارة السائدة بكل اقليم من بقاع الارض ، وحيث تتباين وتختلف هذه النسبة فقد كان من الطبيعى أن تختلف النسبة الانفية فى بقاع العالم المختلفة .

فاذا كانت مهمة الانف هى تنظيم حرارة الهواء الخارجى قبل دخوله الى الرئتين ، وحيث انه كلما كان الانف ضيقا ، كلما كان من الطبيعى أن يكون الهواء الداخل الى الرئتين دافئا ، فى حين يصبح من الطبيعى أيضا أن يكون الانف المتسع العريض تأثيره أقل على درجة حرارة الهواء المستنشق ، لذلك فقد اقتضت ارادة الله أن يكون لساكنى المناطق الباردة الجافة أنوف ضيقة غالبا وذلك للتأقلم للبرودة وقلة الاكسجين والمناخ الجاف وتسمح بتدفئة الهواء البارد المستنشق قبل وصوله الى الرئتين ، وأن يكون لساكنى المناطق الحارة انوفا واسعة عريضة تتناسب مع مناخها الحار المخلخل الهواء من ناحيـة ، ولان الهواء المستنشق هنا بارد يحتاج الى عمليات تدفئة تحتم المرور بقنوات

1) Carol R., Ember & Melvin Enber, op-cit, 324.

ضيقة تحد من كميته وتعمل على تدفئه فى نفس الوقت قبل وصوله الى الرئتين ، على عكس الحال بالمناطق الحارة .

ولقد لخص (تومسون) هذه الحقيقة (فيما اطلق عليه قانون تومسون) الذى يقول : « انه فى المناطق الباردة تزداد قابلية الانف الى ان تكون ضيقة ، بينما فى المناطق الحارة تتجه هذه القابلية الى ان تكون عريضه .

وقد اثبتت الدراسات أن توزيع النسبة الانفية تساير هذا القانون فى افريقيا والامريكتين واوربا . أما النمط الاسيوى فانها لا تتطابق معه لتاثير خطوط الطول الذى يعمل هنا بفاعلية اكثر على النسبة الانفية من خطوط العرض .

أما عن كيفية توزيع اختلاف شكل الانف على سطح الارض ، فالجدول التالى يوضح ذلك .

جدول يوضح متوسط معامل الانف فى التجمعات البشرية الكبرى ([1])

المنطقة	المتوسط %	المقياس الانحرافى %	عدد العينات
افريقيا	٨٤ر٦٧	١٣ر٨٨	١١٥
آسيا	٧١ر٨٥	٩ر٠٩	٧٤
أوربا	٦٦ر٠٠	٢ر٠٠	٢٠
أوقيانوسيا	٨٣ر٧٧	٩ر٨٢	٢٦
الامريكتين	٧٤ر٧٨	٦ر٣٥	٥٧

1) Paul Benjamin : op-cit., p. 236.

ويوضح الجدول ان افريقيا تحظى باكبر متوسطات النسبة الانفية . كما انها تحظى باكبر مقياس انحرافى بمعنى ان ثمة اختلافات كبيرة فى متوسطات النسبة الانفية بين ابنائها من الافارقة .

- ان اصغر متوسطات المعاملات الانفية توجد باوربا . وكذلك اصغر المقاييس الانحرافية ، بمعنى ان الاختلافات بين الاوربيين فى معاملات النسبة الانفية قليلة جدا .

- يوضح الجدول ان متوسطات النسبة الانفية العالية ترتبط بمقياس انحرافى عال .

هذا وتوضح دراسة توزيع النسبة الانفية فى افريقيا انه كلما تحرك المرء بعيدا عن خط الاستواء هبط معامل متوسط النسبة الانفية .

جدول يوضح متوسط معامل الانف بين بعض السكان الافارقة ([1])

المنطقة	المتوسط %	المقياس الانحرافى %	عددالعينات
شمال افريقيا	٧٠ر٢٩	٤ر٣٢	١٤
شرق افريقيا	٧٤ر٢٧	٨ر٧٢	٢٦
الصحراء الكبرى	٧٥ر١٧	٧ر٧٢	٦
السودان	٨٨ر٠٤	٣ر٦٥	٨
غرب افريقيا	٩٥ر٢١	٦ر٨١	١٨
جنوب افريقيا - رجال الاحراش والهوتنتوت	١٠٣ر٩٣	٣ر٨٥	٣

1) Ibid, p. 236.

- وتوضح البيانات السابقة أن متوسط النسبة الانفية يأخذ فى الهبوط كلما اتجهنا شمالا وذلك عكس ماشوهد فى توزيع طول القامة .

- يتجه متوسط معامل الانف الى الانخفاض فى أى خط عرض من الغرب الى الشرق بحيث أن اصغر معاملات الانف نجدها فى الشرق .

- ان الاختلافات فى متوسطات معامل الانف كبيرة فى افريقيا على ما يوضح المقياس الانحرافى وان المقياس الانحرافى يزداد ويتزايد متوسط النسبة الانفية بشكل عام .

أما فى أوربا ، فالاوربيون هم أصحاب الانوف الضيقة لذا فقد ظهر بينهم اقل المقاييس الانحرافية ايضا .

واقل متوسطات لمعاملات الانف عند الاوربيين توجد فى اقصى الشرق مع زيادة طفيفة من الغرب الى الشرق فى متوسط معامل الانف بين الاوربيين الاسيويين .

آسـيا :

ونفضل أن نبدأ هنا ببعض البيانات المجدولة عن متوسط النسبة الانفية فى آسيا مع تعليق قصير على هذه النقطة على النحو التالى :

جدول يوضح متوسط معامل الانف بين سكان آسيا (1) .

المنطقـــة	المتوسط %	المقياس الانحرافى %	عدد العينات
آسيا الصغرى	٦١ر٥٤	٤ر٤٠	٩
ايـــران	٦٣ر٦٦	٢ر٩٧	١١
أواسط آسيا	٦٩ر٢١	٧ر١٥	٩
الهنـــــد	٧٤ر١٨	٦ر٣٠	١٢
الشرق الاقصى	٧٤ر٧٥	١ر٨٥	٨
شمال آســيا	٧٨ر٩٠	٣ر٧٧	٨
جنوب آســيا	٨٢ر٨٠	٥ر٢١	٣
ملايو ـ فنزويلا	٨٤ر٤٤	٦ر٦٠	١٣

وقد اوضح المهتمون ان المرء اذا دخل آسيا من شرق أوربا واتجه شرقا الى الباسفيك فانه سيلاحظ ان قامة السكان قد اخذت فى القصر وان انوفهم قد اخذت تميل الى العرض . واذا نظرنا الى معامل الرأس هنا ايضا نجد ان هناك زيادة تدريجية فى متوسط معدل معامل الرأس مـن الشرق الى الغرب فى آسيا كما هو الحال فى متوسط معامل الانف ، ومن ذلك فقد قيل ان سكان آسيا ذوى الرؤوس العريضة يميلون الى عرض الانف .

ـ وكما يوضح الجدول ايضا ، فـان المقياس الانحـرافى ليس صغيرا فى آسيا خاصة فى أواسط آسيا والهند وجنوب آسيا .

1) Ibid, p. 237.

-.تبلغ النسبة الانفية أدنى متوسطاتها فى آسيا الصغرى ثم ايران، وتبلغ اقصى مدى لها فى الملايو وفنزويلا .

هذا وقد وجد ان الاستراليين الاصليين لهم معامل انف يشبه ذلك الذى وجد بين اقزام افريقيا ورجال الاحراش ، فى حين ان بين سكان استراليا غير الاصليين معامل الانف يأخذ فى التزايد من الغرب الى الشرق .

٤ - لـون البشـرة :

لقد تركزت معظم محاولات تصنيف الاجناس على تكييف لون البشرة ([1]) ويرجع اختلاف لون البشرة بين الاشخاص من بنى البشر الى الاختلافات فى كمية المادة اللونية فى الجلد والتى يطلق عليها اسم القتامين (الميلانين) ، وهذه المادة عبارة عن جزئيات كثيرة ومعقدة انتجتها خلايا خاصة توجد تحت الطبقات السطحية للجسم وهى تسبب اللون القاتم مثل الاسمر - والبنى - والاسود . وتفرز هذه الجزئيات لتغطى المساحات التى بين الخلايا فى الطلبقات وذلك فى الخلايا السطحية من البشرة اى الجلد ، والمادة اللونية اى الميلانين موجودة فى بشرات جميع الاجناس ، ولكن المجموعات او الاجناس الداكنة تتميز بتركيز او بكثافة اكثر فى مادة الميلانين ، اما الشعوب الفاتحة اللون فان تركيز هذه المادة فيها اقل ، ومعنى ذلك ان ثمنة اعتقاد بان الجنس البشرى يغلب عليه كله خصائص الانسان ذى البشرة البيضاء الذى اصبح اصل الاجناس البشرية الحالية ([1]) . ورغم قول العلماء بتوارث لون البشرة فانهم يشيرون الى الاثر الكبير للعوامل البيئية فاشعة الشمس تحفز الجلد للاسمرار بافراز مادة اضافية من

---

(١) بيترفارب .. بنو الانسان . ترجمة زهير الكرمى عالم المعرفة .. الكويت ١٩٨٣ . ص ٢٣٦ .

(٢) أرثرجويجورى .. مرجع سابق ص ١٥١

الميلانين ، وحتى بدون التعرض المباشر للشمس يتغير لون البشرة قليلا مع الفصول ، والتغذية الخاطئة كثيرا ما تجعل البشرة داكنة ، ويفعل نفس الشيء التقدم فى العمر (١) .

وبغض النظر عن التفسيرات العلمانية للون وطريقة توزيعه ، فاننا نستطيع أن نستشف حكمه الله وتهيئته للانسان ليعيش متوائما مع البيئة التى وجد فيها ، ونستند هنا الى اقتراحات سبقت فى تفسير لون البشرة والعين ، ذلك ان رغم عدم اتفاق العلماء على تفسير واحد، الا ان هذه التفسيرات المختلفة تنتهى جميعا الى ان للون البشرة والعين وظيفة تكيفية .

ولكن كيف يكون اللون فى الانسان هبه تكيفية أعطاها الله له لتهيئته ليعيش حيث خلق ؟

يقول العلماء هنا : ان البشرة الفاتحة تعكس الحرارة اكثر ما تمتصها على عكس الحال بالنسبة للبشرة السمراء أو السوداء ، ولذلك يمكن القول عموما ان اللون الاسمر يزداد كلما ازددنا قربا من خط الاستواء فى حين يقل التلوين كلما ازددنا بعدا عن خط الاستواء بحيث يكون اسود فى الغابات الاستوائية ، واسمر فى هضاب الهند ووهادها ، واسمر فاتح فى شمال افريقيا وجنوب غرب آسيا ، وزيتونى على طول شواطى البحر الابيض ، وابيض على طول المحيط البلطيقى وبحار الشمال .

وقال العلماء فى تفسير ذلك التوزيع للتلوين بين البشر بافتراضين :

الاول : انه فى المناطق الاستوائية تقى البشرة السوداء الفرد من الآثار الضارة الناجمة عن اشعة الشمس المباشرة ، وفى المناطق المعتدلة

---

(١) بيتر فارب .. مرجع سابق ص ٢٣٧ .

المناخ يتناقص الى حد كبير خطر اشعة الشمس فوق البنفسجية ، لان البشرة الفاتحة اللون تسمح بامتصاص الاشعة الغنية بالفيتامين (١) ٠

يتضح مما سبق أن التلوين يزداد بزيادة الاشعة فوق البنفسجية الشمسية ، حيث أن زيادة تلوين البشرة يعمل هنا كغطاء واق ضد تأثير الاشعاع الضار ، كما ان خط الاستواء أكثر تعرضا للاشعة الشمسية فوق البنفسجية وذلك بسبب طول النهار هناك من ناحية ، ولان الشمس عمودية فيه أكثر من اى مكان آخر ، أما البشرة البيضاء فانها تسمح بامتصاص اية كمية من اشعة الشمس القليلة والتى تحتجب عادة خلف السحب الداكنة ٠

كذلك فان البعض قد رأى ان البشرة الداكنة اشد مقاومة للامراض الجلدية من البشرة ذات اللون الفاتح ، ولذلك تصبح مثل هذه البشرة ذات فائدة عظيمة لاولئك الذين يعيشون بالمناطق الاستوائية ، حيث تأخذ الامراض الجلدية هناك أبعادا وبائية ٠

لذلك فان لون العين الذى يتحكم فيه الى حد بعيد مادة الميلانين أيضا ـ المادة اللونية ـ الموجودة فى قزحية العين يتسم بالتباين الواسع بين الاجناس البشرية ، ويتراوح لون العين بين البشر بين البنى الداكن فى المناطق الاستوائية الى الالوان الرمادية والزرقاء فى الشمال ٠ وحكمة ذلك هو ان العيون السوداء تتيح اقصى قدر من الوقاية ضد الاشعة فوق البنفسجية الضارة ، ولذلك فان لون العين له وظيفة تكيفية ايضا تماما كما هو الحال بالنسبة للون البشرة ، وانه هناك عند الشعوب الملونة توجد فى قاعدة الشبكية طبقة من الميلانين بالاضافة الى المادة اللونية الكثيفة فى القزحية ، وهذا لايمثل جهازا مضادا للشعاع الباهر فحسب وانما يتيح بصرا اكثر حدة فى الضوء اللامع وهذه ميزة يمكن أن تكون

---

(١) المرجع السابق ص ١٥٢

ذات فائدة بالغة لاولئك الذين يعيشون على الصيد او غير فى وهـج الشمس فى الصحارى والبطاح المعشوشية ٠

وقبل ان ننتقل الى الافتراض الثانى بشـان تفسـير التلويـن فى البشر ٠ نرى أنه من المناسب أن نذكر ان البعض قد قال أن هذا التفسير لايتفق مع الواقع ، ذلك انهم قالوا ان الاقتراب من المنطقة الاستوائية والعيش فيها لايعنى التعرض لاشعة الشمس ومرجـع ذلك عندهـم ان المناطق الاستوائية تكسوها الغابات والغطاءات النباتية وهـذه تعمل كمظلة واقية من الشمس ويجعل كمية الاشعة الفعلية التى تصـل الى الارض قليلة ٠

٢ ـ أما الافتراض التفسيرى الثانى لتوزيع التلوين الانسـانى ، فيقول ان التلوين فى الانسان يعمل كطريقة لتنظيم انتاج فيتامين (د)، وقد وردت هذه الفكرة فى فقرة كتبها كيمائى حيـوى يدعى (لومز) يعمل بجامعة براندليس ٠

وفيتامين (د) يعرف بفيتامين الشمس المشرقة ، وذلك لان اشـعة الشمس تنشط تركيب هذا الفيتامين فى بشرة الانسان ، وما أن يحـدث ذلك حتى ينتشر هذا الفيتامين فى الدورة الدموية ويعمل على امتصاص الكالسيوم ٠

وحيث يرتبط تنشيط تركيب هذا الفيتامين بأشعة الشمس ، فاننـا نجد انه تقل كمية هذا الفيتامين فى الاماكن الغير معرضة لاشعة الشمس، ولكن حيث ان فيتامين (د) يعتبر فيتامين غير عادى بحيث ان الكثرة منه بالجسم مثل النقص فيه كلاهما يؤديان الى الموت ، وطبقا لهـذه النظرة فان لون الجسم يرى كمنظم ضرورى يسهل على ساكنى خطـوط العرض ـ شمال خط الاستواء ـ الحصول على ساكنى خطوط العرض ـ العرض ـ شمال خط الاستواء ـ الحصول علىكمية ثابتة بن فيتامين (د)٠

وقد يثار سؤال هنا هل يورث لون الجلد ، وكيف يورث لـون الجسم ؟

لا أحد يعرف بعد ، ولكن هناك اتفاق عام بهذا الشـأن ، ان وراثة لون الجسم عملية معقدة ، وان أكثر من جينه واحدة يتضمنها هـذا الموضوع ، ولعل ذلك يشدنا لمناقشة موضوع الجنس .

ولكن قبل ان ننتقل لموضوع الجنس ، نناقش الاستخدامين الآخرين للمعلومات أو البيانات الانثروبومترية ونقصد بهما دراسة الحفريات ، ثم الاستخدام التطبيقى لهذه البيانات ، ونتناولهما بايجاز على النحو التالى :

ثانيا : الانثروبومترية ودراسة البقايـا الحفرية :

ان احد الاستخدامات الهامة للقياس البشرى تتمثل فى استخدامـه فى دراسة الحفريات والبقايا التى يعثر عليها فيها من العظام والجماجم وغيرها .

فمن ناحية يمكن عن طريق القياس معرفة اذا مـا كانـت هـذه العظام تخص بشريا ، أم أنها بقايا حيوانية .

كذلك فانه يمكن عن طريق هذه القياسات معرفة ما اذا كانت هذه البقايا خاصة برجل أم بامراة اذا كان قد ثبت أنها بقايا بشريـة أصلا . فجمجمة المراة مثلا أكثر نعومة ، حيث تتميز جمجمة الرجل بالخشونة ، وكذلك ببروز النتوء الحلمى (وهو نشوء عظمى خلف الاذن) أكثـر بروزا عند الرجل منه عند المراة ، وكذلك عن طريق دراسة خصائص عظمة العجز (١) .

---

(١) قبارى اسماعيل .. مرجع سابق ص ٨٠

ثالثا : لقد استخدمت القياسات البشرية استخداما واسعا ومؤثـرا فى مجالات عديدة • فهناك العشرات من الصناعات استفادت من القياسات البشرية •

وتوضيحا لذلك ، فان صناعة السيارات مثلا لابد وان تراعى قامـة الانسان فى وضع أجهزة القيادة بالسيارة ، وفى تصميم جسم السـيارة وارتفاع سقف العربة وما الى ذلك • وقد كان ذلك امرا بالغ الاهميـة والضرورة خاصة قبل أن تتقدم صناعة السيارات ويصـل الانسان الـى امكانية تحريك مقعد القيادة الى الامام والخلف ولاعلي واسفل ، ولقد مرت الطائرات وصناعتها بنفس الظروف تقريبا ، كذلك فقد استفادت هذه الصناعة من القياس فى تصميم ركن الطيار ومقاعد هبوط المظلات كما ان صناعة الملابس الجاهزة استفادت كثيرا من وجود قياسات بشرية محددة تسود فى الشعوب المختلفة وتساعد على ايجاد متوسطات معقولة يتم صناعة الملابس وحياكتها على أساس هذه المقاييس فضلا عن معرفـة أن هناك مقاييس بشرية أصلا ذات مواصفات شبه معروفة (راجع دراسة طول القامة بهذا الكتاب) • وقد أصبح كافيا الان أن يذكر العميل لتاجر الملابس رقما معينا لشراء مايحتاج من ملبس أو حذاء •

ولقد ساعدت معرفة هـذه القياسات السائـدة فى مجـال تصـدير واستيراد هذه السلع وفى الاعداد المسبق أو تجهيز كميات كبيرة من قطع غيار هذه السلع ، بدأ بالسيارة ، والمـلابس المختلفـة ، واطـارات النظارات ، والسلاح وانتهاءا بالاحذية وصناعاتها •

بل لقد امتدت الاستفادة من هـذه القياسات الى اعـداد اطقـم الاسنان ، ومن ذلك مثلا ان الدكتور م•د• شتاين M. Stein احـد علماء الانثروبولوجيا – على مايذكر لنتون – اجرى دراسة واسعة عن الفروق العرقية فى الاسنان وفى حجم وشكل القوس السنى وقد استغلت احدى الشركات الامريكية التجارية نتائج هذه الدراسة فى تطوير طقوم من الاسنان الصناعية ، صممت خصيصا لتفى بحـاجات فئات سكانيـة

مختلفة . وقد حصلت بذلك على ارباح مادية كبيرة حيث صممت اطقما ذات مقاسات خاصة لتتناسب مع القياسات الشائعة فى مناطق مختلفة من العالم .

كما تستخدم الانثروبومترية ومعطيات القياس البشرى فى مجال الكشف عن الجريمة . حيث يعتمد الطب الشرعى على المعطيات الانثروبومترية فى كشف نوع ضحية الجريمة من حيث هو ذكر ام انثى. ومن حيث العمر ، والمدة التى انقضت بين تاريخ وقوع الجريمة واكتشافها .. وغير ذلك .

ـ كما أن الانثروبومترية أصبحت تستخدم فى مجال الرياضة حيث أن القياسات الانثروبومترية تعطى امكانية تحديد مستوى وخصائص النمو البدنى ومقادير متابعتها للسن والجنس وما بها من انحرافات ودراسة ديناميكيتها تحت تأثير مزاولة الانشطة الرياضية ووضع خصائص النمو البدنى ومقادير متابعتها للسن والجنس وما بها من انحرافات الخصائص الانثروبومترية للانسان أحد المجالات الاساسية المرتبطة بالنتائج الرياضية . وتساعد الانثروبومترية فى مجال الرياضة فيما يلى : الاختيار الاول للناشئين والاطفال فى قطاع رياضى معين ، تشكيل تركيب معين للجسم لدى أعضاء الانشطة الرياضية المختلفة لتبدأ من الناشىء وحتى لاعبى المستويات العالية ، فردية التدريب والاعداد وفق خصائص الجسم ومميزاته . وأخيرا وضع المواصفات التى يمكن للمواطنين التقريب بينها وبين امكانياتهم الفردية فى استمرارهم فى التدريب وتحقيق مستويات عالية (١) .

---

(١) احمد خاطر ، على البيك : القياس فى المجال الرياضى .. دار المعارف ١٩٧٨ ص٧٥

الفصل السابـــع

الاجنـــــــاس

---

* كتب هذا الفصل الدكتور / عبد الله عبد الغنى غانم

قبل إن نتناول تفصيلا موضوع الاجناس ، علينا إن نتذكر ان هذا الموضوع يدور حول فكرة التباين والاختلافات بين البشر . وان هذه الفكرة كانت أحد المنطلقات الاساسية فى كثير من افعال العنف والعدوان بين البشر ، وانها استهدفت دائما اعلاء عنصر أو جماعة بشرية والزعم بانها اعلى وارقى عن ماعداها من الجماعات البشرية وان الجماعات الاخرى هى جماعات اقل وراثيا بمعنى ان الامكانيات الوراثية والفطرية للاولى اعلى مما هو موروث لغيرها من الجماعات .

واعتقد ان فكرة الاجناس ، وتصنيف البشر الى جماعات متباينة، لم يكن خلفه مجرد وجود الاختلاف الظاهرى فى الشكل بين ابناء البشر وهو أمر عادى ومألوف ، ولكن كان المحرك الاساسى للاهتمام به من وجهة نظرنا عده أمور منها :

١ - انه كان امتدادا للتاثير بفكرة التطور ، فرغم أن هذه الفكرة لاتصمد أمام البحث العلمى ، الا انها كانت موضة فكرية لمفكرى القرن التاسع عشر وبدايات العشرين (ولازلنا نجد للاسف الشديد رسائل علمية تعد فى العالم العربى لنيل درجات علمية تدور حول هذا الموضوع) ، وقد امتد اثرها الى كافة العلوم سواء العلوم الطبيعية أو الاجتماعية فقد « سيطرت على مختلف مجالات الفكر والتخصصات فى القرن التاسع عشر (١) وبالذات فى النصف الثانى من ذلك القرن واوائل القرن العشرين » . ويبدو الاثر التطورى وراء البحث فى فكرة تصنيف البشر الى أجناس فى أن معظم الابحاث التى دارت حول هذا الموضوع قد عمدت الى الربط بين الشكل والخصائص الفيزيقية من ناحية والمرحلة النشوئية الاحيائية التطورية من ناحية أخرى بحيث اصبح الشكل

---

(١) انظر : احمد ابو زيد : التطورية ، محاضرة القيت بجامعة الاسكندرية عام ١٩٧٣ ص ١ .

الخارجى للانسان كفيل بالحكم عليه بانه لاينتمى الى الجنس البشرى اصلا وهنا يقول E.A. Hooton : « اذا كان لك انف يشبه انف القرده ، فلابد ان تكون واحدا منهم » ([١]) • اى فانك اذن قرد ولست بشريا ولقد دفعت دراسة الخصائص الجسمية للفئات العرقية ، البعض الى استنتاج ان هذه الفئات تختلف فى تطورها النشوئى اى انها تتفاوت فى بدائيتها او مدى تقدمها ، بل ولقد خلص هؤلاء ايضا ان المستوى السيكولوجى لهذه الفئات يختلف تبعا لاختلاف خصائصها الجسمية ([٢])• ومن ثم تختلف قدرات الاجناس العقلية ومستوى الذكاء • وبالطبع كان دائما التفوق من وجهة نظر الغربيين لصالح الاوربى ([٣]) •

وقد شكلت مقارنة المجتمعات البدائية بالمجتمعات الاوربية بمنظور تطورى ـ عنصرى ـ اسوأ ما صاحب النزعة التطورية التى شكلت منهجا اساسا فى الانثروبولوجيا بوماما ([٤]) •

٢ ـ ان عملية التصنيف هذه كانت تكريسا لهيمنة بعض الشعوب على البعض الاخر ، ومحاولة السيطرة على غيرها ، حيث اقرت عملية التصنيف وبرزت العنصرية ورات ان بعض الجماعات بل والشعوب والاقليات قاصرة ، وان امكانياتها الوراثية الفطرية منحطة بالمقارنة بغيرها • ومن ثم وجد البعض الفرصة مواتية لتبرير فرض وصايته على غيره من الشعوب وصنفت شعوب بانها (منحطة) او (ادنى) بالمقارنة بالشعوب الاوربية (الاعلى) او (الافضل) وانتهى التسليم بمثل هذه التصنيفات التى سادت فى الكتابات الاثنولوجية وسيطرت على الفكر الانثروبولوجى الى ان يقول بيرسون مثلا ـ « سائرا فى الاتجاه الذى حدده له المفهوم الداروينى حول الصراع من اجل البقاء او بقاء الافضل

1) A.J. Kelso, op, cit. p. 234.

(٢) اوتو كلينبرج السيكلوجيا العرقية رالف لنتون مرجع سابق ص ١١٨

(٣) انظر : بيتر فارب • بنو الانسان مرجع سابق ص ٢٤٠ ـ ٢٥٥

4) Marvin Harris, The Rise of Anthropological theory, Routledge and Kegan poul, London, 1968. p. 163.

- ان الاجناس الدنيا لابد ان تحل محلها الاجناس العليا وذلك لمنفعة الانسانية ككل وخيرها . والمعنى الكامن خلف ذلك هو ان الاجناس البشرية الدنيا لاتنتمى تمام الانتماء فى الواقع الى العائلة البشرية وان خير البشرية يخدم افضل خدمة باحلال الاجناس العليا محل الاجناس الدنيا من البشرية . ويرقى هذا الراى هذه الايام فى جنوب الولايات المتحدة . وفى غيره من المناطق الى مرتبة الاعتقاد الصريح بأن مثل هذه الشعوب لاتدخل فى اطار الاخوة الانسانية ولسوء الحظ مايزال هذا الاعتقاد شائعا ويمكن أن تلاحظه عند بعض الانثروبولوجين وعلماء الاحياء الملتزمين بفلسفة الحكم على البشرية بمعيار التفوق والتدنى (١).

٣ - ان عملية التصنيف كانت تكريسا للاوضاع الاقتصادية والاجتماعية السائدة ، فهى قائمة على اقرار التفاوت بين الافراد وبالتالى تقر الوضع الاجتماعى والاقتصادى السائد فى منتصف القرن التاسع عشر وتفسر هذه الحالة بنزعة تطورية داروينية اجتماعية طورها بالاخص جالتون ابن عم تشارلس دارون وخلاصتها ان الفقراء يبقون على حالهم لانهم غير قادرين على الحصول على اقل ثروه ممكنه . انهم غير اكفاء من الوجهه الاجتماعية وان حالتهم مهما كانت مؤلمة تنطوى تحت قانون التطور ، وتشكل الثمن الذى يجب دفعه كفديه للتقدم . وهذا التعليل نفسه قد نقل الى مجال العوامل التجارية . بحيث قدم تبريرا معقولا لحالة الوحشية التى كانت تميز المنافسة فى بدايات العصر الصناعى . واذا كانت الدول الاوربية قد سيطرت على الشعوب الملونة فى كل القارات فذلك لانها كانت هى القادرة بيولوجيا على أن تفعل ذلك ، وهذه اذن قد اصبحت مشروعة . تلك المغامرة الاستعمارية الكبرى بتعسفاتها التى لا ريب فيها . وفى النهاية تجد الحروب بين الامم تعتبر ايضا على هذا

---

(٢) اشلى مونتاجيو : البدائية ترجمة محمد عصفور - عالم المعرفة - الكويت ١٩٨٢ ص ٢٣١ .

الاساس امرا حتميا • بل ضرورة بيولوجية لاغنى عنها لنهضة الجنس البشرى كما تجد تجاره العبيد فى هذا التصنيف مبررا عقليا (١) يبدو صحيحا رغم زيفه بعد ان «استطاع الاوربيون فى خلال بضعة القرون الماضية اقناع معظم العالم بان سمرة البشرة الزنجية هى صفة دالة على التخلف والنقص فى منحى من مناحى انسانية الانسان (٢) خاصة القدرات العقلية والذكاء •

وقد اصبحت فكرة التصنيف تجد قبولا واضحا بين العلماء منذ فترة طويلة • وعمل ذلك على استمرار كثير من الافكار الخاطئة والتعصب السلالى المقيت • ويشير ميردوك الى ذلك بقوله : « انه قد مضى عهد بعيد منذ تبنى العلماء ذلك الفرض الذى شاع يوما والذى رد الفروق بين الاجناس الى الوراثة وربط بين الفروق الموروثة هذه من ناحية وبين القدرة على خلق الثقافة من ناحية اخرى (٣) •

ان موضوع الاجناس ليس من الموضوعات السهلة اليسيرة ولكنها موضوع قد يشد الباحث الى منزلقات وعره ومتنوعة • ولعل هذه الصعوبة تكمن فى نظرنا فى الاسباب التالية :

١ ـ ان معايير التصنيف ذاتها متعددة ومتنوعة وشديدة التغير وقد اختلفت مع الزمن • فبعد ان كانت قاصرة قديما على بعض الخصائص البيولوجية كاللون والشعر ، نراها قد تنوعت الان ، فقد اضيف لذلك عدد كبير من المعايير مثل مجموعات الدم ، وتفاوت المناعة ، وسرعة النمو ، وسن النضوج •• الخ • وقد قيل ان هذه الصفات مع ذلك

---

(١) جاك روفييه : نمو فكرة التطور • مجلة ديوجين • نوفمبر ١٩٨٦ يناير ١٩٨٧ ـ العدد الخامس والسبعون ص ٨٧ •

(٢) بيتر فارب •• مرجع سابق ص ٢٤١ •

3) george peter Mundock, Africa, Mc Graw - hill book New York, 1959, p. (7).

لاتنطوى على اى اهمية من الناحية البيولوجية عـــدا اللون الاســود الواقى • وقد امتد التصنيف الان الى التصنيف باسس ثقافية واجتماعية•

٢ ـ كما ان ثمة مصطلحات عديدة يواجهها القارىء فى هذا المجال مثل مصطلح العرق ـ النوع ـ السلالة ـ العنصر ـ الجنس ، المجموعات البشرية ، بـل والشعب ، النسـل (١) ••• الخ وهـى مصطلحـات متداخلة ويصعب وضع الفواصل بينها او بيان تداخلها •

٣ ـ بجانب ان هذا الموضوع قـد امتزج دائمـا بنزعة عنصريـة بغيضة تحاول ان تعلى من شان جماعة بشرية او تحط من قدر اخـرى على ما سبق وقلنا • « وغالبا ما تستخدم نتائج دراسات علوم الحيـاة الخاصة بالجماعات البشرية فى ايقاظ نار عداوات ايديولوجية او سياسية قديمة والحماسة التى يبديهـا بعض علمـاء الانثروبولوجيا فى جنـوب افريقية فى البحث عن حجج علمية غير مقنعة لنظام التمييز العنصرى • او العناد البادىء لدى بعض علماء النفس الانجلو سكسـون فى تفسير اختلافات قدرات الاجناس بواسطة نظرية وراثية غير صحيحة ، ماهما الا امثلة واضحة لذلك (٢) •

٤ ـ كما ارتبطت كثير من المعالجات التى تناولت هذا الموضـوع بفكر تطورى غير علمى • بحيث كان الدافع الحقيقى لمحاولات تصنيف البشر هو الرغبة فى قياس المجموعات البشرية بهدف تحديد سلم تطورى متفاضل للبشر ، انطلاقا من الفرضية التطورية غير العلمية والتى تبدأ بالشكل الادنى وتنتهى بشكل الانسان الحديث ، وتحاول هذه الفرضية ان تصف بعض الجماعات البشرية بالدونية على اساس من ملامحهـا

---

(١) وليم ماريون كروجان : مفهوم العرق •• مقالة بكتاب رالف لنتون مرجع سابق ص ٧٣ •

(٢) اندرية لانجانتى : معطيات حديثة حول اصول الجماعات البشرية وتنوعها : دور الوراثة : مجلة ديوجـين نوفمبر ١٩٨٦ ـ ينايـر ١٩٨٧ العدد الخامس والسبعون ص ٨١ •

الى الحد الذى يقول هوكوف عام ١٩٤٧ فى هذا الصدد : ان كـان لك انف القردة فانت منهم ٠

٥ ـ ان عمليات التصنيف التى تمت بالفعل قد تفاوتت حصيلتها ، أو نتائجها الفعلية بحيث وجدنـا البعض يقـول بوجـود ٢٠٠ جنس بشرى ٠ ويقول آخر أن هناك ٢٢٠ جنس بشرى ٠ وقال البعض ان هناك أربعة أجناس ٠ والشائع الان انها أجناس تضم بينها جماعات فرعيـة عديدة ٠

٦ ـ لقد ركز المهتمون بفكرة الجنس على نقطـة التباين العرقى بين البشر ، على أساس أن مفهوم العرقى هو افضل سبيل لتفسير الفوارق التشريحية المزعومة بين الانسان وعلى اعتبارا أن العرق ما هو الا مجرد تعبير عن التغيرات الوراثية داخل منطقة بيئية معينة (١) ٠

ولم يكتفوا بابراز هذه الاختلافات بين البشر ، بل حاولوا تفسـير هذه الفروق وارجاعها الى مسبباتها ٠

وقد ذهبوا فى هذا التفسير ، كل مذهب ٠ ويبرز فى هذه التفسيرات اللاموضوعية فى كثير من الاحيان ، كما أن هذه التفسيرات كثيرا ماتقوم على معتقدات ظنية وتخمينية ، وقد انقسم العلماء هنا الى اتجاهـين أو مدرستين :

المدرسة الاولى وهى المدرسة التقليدية ، وقد قالت هذه المدرسـة بوجود نظام عرقى شامل ، اى انها تقول انه يمكن تصنيف البشر الـى مجموعات على أسس عرقية خالصة وان هناك خصائص عرقية واضحـة متمايزة صالحة لتصنيف البشر ، وبالطبع فـان ذلك التفسير لايمكنـه تفسير كثير من المتناقضات والتمايزات بين البشر ، ولايمكن الاحـاطة

---

(٢) رالف لنتون ٠٠ مرجع سابق ص ٨١ ٠

بكافة الاختلافات والفروق بينهم . خاصة وان الدراسات الميدانية قد اكدت تداخل الاجناس فى معظم بقاع العالم . فمثلا لايوجد فصل واضح بين الاجناس التى تغطى منطقة الشرق الادنى ([1]) . وهكذا الحالة فى معظم بقاع العالم . ويرى انصار هذه المدرسة مصطلح الجنس Race على انه يعنى جماعة من البشر يسود بين افرادها مجموعة من السمات الوراثية المتوارثة تكفى لتمييز هذه الجماعة عن غيرها من الجماعات الاخرى ، كما ان انصار هذه المدرسة يرون ان هذه السمات لابد أن تكون وراثية كما يجب ان تتميز بالاستمرار بجانب سيادتها وانتشارها بالنسبة لمعظم افراد هذه الجماعة ([2]) .

المدرسة الثانية : وتنكر هذه المدرسة فكرة العرق انكارا تاما ويرون ان مفهوم العرق ليس له مردود أو فائدة فى واقع الحياة ([3]) ، بحيث أن صعوبة تحديد مفهوم العرق أو الجنس جعلتهم يقولون أن هناك جنسا واحدا هو الجنس البشرى .

ولكن ثمة وراثة للجنس . وبمعنى أدق ما العلاقة بين الوراثة والجنس ؟

ان القارىء لهذا الموضوع يجد امامه تصورات محددة :

هناك راى يقول بثبات العرق وحتمية توارثه . وان هناك تصنيفات محددة وقاطعة وثابتة ، وقد كان البيولوجى الالمانى (فايسمان) weisman من اكبر المعتنقين لهذا التفسير وقد سيطر

---

1) Ahdullu lutfy, & charles charles chaurchill, Reading in (Aaab middle eastern 1976. p. (3).

2) Ginsberg., Sociology, the home of university library of modern Knowledge, No 1761 p. 56.

(٣) انظر هـ.ل شابيرو فى رالف لنتون الانثروبولوجيا مرجع سابق ص ٤١ .

هذا الاتجاه لفترة طويلة ، وكان (من وجهة نظرنا) مرتبطا بالنزعة العنصرية .

وينتقد هذا الاتجاه بما يلى :

أ - انه لايقدم بدوره تفسيرا للفروق الجينيه ذاتها بين البشر ، وهذا الموضوع تعددت فى الواقع فيه وجهات النظر ، ونفضل عرض موجز له الآن :

لقد رد البعض هذه الفروق الى العوامل الخارجية كالمواد المشعة وغيرها وحاول البعض الاخر ردها الى الاختلاط والتزاوج بين العناصر او الجماعات العرقية المختلفة زاعمين أن ذلك يعمل على ايجاد مجموعات جينيه جديدة تعمل على زيادة الاختلافات بين البشر وان التجمعات السكانية البشرية الصغيرة القديمة قد كانت سريعة التأثير بمؤثرات التبدل الجينى كما كان يسودها زواج الاقارب ، وقد عمل ذلك على تقليل قابليتهم للتغير الوراثى ، ومن هنا فان قابلية التغير داخل هذه التجمعات السكانية اتسمت بأنها كانت قليلة ، كما أنها كانت تحدث بالصدفة . وايجازا فانه بالنسبة للعصر الحجرى القديم فقد كانت الاجنة المتجانسة للتركيب الوراثى شائعة والصبغيات المتضادة النواه كانت عشوائية ، ولكن بعد ذلك ومع تطور الثقافة وكبر التمجعات السكانية أخذت تتلاشى وتتمزق ، وبالتالى فقد كان للتطور الثقافى أثر كبير على قابلية التغير الوراثى التوزيعى للانسان حيث أن انكسار العزلة قد أدى الى قيام احتكاك واندماج بين الجماعات البشرية ، وكان من شان ذلك أن بدأ عدم التجانس فى التركيب الجينى فى الظهور ، وقد ادىذلك الىحدوث تغيرات واختلافات داخل المجتمعات السكانية كل على حده ، والى تقليل الاختلافات والفروق بين التجمعات السكانية ومعنى ذلك أن تعدد الاشكال هو نتيجة محدده تنجم عن التغيرات الكبيرة فى حجم التجمعات السكانية وتركيبها . وأن هذا بدوره

هو نتيجة للتطور الثقافى . ويحاول البعض تلخيص هذه الفكرة فى شكل ما اسماه بأنها نظرية بيولوجية ثقافية وقد صاغها بقوله : (عندما تتطور الثقافة فان القابليــة للتغيرات البيولوجيــة داخل التجمعــات السكانية تأخذ فى التزايد) . ويرى صاحب هذه الفكرة انه لو ان هــذه النظرية صحيحة فانها يمكن ان تساعد فى فهم توزيع التغــير البيولوجى للانسان ، وينتهى بقوله : انه من الواضح اذن اننا نستطيع ان نحصل على الكثير فى هذا الشان عندما نأخذ فى الاعتبار العلاقات المتبادلة بين الثقافة وبيولوجيا الانسان معا . ولكن مثل هذا الاثر المتبادل لم ينــل حظه بعد على أية حال .

ب ــ ان المعلومات المتاحة عن الجوانب الوراثية فى الانسان والتى تم الحصول عليها حتى الآن ، قليلة ولاتكفى لتصنيف البشر على أساس وراثى وجينى ، رغم ان جميع محاولات التصنيف المتاحة تعتمد عــلى معايير جسمية ، ورغم ان جميع الخصائص والسمات التى تقوم عليها عملية التصنيف هذه تستند الى أسس جينية ووراثية (١) .

٢ ــ ثم ظهر اتجاه آخر اكد على استجابة الجنس البشرى للمثيرات البيئية ، وبالتالى فان خصائص العرق ليست ثابته . بل انهــا تتغير حسب ظروف البيئة ، ومعنى ذلك ان الانسان يتأثر تأثــرا بيولوجيا استجابة للبيئة التى يعيش بها ويتكيف معها ، وقال اصحاب هذا الاتجاه ان اثر البيئة يتزايد بمرور الوقــت وتوالى الزمن وقــد كانت دراســة فرانس بواس الاكاديمية الاساسية دراسة فى العلــوم الطبيعية ، وقد امتزجت فى نظريته الانثروبولوجية أساسا الرؤية الثقافية وممزوجــة بصراحة ودقة العلوم الطبيعية ، ولذا فقد كان من بين رواد هذا الاتجاه خاصة فى دراسته عن الاشكال الجسمية المتغيرة لنســل المهاجرين الــى

---

(١) ورد هذا المعنى تفصيلا عند gisberg انظر هنا الفصل الثالث من كتاب ociology مرجع سابق .

الولايات المتحدة الامريكية ، حيث نشر بحثا مدعما بالوثائق عام ١٩١١ يؤكد تغير الاجناس بتغير البيئة ، كما قدم بحث قام به باولز دليلا آخر على هذه المرونة البيئية ، ثم نشر (جوث) عام ١٩١٨ بحثا آخر أيد فيه ماذهب اليه بواس ، كما اكد بحث آخر قام به هرش عام ١٩٢٧ نفس المقوله .

ولكن كلا الاتجاهين لايصمدان أمام الواقع الملاحظ ، فالاتجـاه الحتمى الوراثى لايقدم تفسيرا للتباين الكبير المشاهد فى دنيا الواقع . كما انه يعجز عن الصمود أمام الدلائل المتزايدة التى تثبت ميل الاجيال المتتالية الى التغير .

وكذلك فان الاتجاه البيئى يعجز أيضا عن الصمود أمام كثير من الدلائل التى تشير الى الاثر القاطع للجينات (او حاملات الخصائص الوراثية) فى تحديد كثير من الخصائص والصفات الانسانيـة . فلون العين مثلا لاتحدده البيئة طبقا للمعلومات العلمية المتاحة الان والمادة اللونية بها تحددها الجينات .

ولقد ارتبطت هذه التصورات التفسيرية السابقة ببعض الافكار التى كان لها اثر كبير فى مجالات الانثروبولوجيا الفيزيقية ودور هذا العلم ولعل اهم هذه الافكار هى :

أولا : الفروق فى القدرات والذكاء .

ثانيا : البيولوجيا والتمايز بين الاجناس .

اولا : الفروق فى الذكـاء والقدرات :

من الغريب انه رغم تسليـم الانثروبولوجيين الفيزيقيين بتماثـل البشر فى التكوينات الهيكلية الاساسية باعتبارهم بشرا ، الا ان عمليـة التصنيف قد ارتبطت بهدف عنصرى بغيض الى حد كبير ، اذ لم يكتف

عدد كبير من الباحثين بابراز الخصائص الظاهرة والمتباينة بين الجماعات البشرية مثل الشعر واللون وغير ذلك بل ولقد راى البعض أن هذا الاختلاف يمتد الى طرق السلوك والقدرات العقلية والذكاء . وكان معيار التصنيف هنا هو أن درجة تقدم الشعب فى سلم التطور الحضارى انما يرتبط بوجود فروق سيكلوجية موروثة بين الجماعات البشرية ويقوم هذا الزعم على منطق مؤداه انه طالما أن الاجناس مختلفة فى خصائصها وسماتها الفيزيقية ، فانه من المتوقع أن نجدها مختلفة من الناحية العقلية أيضا ([1]) وبناء على ذلك فقد زعم أصحاب هذا الاتجاه بتفوق العنصر النوردى على غيرها من الشعوب فى القدرات والذكاء وغير ذلك . وظهرت اكذوبة النقاء العرقى والدم الازرق .تلك الاكذوبة الالمانية التى راجت فى وقت من الاوقات وكذلك وجدنا علماء يزعمون بأن الاختلاط العرقى سيؤدى الى القضاء على هذا النقاء . وقدمت أبحاث عديدة تؤكد التفاوت بين الجماعات البشرية فى الذكاء والقدرات العقلية. ومن هذه الابحاث أبحاث Brigham الذى وضع الاوربيين الشماليين الغربيين فى اعلى سلم القياس ووضع غيرهم من الاوربيين أدنى فأدنى ووصل الامر بأن وصفهم هوستون تشامبرلن بأنها شعوب تتفوق على سائر الشعوب الاخرى . ثم جاء Garth ليوضح أن بحثه قد أكد أن الهندى الامريكى مختلف عن الرجل الابيض العادى فى الذكاء والقدرات العقلية ، ولازلنا نسمع عن انخفاض مستوى ذكاء وقدرات الخلاسى (وهو الاسم الذى يطلق على النسل الوليد من زيجة بين عنصر أبيض وعنصر زنجى) عن والديه كليهما . وبعد ذلك ماذهب اليه دنكر جين اشار الى ان متوسط وزن مخ الاوربى اكبر من وزن المخ عند الاجناس الاخرى ([2]) كما قدم ارثر جنسون عالم النفس بجامعة كاليفونيا (بركلى) بحثا حاول فيه تدعيم الفرض القائل بأن ذكاء الزنوج وقدراتهم العقلية اقل من

1) ginsberg op-cit., p. 64.
2) Ibid., p. 66.

البيض عام ١٩٦٩ ، ورغم انـه اعتمد عـلى حقيقة واقعية هـى ان الامريكيين السود يسجلون فى اختبارات معـامل الذكاء ١٥ نقطـة فى المتوسط اقل من نظرائهم من البيض ولا يعز جونسون كل هذا الفرق الى الوراثة فقط . فبدلا من ذلك واستنادا الى دراسات مشكوك فى صحتها عن التوائم المتشابهة (وكلها توائم بيض) والى مقارنات بين البيض والسود من نفس البيئة (كما لو كان ممكنا ان تكون البيئتان متشابهتين تماما) . استنتج جونسون ان ٥ نقاط من فرق الخمس عشرة نقطة ترجع الى سوء بيئة السود اما النقاط العشر الباقية فيعزوها الى ضعف وراثى فى القدرات العقلية عند السود [١] .

قد وجد هذا الاتجاه رد فعل شديد حيث اوضح نيومان ان البيئة هى التى تؤثر فى تقديرات الذكاء والقـدرات العقلية . وكذلك فعـل كلينبرج الذى انكر وجود اى علاقة بين العرق والسيكولوجيا وانكر وجود ما اسماه البعض بالسيكولوجيـة العرقيـة وقـال : ان ربـط الفـروق السيكولوجية بالفروق الجسمية امر مشكوك فى صحته ، ولازلنا نفتقر الى برهان مقبول يثبت وجود علاقة بين بنية الجسم والشخصية ، وان المحاولات التى بذلت للربط بين سمات الذكاء او المزاج وبين الخصائص التشريحية - القامة - لون الجلد - شكل الراس والجمجمة وارتفـاع الجبهة .. الخ ، لاتنطوى نتائجها عـلى اى قيمة تنبؤية . وانتهـى كلينبرج الى انه حتى لو وجدت فروق بين الجماعات البشرية ، فان هذه الفروق لم تنتج عن عوامل وراثية او عرقية ، وانما من عوامل تاريخية وبيئية . وايضا اعترض بيتر فارب على هذا الاتجاه قائلا : ان « الذكاء صفة تكيفية معقدة ذات ابعاد عديدة عصت على التفسير حتى الآن [٢].

ولكن لابد ان نقرر ان هذا الاتجاه لايزال سائدا بل اننا نجد انه

---

(١) بيتر فارب .. مرجع سابق ص ٢٥٠ .
(٢) بيتر فارب .. مرجع سابق ص ٢٥١

حتى المعتدلون من الباحثين يتبنون هذا الاتجاه . وهنا يقول شابيرو : انه رغم الانتقادات الموجهة لهذا الاتجاه الا ان هناك نزعة تراودنا وتدفعنا الى الاعتقاد بأن الاجناس البشرية أو الشعوب تختلف بعض الشيء فى قدراتها الموروثة ، وان كان قد عاد ليقول : ومع ذلك فانى اعتقد بأن النظر فى اى من الاتجاهين ـ المبالغة فى التشديد على اهمية الفروق العرقية أو انكارها كليا ـ لايفى بالغرض ولايكفى لايضاح العلاقة بين العرق والقدرة الحضارية (١) ، ولاشك ان نشأة مايسمى بالحتمية الثقافية التى ترى ان الانسان من صنع الثقافة، قد كانت رد فعل للنظريات السلالية المتطرفة هذه (٢) . خاصة وان المسوح الانثروبولوجية والحقائق التاريخية قد أكدت توزيع السمات الثقافية والحضارية لاتتطابق مع التوزيعات السلالية (٣) .

والحقيقة ان القول بأن ثمة شعوب يعتقد انها تتمتع بتفوق فطرى على غيرها من الشعوب هو قول لازال فى حاجة الى كثير من التحميص، خاصة وأن هذا الموضوع كان مبررا لكثير من افعال العنف والعدوان ولازال يرن فى أسماعنا الفاظ تدل عليه مثل : الوصاية فى مجال السياسة، والتى تعنى وصاية شعب أو دولة على اخرى بحجة ان الاخيرة قاصرة عن ادارة شئونها ، وشعب الله المختار على مايحلو لبنى اسرائيل ان يسموا انفسهم ، واكذوبة الدم الازرق الذى كان خلف الحروب المتتالية فى التاريخ ، ولازلنا نسمع ونرى عن التفرقة العنصرية اليوم فى أرقى الدول التى تزعم لنفسها الديموقراطية .

وقد وصل نسبة من عبروا عن اعتقادهم بتخلف الزنوج عن البيض الى ٧٦٫٩٪ من مجموع المبحوثين (٤) ، وبالطبع تقوم هذه التفرقة

(١) رالف لنتون .. مرجع سابق ص٠ق٠

2) geza Rohiem, Psycho - analysis and anthrepology, intrnational unversity press, New York, 1969. p. 394.

3) ginisberg., op-cit., p. 83.

(٤) اوتو كلينبرج .. مرجع سابق ص ١١٥

على أساس الزعم ان هذه الاقليات تعانى نقصا وراثيا يرجـــع اساسا الى البلازما الجرثومية ، والواقع ان علمـاء النفس قـد اصبحوا غير مستعدين اطلاقا لمناقشة الفكرة الطبيعية النفسية الموروثة للانسان ([١]) .
ولابد ان نذكر هنا ان مثل هذه التفسيرات قد اصبحت ـ اى التفسيرات المنطلقة من مقولة الجنس ـ تثير ردود فعل عنيفة واوصبح هناك رد جاهز على مثل هذه المحاولات يقول : انه بدلا من الاعتماد على مقولة الجنس أو السلالة Race فى التفسير ، فان لدينا الان مقولة الثقافة ([٢])

الفسيولوجيـا والتمايز بين الاجنـاس :

لقد عمل الانثروبولوجيون حتى وقت قريب على البحث عن اسس بيولوجية تفسر الاختلاف بين الاجناس ، ويرجع اصول هذا الاتجاه فى الواقع الى زمن بعيد يمتد الى حوالى ٢٠٠ سنة سابقة فقد اعتنق كثير من المهتمين بالتصنيف السلالى فكرة مسبقة مؤداها أن السلالات تتصرف بشكل مختلف ، لانهم مختلفون بيولوجيا ، وقد قام هذا الاتجاه على أساس افتراض أن نمط جسم الفرد يحكم سلوكه ولو جزئيا على الاقـل وقد راجت هذه الحتمية البيولوجية بين الانثروبولوجيين لفترة طويلة، واذا كان بعض الانثروبولوجيين قد اصبحوا اكثر ميلا الى افتراض آخر مؤداه ان البشر يتصرفون بأساليب مختلفـة لانهـم تعرضوا لتجـــارب وخبرات ثقافية مختلفة ، الا أن البعض لازال يتقبل وجهة نظر تجمـع بين الاتجاهين كما هو الحال عند شابيرو والذى راى أن السلوك الانسانى *هو نتيجة لكل من التاثيرين معا اى انه نتاج للتفاعل بين العاملين الجينى* (الوراثى) والثقافى .

ولقد بدأ العلماء فى الربط بين البيولوجيا والتباين السلوكى عــلى اثر التعرف على الهومونات . والهرمومنات هى مواد كيماوية تفرزهـا

---

1) geza Rohiem op-cit., p. 397.
2) Ibid., p. 394.

الغدد الصماء ، وقد بدأ هذا الاتجاه يتاكد ويتزايد بعد أن نشر (كيث) Keith مقاله عن اثر الغدد الصماء فى الفروق العرقية ، بحيث اصبح الناس يشتبهون فى ان لهرمنات الغدد الصماء انماط عرقية .

والهرمونات التى تفرزها الغدد الصماء هى جزئيات كبيرة ومعقدة وبعضها يتالف من مادة الاسترويد وبعضها يكون عبارة عن جزئيات مهجنة ومعقدة تجمع معا أجزاءا من البروتين والاسترويد .

ووظيفة الهرمونات أنها تعمل كمنظم ، وهى التى تسبب بدء العمليات الفسيولوجية وتساندها ، وقد تبين أن هذه الهرمونات التى تفرزها الغدد الصماء تلعب دورا اساسيا فى نمو الفرد وتطوره ، وتبين انه يمكن ارجاع سمات مختلفة الى الغدد الصماء والتوازن بين الهرمونات التى تفرزها حيث يؤثر ذلك بدوره على التوازن بين اعضاء الفرد (حيث يرجع الطول الزائد مثلا أو السمنة المفرطة الى دور الغدد الصماء) بحيث راى البعض ان هذه الهرمونات كافية لتعليل وتفسير الفروق التشريحية بين الافراد ، وحيث أن الجنس هو مجموعة أفراد ، فقد رأى البعض امكان تفسير الفروق بين الاجناس بالرجوع الى عمل الغدد الصماء والهرمونات . ويعنى ذلك ضمنا ان الفروق بين الاجناس مرجعها الفروق فى عمل الغدد الصماء وافرازاتها والتوازن بين الهرمونات .

واذا كانت الهرمونات تصنع فى اعضاء متخصصة وتعمل على تنظيم الانشطة بين الخلايا ، فان احد الاسرار الغير واضحة فى الفسيولوجيا هى كيف تمارس الهرمونات سيطرتها على النشاط الخلوى والاهتمام المستمر بهذا الموضوع قد كشف فى السنوات الاخيرة . ان الهرمونات ايضا تنشط بواسطة افرازات الخلايا العصبية ، والهرمونات العصبية ، ولقد نظر الكثيرون الى الارتباط بين الهرمونات والسلوك على انه حقيقة لعشرات السنين رغم أن اسس هذه العلاقة لم تكن واضحة تماما .

ولم تتوقف محاولة العلماء فى الربط بين التباين العرقى والاختلاف البيولوجى على القول بأن هناك اختلافا فى نشاط الغدد الصماء وتوازن الهرمونات بينهم بل لقد ذهبوا الى أن من الفروق الفسيولوجية بين الاجناس اختلافهم فى مجال المناعة والتأثر بالامراض ، بحيث أن امراضا معينة تكون اكثر تأثيرا فى مجموعات بشرية عنها فى مجموعات اخرى . فالملاريا اقل تأثيرا فى الزنوج منها فى الاوربى الابيض الذى لم يكون مناعة ضد هذا المرض ، والامراض الجنسية التى حملها الغزاة البيض الذين كونوا مناعة كبيرة ضدها هى اشد اثرا فى الشعوب التى احتكت بهؤلاء الغزاة مثل الهنود الحمر - والاسكيمو - وغيرهم ممن فتكت بهم أمراض الزهرى وغيرها من الامراض الجنسية التى حملها البيض اليهم (١) .

كذلك فان الزنوج اقل عرضة واكثر مناعة للامراض الجلدية من البيض ، ولكنهم اكثر عرضة لامراض فقر الدم من البيض ، وكذلك فهم اكثر عرضة واقل مناعة بالنسبة لمرض السل .

ولا شك ان ذلك كله مرجعه التكيف والمرور بتجارب محددة اكسبته هذه المناعة اكثر من ارتباطه بخصائص تشريحية خاصة كالمعيشة بمناطق ليست عرضة للاصابة بهذه الامراض اصلا ومن ذلك مثلا أن اليهود اقل تعرضا لمرض السل لمعيشتهم الدائمة فى المدن وفى نفس الوقت أكثر عرضة لامراض السكر .

والآن نوجز فى عرض الخصائص والفروق بين الاجناس البشرية الثلاثة المشهورة الا وهى الجنس الابيض ، والجنس الاسود الزنجى ، ثم الجنس المغولى .

---

(١) انظر اسلام الفار : الانثروبولوجيا الاجتماعية الشركة القومية للتوزيع القاهرة ١٩٨ ص ٤٠ .

الشائع الآن هو ان هناك ثلاثة اجناس تتمايز فى الشكل الظاهرى على الاقل تمايزا كبيرا ·

فرغم ماسبق ان اوضحناه من ان الفروق بين الاجناس التى اعتمد عليها فى التصنيف مثل اللون والشعر وشكل الراس والانف ليست قاطعة او واضحة ولايمكن الاعتماد عليها فى عملية التصنيف ورغم أنه « قد أصبح الان واضحا ان تقسيم الاجناس المزعوم حسب الانثروبولوجيا القديمة والجنس الابيض والاسود ، والاصفر ٠٠ الخ ، هذا التقسيم المؤسس على لون البشرة ومقاييس الجسم ليس له اى دلالة بالنسبة لتاريخ استيطان الجماعات البشرية · فقد نجد مثلا افرادا من السود داخل الجماعات الشرقية (ميلاينزية ـ استرالية) وكذلك نجدهم فى الجماعة الغربية (هنود الجنوب سيرلانكا) ثم بالتاكيد الافارقة السود ورغم أن الخصائص الجسمية الخارجية التى تصنف الانثروبولوجيا الاجناس على اساس مثل الشكل والمقاييس ولون البشرة تتطور بسرعة حسب حالة المناخ والتعرض للشمس والارتفاع عن مستوى سطح البحر (١) وكل العوامل المحلية فى البيئة الا ان العلماء يصرون على أن هناك ثلاثة اجناس رئيسية متمايزة بأعمال هذه المعايير ذاتها ونوجز فى الاشارة الى هذه النقطة على النحو التالى :

الجنس الابيض (القوقازيين) :

ويطلق على مجموعة بشرية كبيرة تتميز اساسا بالبشرة البيضاء والعيون الفاتحة والرؤوس الضيقة والاجسام الكثيفة الشعر ، (ومع ذلك فان هذه المجموعة تتضمن اختلافات كبيرة · فلون البشرة بين افرادها يتراوح مثلا بين الابيض المائل الى الاحمرار الباهت واللون البنى الغامق الذى يتميز به الهندوس) ولعل مرجع ذلك أن هذه

---

(١) اندرية لانجاتى ٠٠ مرجع سابق ص ٨٠ ـ ٨١

الجماعة تضم مجموعات فرعية كبيرة هى مجموعة الشعوب النورديــة اى ساكنى اوربا وشــبه جزيرة اسكندنافــا ٠ وسكان حــوض البحــر المتوسط ، وبحر البلطيق والمجموعة الالبية (على امتداد جبال الالب) بجانب سكان الهند والجزر الهندية ٠

المغــوليـــين :

او الجنس الاصفر ، ويضم جماعة بشرية كبيرة تتميز بشــكل عام بالجفون العريضة والشعر الخشن الاسود المعتدل أو المسترسل ، والوجوه العريضة والبشرة السمراء المائلة للصفرة ويضم هــذا الجنس البشرى ثلاث مجموعات او ثلاث شعب هى المغول الاصليين بشرق آسيا كالصينى والكورى واليابانى وغيرهم ، ومغول الملايو وجزر الهند الشرقية والهنود الحمر بأمريكا والاسكيميين وغيرهم ٠

وكما هو الحال فى مجموعة القوقازيين فان مجموعــة المغوليين يتميز افرادها بوجود اختلافات بينهم فى خصائصهم الجسمية فقد يصعب تصور ان الهنود الحمر ينتمون الى نفس الجنس المغولى بين الصينيين واليابانيين واهالى التبت ٠ فرغم أن للهنود نفس العيــون السوداء ، والشعر الاسود الخشن المسترسل والبشرة السمراء المائلة للصفرة (١) الا انه ليس لهم انوف مغولية ٠ كما ان الهنود انفسهم يختلفون فيمــا بينهم اختلافا واضحا فى شكل الجسم والطول والوزن واللون ٠ ولاتبدو الملامح المغولية فى الظهور بينهم الا قرب الدائرة القطبية ٠

الزنــوج والاقــــــزام :

ويتميز الزنوج بالبشرة الداكنة المائلة للسواد واغلبهم ذوى رؤوس ضيقة وأنوف عريضة وشعور كثيفة صوفية ، وتضم هذه المجموعة زنوج

---

(١) أرثرجر يجورى ٠٠ مرجع سابق ص ١٩٢

افريقيا وزنوج المحيط فى غينيا الجديدة وميلانيزيا . اما الاقزام فايضا موطنهم افريقيا وآسيا والمحيط .

انثروبولوجيـــا التغـذيـــة :

لقد دابت الانثروبولوجيا على اقتحام مجالات العلوم الاخرى ، بل وربما كانت هى العلم الوحيد الذى صنف كأحد العلوم **Sciiences** وتصنف فى نفس الوقت ضمن العلوم الاجتماعية Social Science وتصنف كذلك ضمن الانسانيات humanties ، ويعتبر التمريض والتغذية مـن المجالات التى اقتحمتها الانثروبولوجيا . ولقد اصبح موضوع التغذيـة احد الاهتمامات النامية فى الانثروبولوجيـا الفيزيقيـة ويكتسب هـذا الموضوع اهمية فى الانثروبوجيا الفيزيقية وذلك لارتباطه بما يلى :

اولا : علاقة نوع الغذاء بالاجناس والفروق بين الجماعات البشرية.

ثانيا : ماثبت من ان عادات الطعام لاتقل من حيث اهميتها عـن نوع المواد الغذائية ، وبالتالى تزايدات اهمية دراسة هـذا الموضوع فى الحكم على ما اذا كانت التغذية فى مجتمع محدد كافية ام لا ؟

وقد سبق ان اوضحنا ان التباين بين الاجناس كان دائما ولازال يجذب انتباه الكثير من العلمـاء فى الانثروبولوجيـا ، واذا كان هـذا التباين يركز على الخصائص والصفات الجسمية . فقد كان من الطبيعى ان يهتم الانثروبولوجيون بالغذاء والتغذيـة ، وذلك لارتباطهـا الكبير بخصائص الجسم الانسانى . فالاختلافات فى النظم الغذائية ينتج عنـه اختلافا فى الصفات الظاهرية بين مجموعة الافراد ـ ونقصد بالصفـات الظاهرية تلك الصفات التى تتماثـل فيها افـراد القبيلة الواحـدة او العشيرة او المجتمع ولكنها ليست وراثية . بجانب ارتباط الغذاء ايضـا بالحالة الصحية حيث ان الغذاء يمكن ان يكون مصدرا للمرض كما انـه

يمكن ان يكون علاجا للمرض (١) •

وقد سلم عدد كبير من العلماء بهذه الحقيقة ، وقد قام هذا التسليم على ادلة غير مباشرة ، ويمكن ان نوجز النقاط التى نوقشت وادت الى تلك القناعة على النحو التالى :

١ ـ ان الاختلافات الغذائية بين الطبقات الاجتماعية ينتج عنه اختلافا فى الصفات الظاهرية بين الافراد التابعين للطبقات المختلفة •

٢ ـ ان الشعوب غالبا ماتختلف فى صفاتها الظاهرية وذلك لاختلاف مستويات طبقاتها الاجتماعية •

٣ ـ وعلى ذلك فثمة اعتقاد بأن الاختلاف فى النظم الغذائية ، هو السبب فى أختلاف الصفات الظاهرية وذلك لاختلاف مستويات طبقاتها الاجتماعية •

٤ ـ وعلى ذلك فثمة اعتقاد بأن الاختلاف فى النظم الغذائية ، هو السبب فى أختلاف الصفات الظاهرية بين الشعوب الانسانية •

والواقع أننا نجد الكثير من النظريات التى تدعم هذه الفكرة ، ويعتبر «ملز» أحد رواد هذا الاتجاه ، وقد بنى ملز نظريته على بحث العلاقة بين ظروف البيئة واستيعاب الغذاء ، ولم يقيمها على نوع الغذاء نفسه ، ومن رأى ميلز ان المناخ السائد ودرجة الحرارة والرطوبة لها تاثير كبير على تنظيم الحرارة فى الجسم الانسانى ، كما أن لها اثرها الكبير على قدرات هذا الجسم وانشطته واستيعابه للمواد الغذائية ، كما انه يرى أن هناك تاثيرا متبادل بين عادات الغذاء وسن النضوج وسن الشيخوخة والنشاط الجسمى ومدى التاثير بالامراض •

---

1) Theresa Tsung Tzu louie : explanatory Thinking in chinese Amenicuns, in Micheal Bottz, urban enveronment, 1978, p. 243.

ولا شك أن هذه النظرية تقوى كثيرا من وجهة النظر البيئيــة فى تفسير الفروق بين الاجناس والتى تربط بين الفروق الجسمية بين البشر وبين المؤثرات الجغرافية ومستوى المعيشة والوضع الاجتماعى والتغذيــة وترى أن للبيئة تاثيرها الكبير فى مجال الاختلافات بين الاجناس ، بل ويرد بعضهم فروق الاجناس للبيئة كلية . ويؤكد البعض على أن عملية التغذية ماهى الا خاصية بيئة enernomental characteristic أو معظمى بيئى يؤثر فى تطور الانسان . وقد وصف tini الطريقة التى تؤثر بها التغذية فى حجم الجسم ووزنه (١) تفصيليا . ولسنا هنا فى وضع يتطلب تناول هذه النقطة تفصيليا الا أنه يمكن القول أنه فى السنوات الاخيرة جمت دلائل عديدة تدعم القول بأن الاختلافات الغذائية لها تاثير هائل على تشابه الصفات الظاهرية ومن هــذه الدراسات اتضح على سـبيل المثال ان التغذية غير الكافية فى العمر المبكر قــد تؤدى الى كثير مــن النتائج الهامة :

١ ـ فمثلا نجــد ان البيانات التى جمعت عن نمو الاطفال قــد أوضحت ان الاختلاف فى مستوى التغذية ينتج عنه فروق هامة فى عملية نمو الاطفال ، وقد امتد أثرها ليس الى تخفيض القامة والوزن عــن المستويات السابقة فقط وانما نتج عنها أيضا احداث تغيرات فى النســب الرأسية (٢) .

٢ ـ أوضحت الدراسات أن التغذية غير الكافية فى العمر المبكر قد أدت الى زيادة نسبة وفيات الاطفال .

٣ ـ أدت التغذية غير الكافية بين الاطفال الى عدم قدرتهم على التعليم وانخفاض نسبة الذكاء بينهم .

---

1) George M. Foster, Medical Anthropology. John wiley & Sons, New York, 1978, p. 9.

(١) انظر رالف لنتون .. مرجع سابق ص ٥٠

٤ - ادت التغذية غير الكافية بين الاطفال الى نقص حجم الجسم الكلى ٠

٥ - ادت ايضا الى حدوث صعوبات غير عادية فى عمليات ولادة الاطفـال ٠

٦ - كان لها اثر الكبير فى زيادة سرعة التاثير بالعدوى والاستهداف للمرض ٠

٧ - بجانب ذلك يرى المتخصصون ان نقص البروتـين فى فتـرة الفطام يؤدى الى اضعاف المخ ضعفا مستديما (1) ٠

وعلى ذلك فانه ليس من الصواب الشك فى ان كثيرا من الاختلافات التى نلاحظها بين المجتمعات البشرية ترجع الى النظام الغذائى ٠ ومن المعلوم ان الاختلافات التى يبدو انها تعكس المتغيرات البيئية هى درجة الحرارة والارتفاع ، والضغط ، لذلك كلـه فاننا نتوقـع ان تحظـى الانثروبولوجيا الغذائية باهتمام متزايد فى فهـم الفروق البيولوجيـة للانسـان ٠

الانثروبولوجيـا الفسيولوجيـة :

تعتبـر الفسيولوجيـا احـد المجـالات الجـديدة التى غزتهـا الانثروبولوجيا تحت مسمى الانثروبولوجيا الفسيولوجية ٠ وقد عقدت ندوة فى جامعة هارفارد عام ١٩٦٨ ، قدمت فيـه العديد من المقـالات دارت كلها حول الموضوعـات الهامة التى تمثـل موضوعـات بحـث الانثروبولوجيا الفسيولوجيـة ، وقد تحددت هـذه الموضوعات عـلى النحو التالى :

---

1) George Foster, Merucal Anthropology 1974. p. 263.

١ ـ وصف الاستجابة الفسيولوجية للانسان لمثيرات بيئية معينة كارتفاع المكان او انخفاضه والحرارة والبرودة ... الخ .

٢ ـ دراسة الفروق بين البشر فى مجال الاستجابة الفسيولوجية ودراسة اسباب هذه الفروق والاختلافات .

٣ ـ فحص علاقة الاختلافات المورفولوجية والوراثية فى الانسان بالاستجابة الفسيولوجية .

٤ ـ دراسة علاقة الاستجابة الفسيولوجية بالبنية من ناحية . وبالثقافة من ناحية اخرى . وقد ظهر هنا اتجاهان :

أ ـ اتجاه راى اصحابه ان الاستجابة الفسيولوجية للبيئة الفيزيقية هى السبب فى تنوع السلوك بين البشر . وقد اكد البعض هنا ان النماذج والانماط البيولوجية تستطيع وحدها ان تحدد التطور الثقافى (١) .

ب ـ اتجاه آخر راى ان الثقافة هى التى تحدد السلوك بغض النظر عن البيئة الفيزيقية ، وان الثقافة تتغير ككل مما يعنى ان نظم السلوك الانسانى غير مرتبطة بالتركيب الوراثى وان وجود جينات سلوكية لدى الانسان ليس مؤكد كما انه ليس غير مؤكد ايضا (٢) .

جـ ـ اتجاه اخير راى ان هناك تفاعل متبادل بين البيئة من ناحية والثقافة من ناحية اخرى .

وقد انتهت الندوة الى الدعوة الى اعادة الاهتمام بالانثروبولوجيا

---

1) Alexonder Alland : Adaptation in cultural evolution New York columbia universty Press 1970. p. 30.

2) Ibid. p. 45.

البنيولوجية ([1]) . وهذا ما اكده البيرت دامون ايضا عندما اكد اننا فى حاجة الى علم جديد لدراسة الانسان واشار الى ان هذا العلم يمكن ان يطلق عليه بيولوجيا وايكولوجيا الانسان .

ويتخصص هذا العلم فى دراسة الامكانيات المتاحة للانسان على المعيشة فى النسق الذى يعيش فيه والذى يشتمل على النسق الايكولوجى والبيولوجى والثقافى ([2]) .

---

1) Paul Alber, op-cit., p. (8).

2) Roger Bastid, applied Anthropology, Translated by Alice Morton, Horpe and Row publishers, New York, 1973 p. 132.

الفصــــل الثـــامن

دراســات انثروبولوجيــــة

• كتب هذا الفصل الدكتور / سعيد فالح الغامدى .

فى هذا الفصل سنعرض لنموذجين من الدراسات الانثروبولوجيـة فى كل من الجزائر والمملكة العربية السعودية . وهما فى رأينا نموذجين لدراسات متنوعة من حيث موضوعاتها ومناهجها الامر الذى يجعلنـا نعتقد انها يمكن ان تقدمها للمبتدئين فى الدراسات الانثروبولوجيـة او ترسما لهم اسهل الطرق للدراسات الميدانية ومـن خلالهمـا يمكن لهم التزود بالمهارات الاولية التى تساعدهم فى دراسـات لاحقة يمكـن ان يقوموا بها مستقبلا . وهما دراسة فى مجتمع الطوارق بالجزائر ودراسة فى المجتمع العربى السعودى عن قبيلة بنى كبير ، الرابعة نعرضهما على النحو التالى :

اولا مجتمع الطوارق (١) :

يعود اصل الطوارق الى (الضهاجيين) الذين يعود اصلهم وموطنهم الاصلى الى جنوب شبه الجزيرة العربية . وهم قوم ورد ذكرهـم فى القرن العاشر والرابع عشر والخامس عشر قبل الميلاد على التوالى حيث اشار اليهم المؤرخون ابن حقل والبكرى وليون الافريقى . كما تحدث عنهم فيما بعد عبد الرحمن بن خلدون فى كتاب (العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام - العجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الاكبر) وأيضا ذكرهم ابن بطوطة فى كتابه (نزهة المشتاق فى اختراق الافاق) .

واعاد الاخيران اصل الطوارق الى صنهاجة النازحون من جنوب الجزيرة كما فى المجتمعات القبلية التى تتبع نظام القرابة الامـوى ، ومع هذا فان الزعماء دائما من الرجال دون النساء . بمعنى ان حكومة القبيلة تقوم على اساس النظام الابوى وهو يشبه النظام السائد بـين

---

(١) محمد عبد القادر السويـدى . التخطيط والتغـير الاجتماعى فى مجمتع الطوارق بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه فى علم الاجتماع بكلية الاداب جامعة القاهرة ١٩٧٧ ، بحث غير منشور .

القبائل العربية (١) والزعيم الاكبر الذى يرأس الاتحاد (مجموعة قبائل الهجار) يحمل اسم (امينو اكال) Amino Akal وتعنى المالك أو أمير البلاد . وتتكون هذه من مقطعين الاول (امينو) ومعناه امير أو سلطان ، (آكال) معناها البلاد او الوطن لتكون الكلمة فى مجملها تعنى (أمير البلاد) .

ولكل قبيلة زعيم يسمى (امرار) Amrar اى المحترم وهى تقابل كلمة (شيخ) لدى القبائل العربية (٢) .

وتتحدد وظيفة السلطان فى اشرافه على اراضى الطوارق فى منطقة الهجار التى تعتبر ملكية جماعية كما يجمع افراد القبائل للاعداد للحرب اذا هددت احدى قبائل الخلف فى ارضها أو ثروتها . كما يقرر رحيل الثروة الحيوانية الى الاراضى المجاورة وقت الجفاف . ومع هذا فهو لاينفرد بالسلطة اذ بامكان مجلس القبيلة ان يخلعه من منصبه ، لكنه فى الظروف العادية يبقى فى منصبه مدى الحياة .

(ويقوم امير البلاد) بجمع الجزية من الاتباع بمساعدة شيوخ القبائل وتتضمن الجزية أشياء عينية مثل التمر ، والذرة ، والسمن ، والابل ، والماعز ، وحتى الاشياء المصنعة التى تستوردها القبائل من الواحات أو من البلاد المجاورة .

بالاضافة الى الارباح والضرائب التى تفرضها العشيرة او القبيلة

---

(١) تعميم خاطىء ، فليست كل القبائل العربية تتبع هذا النظام ، اذ ليس مهما الاطار الذى تتخذه القبيلة ليكون الرجل هو الزعيم، فهذا معناه انتقال الزعامة من اسرة الى أخرى وقد تنتقل الى ثالثة ورابعة فى جيل واحد . بينما الزعامة فى القبائل العربية تنتقل فى خط الذكور فى الاسرة لزعيم (بالوراثة حيث يرثها أكبر ابنائه مالم يعجز عن ذلك فتنتقل الى غيره) .

(٢) السويدى . نفس المرجع ص ٦٤ .

على القوافل التى تمر باراضيها كما يحصل (امير البلاد) على نصف الغنائم التى يجمعها الاتباع فى غاراتهم المستقلة عن تنظيمة ٠

وفى مقابل هذا تقوم القبيلة بحماية الاتبـاع والمزارعـين من اى خطر خارجى وبقوة السلاح ٠

وقبيلة (الايموهار) تحتل مكانة سياسيـة واجتماعية فى مجتمـع الطوارق اذ يعتبر صاحبه الحكم والتوجيه فى المنطقة فمنها يعين الطوارق رئيسهم ٠

وقد سبقت الاشارة الى ان النظام القبلى عند الطوارق يقوم على الانتساب الى الام ٠ فى نفس الوقت الذى تأثروا فيه بالاسلام وبالعرب وفيما يتعلق بنظام الانتساب الى الاب فى بعض المسائل ٠

وهى ظاهرة يساعد فهمها على تقليل النظام القبلى والطبقـات الاجتماعية فى مجتمع الطوارق ٠

وبالتالى فهم العلاقات ومناشط السلوك التى تحكم حياتهم وتسمى الوحدة القبلية عند الطوارق باسم (تاوسيت Tawsit وتعنى القبيلـة Tribe (وأحيانا) العشيرة Clan كما يعنى Tawi;t النسيج ويشير الى قوة الصلات التى تربط بين أفراد الجماعة اذ كثيرا مايعبر الطوارق عن الصلة الدموية القوية التى تربط بين شخص وآخر على انهـا رابطـة اصلية أو جذرية نسبة الى جذر الشجر واذا كانت القبيلة هى اكبر وحدة قرابية فى مجتمع الطوارق فان الوحدات القرابية التى تتدرج تحتهـا كالتالى :

(اسرة نووية ، اسرة ممتدة ، بدنة ، بطن أو عشيرة ، القبيلة) ٠

الطبقـــات الاجتماعيــة :

من دراسة البناء الاجتماعى لمجتمع الطوارق يتضح أن النظـام الاجتماعى لديهم يتميز بتنظيم خاص لايوجد لـه شبيه فى القبائـل العربية الموجودة فى المغرب العربى أو فى شبه الجزيرة العربية فالنظام الاجتماعى عند الطوارق يتكون اساسا من خمس طبقات رئيسية تكاد تكون فى معظمها مغلقة ووراثية لايمكن تغييرهـا وهى حسب الترتيب التنازلى فى السلم الاجتماعى ٠

١ ـ طبقة النبلاء ٠
٢ ـ طبقة الاتباع ٠
٣ ـ طبقة العبيد ٠
٤ ـ طبقة الحرفيين ٠
٥ ـ طبقة الحرطانيين (المزارعين) ٠

فالطبقة الاولى تقع فى أول السلم الاجتماعى ٠ ذلك بسبب نقاوة انسابهم والتزامهم بنظام الزواج الداخلى ٠ وهذا التقسيم الطبقى أمـر قديم قدم تراث البداوه وهم الذين ـ أى طبقة النبلاء ـ تتركز فى ايديهم السلطة والزعامة كما اسلفنا ٠

والطبقة الثانية : هى طبقة الاتباع وهم الذين يدفعون الجزية ، وهم فى الاصل (طوارق) لكنهم ينتسبون الى خادمة كانت لدى جـد طبقة النبلاء ولهذا كانوا أقل منزلة فى السلم الاجتماعى من النبلاء ٠ وهم بشكل عام اكثر ثروة من النبلاء من حيث عدد رؤوس الحيوانات التى يمتلكونها ٠ وتتمثل الجزية التى يدفعها هؤلاء لطبقة النبلاء خاصة (لامير البلاد) فى السنة ١٢ مزودا مـن التمر (وثمان) ـ عكك مـن السمن ٠ والعكة هى الاناء الذى يوضع فيه السمن وتصنع من الجلد ٠ (واثنتى عشرة) شاه حلوبا (واثنى عشر رأسا من الماعز) ٠

والطبقة الثالثة : هى طبقة الحرفيين ويطلق عليهم (المعلمين) ـ

ويمارسون أعمالا مثل المعادن والاخشاب والحلاقة والجحامة . وهؤلاء يؤدون الاعمال التى من هذا النوع والتى يحتاج اليها طبقة النبلاء والاتباع .

اما نساءهم فيمارسن الصناعات الجلدية والتطريز وهؤلاء من حيث المكانة الاجتماعية فى السلم الاجتماعى يصنفهم بعض الطوارق فى منزلة اقل من الاتباع بينما يصنفهم فريق آخر بين طبقتى النبلاء والاتباع .

اما طبقة الحرطانيون والعبيد - أو الخدم - فهى تعنى طبقة الفلاحين أو المزارعين فهم الذين يشكلون العنصر البشرى المستقر فى الارض .

وهم فى أسفل السلم الاجتماعى بعد الخدم . وهم فى أصلهم أما عبيد قدموا للطوارق من (مالى والنيجر) تم شراؤهم واسرهم فى الحروب ثم تحرروا . واما ينتمون الى أصل (زنجى) ويقومون بزراعة الارض وباعمال البناء والتجارة وشىء من ممارسة الاعمال المكتبية وما اليها .

ورغم زوال الرق كنظام اجتماعى فى مجتمع الطوارق التقليدى الا أن رواسبه قد بقيت الى سنوات قليلة قبل الاستقلال حيث كان عدد (الخدم) فى عدة قبائل يفوق اعداد القبيلة نفسها .

وهناك طبقة أخرى على جانب من الاهمية هى طبقة (المرابطين ورجال الدين) وهم يمثلون الجماعة الدينية التى يحمل افرادها (البركة) التى توارثوها ابا عن جد . ويقوم رجال الدين بتعليم القرآن الكريم واللغة العربية لجماعات صغيرة من تلاميذهم الذين ينتقلون معهم من مضرب الى آخر برفقة قبائل الطوارق . ويعلمون صغارهم المعارف الابتدائية التى تدرس عادة فى الكتاتيب .

كما يقومون بكتابة الاحجبة ومعالجة المرضى . ويؤمون الناس فى الصلاة ويفسرون النصوص الشرعية فيما يتعلق بالاحوال الشخصية كالزواج والميراث وما شابه ذلك وكذا يقومون بدور فعال فى حل الخلافات التى تظهر بين الاحلاف من قبائل الطوارق . حيث يسارع هؤلاء الى خيام الزعماء ومجالس القبيلة للوساطة وتقديم النصح للاطراف المتنازعة .

النشاط الاقتصادى فى مجتمع الطوارق التقليدى :

مجتمع الطوارق مجتمع بدوى قبلى يقوم نظامه الاجتماعى على اساس روابط القرابة التى تتمثل فى انقسام الجماعات التقليدية الى وحدات قرابية ، والتى ترتبط كل منها ارتباطا تقليديا بمنطقة معينة بالذات تعتبر موطنها الاصلى الذى يحق لها دون غيرها من الوحدات القرابية الاخرى أن تستغل موارده الاقتصادية من ماء ونبات لصالح اعضائها كما تقيم فيه مخيماتها الدائمة وتزاول فيه نشاطها الزراعى والرعوى .

غير ان هذا الارتباط التقليدى بالموطن الاصلى لايمنع الجماعات القرابية للطوارق من الانتشار فى موسم الرعى خارج حدود وطنها الاصلى وان تنقسم الى جماعات رعوية صغيرة تتالف فى معظم الاحيان من افراد قلائل من الرجال حتى يمكنها الانتقال بسهولة من مكان الى آخر .

فى حين تترك مخيماتها بما فيها من شيوخ ونساء واطفال وخدم فى موطنها الاصلى : وبالقرب من المراكز الزراعية لتسهر على قطعان الماعز والاغنام التى لاتحتمل التنقل لمسافات كبيرة فى قلب الصحراء الكبرى . وهكذا تخضع الجماعات القرابية فى مجتمع الطوارق لنوعين من التنظيم الاجتماعى تحت تاثير العامل الايكلوجى . يتمثلان فى (انقسام مؤقت فىموسم الرعى ، الذى يستمر عدة اشهر) ثم التجمع

بعد انتهاء موسم الرعى والاستقرار فى المخيمات التى لم تغادر حدود الوطن الاصلى حيث تمارس الجماعة القرابية كوحدة اجتماعية نشاطها فى جمع المحصول من المراكز الزراعية التى يباشرها المزراعون وهكذا نجد أن (النسق الايكلوجى) يلعب دورا فى التنظيم الاجتماعى القبلى للطوارق وتنظيم الحياة الاقتصادية ، وهكذا نجد أن نظام الملكية للاراضى فى المنطقة مرتبط ارتباطا قويا بالنظام القبلى للطوارق . وبصرف النظر عن بعض المناطق الزراعية التى تقع حول مراكز العمران الرئيسية . والتى تتبع فى تقسيمها نظام الملكية الفردية . الا أن مناطق الرعى مقسمة بين عدد من القبائل بحيث تمتلك كل قبيلة أو وحدة قرابية منطقة واسعة محددة تحديدا قريبا بواسطة علامات أرضية معروفة . ومن حق جميع أفراد القبيلة التنقل داخل هذه المنطقة للرعى أو للزراعة بالقرب من مصادر المياه ، ولايحق لاى فرد من خارج القبيلة أن يرعى حيوانات فى أرضها أو يستفيد من مياه آبارها . أو عبورها بالماشية والابل دون أخذ اذن من شيخها بعد أن يدفع له مقابلا عينيا عوضا عن ذلك .

ومن أهم النتائج التى ترتبت على الملكية هنا أن كثيرا من المراكز الزراعية قد تركت دون زراعة ، بينما تكررت زراعة مناطق أخرى فى عدة مواسم متتالية بشكل قد يؤدى الى فقدان خصوبتها وكذلك الامر بالنسبة للمراعى التى قد تبقى مهملة لمدة طويلة مما يشكل خسارة اقتصادية لهذا الاقتصاد الذى يعتمد على الزراعة وتربية الحيوانات والذى لايكاد يسد حاجة سكان المنطقة الا فى حدود ضيقة .

وبالاضافة الى النشاط الزراعى والاقتصادى كانت هناك عدة مناشط اقتصادية فى مجتمع الطوارق التقليدى منها (الاغارة والسلب) حيث تمثل الاغارة عند أغلب قبائل الطوارق جزءا من الحياة الاقتصادية البدوية . وهى الغارات التى يشنها المحاربون على قبائل

بعيدة عن موطنهم الاصلى خصوصا فى اوقات القحط والمجاعات التى تتعرض لها الصحراء ٠

والاغارة على نوعين اما على مستوى (الافراد) واما على مستوى (القبيلة) فالاغارة على مستوى الافراد تتمثل فى ترصد عدد محدود من الافراد لقافلة تعبر طريقا ما وسلبها جميع ما تملك واما الاغارة الثانية التى تحتل مكانا فى النظم الاجتماعى القبلى الطارقى ، فهى التى تنظم بمعرفة القبيلة ويشترك فيها عدد قد يزيد عن الخمسين من المحاربين وتتم على مناطق بعيدة وتعتمد على السرعة والمفاجأة ثم النهب والفرار حتى يتعذر على الجماعات التى تعرضت للسلب والنهب اللحاق بهم ، ويرى (السويدى) بان اقرب منطقة للاغارة على مستوى القبيلة لاتقل عن (٧٠٠ كليو متر) ٠

ومع بداية القرن العشرين وتاسيس الادارة الفرنسية فى وسط الصحراء ، واخضاع قبائل الطوارق لها سنة ١٩٠٥م اصبحت الغارات ممنوعة بل نادرة ـ مما يوضح اهمية دور السلطة السياسية وسيطرتها على تحركات البدو ٠

ويمارس الطوارق ايضا التجارة وتبادل القوافل نتيجة لاتصالهم بالحضارة الغربية واكتساب كثير من ملامح النظام الاقتصادى الحديث ، فعرفوا فكرة السوق والتعامل بالنقود ، الامر الذى ادى الى احداث تغييرات عميقة فى حياتهم الاقتصادية وخاصة فى أنماط التبادل التلقيدية وتجارة القوافل فهم يصدرون الفائض ويستوردون الضرورى من المناطق المجاورة عن طريق قوافل الجمال والتى تنتقل فى رحلة الاستيراد والتصدير لمسافات طويلة ٠

ويخلص الباحث الى ان النظام الاقتصادى التقليدى لمجتمع الطوارق حتى سنة ١٩٦٢م ظل محافظا على الخصائص التالية :

١ - سيطرة (المقايضة) كنظام للتبادل فى الاقتصاد التقليدى .

٢ - الاعتماد الكلى للسكان فى غذائهم على (التمر والذرة) وهى موارد لاتنتجها منطقة (الهجار) وانما يستوردها الطوارق من المناطق المجاورة عن طريق المقايضة .

٣ - نتيجة لذلك فقد تطلب هذا النوع من التنظيم الاقتصادى التقليدى تربية اعداد كبيرة من الابل لضمان تجارة القوافل والتبادل .

٤ - بقاء اعتماد الطارقى وارتباطه بنظام الخدم فى الخيمة ، وبالحرطانيين (المزارعين) فى الميدان الزراعى .

المراة والاسرة فى مجتمع الطوارق :

تحدث كثير من الرحالة وعلى راسهم (ابن بطوطة) عن المراة الطارقية وعن الحرية التى تتمتع بها فى علاقاتها مع الاخرين حتى انه بامكانها الجلوس فى مكان واحد وفى خلوة مع الغريب بعلم زوجها دون اعتراض من الاخير ، غير ان الباحث ذهب الى استشهاد بنصوص اخرى لباحثين انثروبولوجيين ليؤكد ان علاقة المراة بالاخرين انما هى علاقة (شريفة) للعين والقلب وليست (للفراش) ([١]) .

وحرية المراة فى الطوارق مكفولة عن طريق المجتمع قبل الزواج ، فالطارقى لاتسيطر عليه فكرة التفوق على المراة قبل زواجه كما ان موقفه تجاهها لايتغير بعد الزواج منها فالفتاة تتمتع بجميع المزايا التى يتمتع بها الشاب عادة ، ولهذا يلاحظ ان مستوى تعليمها متقدم عن الشاب ، اذ انه منذ الصغر تهتم بها والدتها بحيث تعلمها تفصيل الملابس وترقيعها وتصنيع شعر الماعز والجلود وطريقة اقامة (الخيمة)

---

(١) السويدى .. نفس المرجع ص ٩٧ .

وفكها وطريقة التزين للنساء كما تعلمها كيف تلقى الشعر وتعزف علـى آلة (الامزاد) الموسيقية وهى آلة تشبه الربابة العربية ، ويرى الباحث فى ايجاز ان المراة الطارقية (امينة الثقافة) فى هذا المجتمع .

وتلعب المراة هنا دورا هاما فى النظام الاجتماعى ، فالطارقـى يرث الطبقة التى تكون عليها امه ، بصرف النظـر عن الطبقـة التـى ينتمى اليها الاب . كما ان الرجل الذى يتزوج سيدة اعلى طبقة مـن طبقته الاجتماعية فانه عمليا ينال مكانة أعلى ، حتى ولو ظلت مكانته من الناحية النظرية هى مكانـة (قبيلته) ويمكن للمراة الطارقيـة ان تتزوج برجل اقل منها (منزلة) اجتماعية ولا تفقد مكانتها ايضا . لكن الرجل اذا اراد ان يحافظ على مكانته الاجتماعية فعليه فى هذه الحالة ان يتزوج من امراة من نفس طبقته أو اعلى منها (ويحمـل الابنـاء عموما اسم آبائهم دون الانتساب لامهاتهم) .

غير ان الطوارق يرون ان الام هى التى (تحمل) ابناءهـا قبـل الولادة لهذا فهم ابناؤها وليسوا ابناء للرجل فاذا تزوجت المراة مـن قبيلتها فأولادها يرجعون الى نفس القبيلة ، واذا تزوجت من خـارج قبيلتها فالاولاد لها وليسوا لابيهم أو قبيلته . واذا توفى الزوج فـان الاولاد وأمهم يرجعون الى قبيلة الام معها . واذا كان على قيد الحياة ووقع انفصال بين الزوجين فأن الاولاد يبقون مدة معينة مع ابيهم ثم يرحلون بعدها الى قبيلة الام .

الزواج وتنظيـم الاسـرة :

من سلطات رئيس القبيلة فى مجتمع الطوارق انـه يستطيـع ان يأمر الافراد اما بزيادة النسل أو الحد منه أو ايقافه ، اذا راى نمـوا فى موارد القبيلة أو نقصا فيها او وجود قحط يؤدى الى انعدام الموارد الطبيعية وعلى هذا فقد توصل (الهجار) فى اطار التوازن الايكلوجى الى ايجاد العدد الامثل الذى يمكن توفير الغذاء المناسب له حيث ان

هذه المنطقة لاتكاد تسد حاجة السكان الى الغذاء • وبهذا نستدل على ان الطوارق قد عرفوا تنظيم الاسرة (١) •

اما الزواج فان الطارقى لايقدم عليه الا فى (سن متاخرة) بمعنى انه نادرا مايتزوج قبل سن الثلاثين والمراة قبل الخامسة والعشرين على عكس المجتمعات القبلية والبدوية فى المجتمعات العربية الاخرى • ومراسم الزواج تبدأ فى العادة بأن يذهب عدد من اصدقاء العريس او اقاربه او اسرته لخطبة الفتاة التى يرغبها واذا حصلت موافقة والد العروس بدأ التفاوض حول المهر والهدايا حسب العرف المتبع فى كل قبيلة فمثلا طبقة (النبلاء) يتكون مهر فتاتهم من (مبع نياق) اما الاتباع فثلاث نياق ، واما طبقة العبيد والخدم فالمهر عندهم (ناقة واحدة) وبضع رؤوس شياه •

وليلة الدخلة يوضع فى (خيمة العروسين) كمية من الرمل تفصل بينهما وتبقى ثلاثة ايام لايقترب العروسان خلالها من بعضهما ، لان وراء ذلك فلسفة تقوم على اساس انه فى (الليلة الاولى) تكون العروس (اختك) وفى الثانية تكون (امك) وفى الثالثة تكون (حماتك) اما فى الليلة الرابعة فهى (زوجتك) وبعدها تزال كمية الرمل هذه (٢) •

وتتم مراسم الزواج فى بيت الزوجة حيث تقيم العروس فى بيت اهلها لمدة عام على الاقل وقد تمتد الى سنوات خمس وهى الفترة التى تعد العروس فيها جهازها ثم ياتى الزوج لاخذها فى حفلة خاصة الى منزله وقد يصحبه معها طفل او اكثر تم انجابهم خلال هذه الفترة حيث انه كان يتردد عليها ويعاشرها فى دار اهلها ثم يعود للاقامة فى مخيم والديه •

---

(١) السويدى •• نفس المرجع ص ١٠١ ، ١٠٢

(٢) السويدى ـ نفس المرجع ص ١٠٣ ويذكر الباحث بأن هذه العادة زالت بزوال المجتمع التقليدى وتحديثه •

وهناك فلسفة اخرى وراء اقامة العروس هذه المدة بمنزل والديها وهى اعطاء الزوجين الفرصة الكافية للتعرف على طباع كل منهما كما يلمسان فى نفس الوقت المسئولية العائلية حتى لاينفصلان أو لا يقدران الحياة الزوجة ٠

وتعدد الزوجات عندهم موجود لكنه نادر على الرغم من معرفتهم باباحة الشريعة الاسلامية لهذا التعدد ٠ ومن ضمن الشروط التى يؤكدون عليها للخاطب قبل الزواج وهو عدم (التعدد) وعدم الهجرة للاقامة خارج ارض القبيلة ٠

مراحل العمر فى مجتمع الطوارق :

اذا كانت التنشئة الاجتماعية تهدف الى اكتساب الفرد (طفلا فمراهقا ثم راشدا وشيخا) سلوكا ومعايير واتجاهات مناسبة لادوار اجتماعية معينة تكسبه الطابع الاجتماعى ، وتمكنه من الاندماج فى الحياة الاجتماعية ، فأن من اهم العوامل فى التنشئة الاجتماعية تحديد الجماعة لادوار افرادها التى تطلب منهم القيام بها وذلك تبعا لجنس الفرد ومرحلته العمرية (١) ٠

وفى مجتمع الطوارق يمر الفرد بعدة مراحل اجتماعية تحددها الجماعة خلال مراحل نموه العديدة من الطفولة وحتى الشيخوخة ٠

ويطلق (الهجار) على الصغير اسم (آرا) وهو اسم يطلق على اى خلفة كانت من ذكر أو انثى او حيوان ٠ ذلك لان الطفل عند الطوارق فى هذه المرحلة لايتمتع باية اهمية اجتماعية ٠ كما أن عاداتهم فى تسمية الاطفال تشبه الى حد كبير عادات (الهنود الحمر) الذين يعتقدون فى كثير من المظاهر ٠ فهناك اسماء (البرد) لان الطفل ولد فى موسم

(١) حامد عبد السلام زهران ــ علم النفس الاجتماعى ــ عالم الكتب ــ القاهرة ط ٣ ١٩٧٤م ص ٢٠١ ٠

البرد والامطار وهناك من تدعى أو يدعى (الغزال أو النمر أو الجربوع) لانه تصادف مرور هذه الحيوانات اثناء الولادة ([1]) .

وفى سن (ست سنوات) يبدأ الطفل فى لبس (السروال) الذى يسمونه (عرجاج) وتقام له فى هذه المناسبة حفلة خاصة يحضرها اقاربة واعتبارا من هذه المرحلة يصبح من حقه ان يشارك فى حراسة قطيع الماعز أو مرافقة الراعى فقط دون المشاركة وذلك عند (النبلاء) ويبدأ فى تعليم القيافة والتمييز بين آثار مختلف الحيوانات وحتى الانسان . ونظرا لاهمية هذه المرحلة فى نظر الطوارق فى حياة الطفل واثرها فى تكوين شخصيته فان الطوارق يعارضون بشدة العقاب القاسى فى حق الاطفال لان شدة العقاب على حد تعبيرهم - تجعل الطفل صاحب مزاج حاد ولذا يقتصر العقاب فى هذه السنة بالزامه بالبقاء فى الخيمة . اى بحرمانه المؤقت من (الحرية) .

اما فى بقية مراحل العمر فتطلق عليهم القاب معينة تبعا للدور الذى يستطيعون القيام به وهم بين العاشرة والثانية عشر يبدأون السفر الى جهات اخرى ، وعند سن البلوغ بالنسبة للفتى يبدأ فى وضع اللثام ثم ينزعه ليظهر للاخرين أنه قد وصل الى سن البلوغ واما بالنسبة للفتاة فبعد ظهور (الحيض) تبدأ فى وضع (الرداء) على جسمها .

وترى (روث بنديكت) R.Benedict أن معظم الجماعات ([2]) التقليدية تحدد المراهقة من الناحية الاجتماعية ذلك لان الاحتفالات التى تقام بهذه المناسبة الغرض منها الاعتراف - بشكل من الاشكال - بأن الطفل قد بلغ مرحلة جديدة تنسب اليه فيها مسئوليات لم يعهدها

---

(١) ويشير الباحث الى اختفاء الاسماء تحت تاثير الثقافة الاسلامية والعربية واستبدلت بالصديق والمصطفى واحمد ولد أحمد وهكذا .

(٢) بندكيت روث - الوان من ثقافات الشعوب - ترجمة محمد الدسوقى وآخرون لجنة البيان العربى - القاهرة ص ٤٧ .

من قبل وهى عملية ذات مظاهر متنوعة لكى نفهمها علينا ان نهتم بهذه الفترة التى تسمى (مرحلة الانتقال) .

ومجتمع الطوارق كمجتمع تقليدى يحدد لافراده فترة الانتقال من مرحلة الطفولة الى مرحلة المراهقة الى البلوغ فلكى يتبوأ المراهق مكانته الاجتماعية الجديدة يبدأ وضع اللثام بصفة دائمة ، ويتم هذا فى مناسبة خاصة يحضرها اقاربه وتقدم له فيها الهدايا اهمها (الخنجر) (ولثام ازرق) وبعدها يصبح من حقه ان يحضر الحفلات والندوات ومجالس الرجال .

وأما الفتاة فتتلقى عند بلوغها هدايا من الملابس وتقام لها مناسبة مثل الفتى . وغالبا ماتقام مثل هذه المناسبات بمناسبة (صيام) الشاب لشهر رمضان أول مرة ويطلق على الشاب فى هذه الفترة لقب (اما واد) والفتاة (تماواد) وتعنى من بلغ سن (الرشد) أو البلوغ الآن .

وعند بلوغ الطارقى سن الخامسة والعشرين يبدأ والده فى التفكير لايجاد زوجة له وهى عملية فى العادة تستمر من سنة الى ثلاث سنوات فى المتوسط وعندما يستقر الرأى على العروس يبعثان من يقوم بمهمة الخطوبة وبعد الزواج يحصلان على القاب اخرى وكذا فى سن الشيخوخة والارتكاز على العصا .

روابط القرابة لدى مجتمع الطوارق :

اكد (فالزن) Valsen ، على أهمية التنظيم القرابى وصلته بثبات نظام العائلة فى المجتمع الاصلى ، وذلك فى دراسة عن المهاجرين الى المدينة . وذكر أن هذا الثبات من شأنه أن يربط المهاجرين باقاربهم فى المجتمع الجديد ، حيث يعلمون أن هذا هو الضمان الاجتماعى الوحيد الذى يعتمدون عليه فى حالة عجزهم عن العمل أو تقدمهم فى السن ، وان اصبح البدوى المهاجر (ظاهريا) مواطنا حضريا فانه فى

سلوكه الاجتماعى وتقاليده قد يثبت عكس ذلك ، اذ غالبا ما يعكس فى سلوكه كثيرا من القيم الاجتماعيـة القبلية ، وهـذا مايعبر عنه (ارثر Arthur.B بقوله (تستطيع ان تنتزع رجلا من الريف ولكنك لاتستطيع ان تنتزع الريف من عقلية رجل .

والمجتمع البدوى الذى كان يرفض العمل البدوى ويحتقر كل مهنة ماعدا مهنة الرعى تراجع امام الظروف والمواقف الجديدة ، وقبل فكرة العمل باجر وفكرة السماح لبعض افراده بالهجرة من موطن القبيلـة الاصلى والاقامة فى المراكز الحضرية وفكرة الاستقلال الاقتصادى للاسرة المكونة من الابوين والاولاد على نطاق الاسرة الممتدة او البدنة .

وهذه كلها امور لم تكن متوقعـة فى اول الامر ، ولهـذا يحاول المجتمع ان يجد وسائل للتغلب على المشكلات الجـديدة التى اصبحت تواجهه بعد هذه التغيرات ، وذلك بادخال تغيرات جديدة على انمـاط حياته (١) . وفى مجتمع الطوارق بدا الشباب ينصرف عن العمـل فى تربية الابل طلبا للعمل باجر فى المراكز الحضرية وقد اوجد هـذا نوعا من التنظيم الجديد يتمثل فى هجرة فرد او فردين من الجماعة القرابية للعمل لفترة معينة ثم ياخذ مكانة فرد آخر وهكذا بالتناوب .

وقد ادت الهجرة هذه الى تغيير شكل الاسرة فى مجتمـع تمثـل نوعا من التضامن القوى بين افرادهـا .

وقد ادت الهجرة هذه الى تغيير شكل الاسرة فى مجتمـع الطوارق من الاسرة الممتدة الى الاسرة (النووية) مما ادى الى استقلال اقتصادى للافراد واستقلال بكثير من المسئوليات . مما جعل الفرد اكثر تحررا عن القادة التقليديين للقبيلة . وليس معنى ذلك تخلية نهائيا عن مجتمعه

---

(١) احمد ابو زيد ـ البناء الاجتماعى ـ المفهومات ـ مرجع سابق .

بدليل انه لايزال يلجأ الى كبار السن ورجال الدين لحل نزاعة مع اقاربه وافراد اسرته ٠

اما فى حالة وقوع النزاع مع رجل غريب فانه كثيرا ما يلجأ الى رجال الشرطة والامن لحل هذا النزاع (١) ٠

ويشير الباحث الى ان مجتمع الطوارق - كمجتمع تقليدى - لاتوجد به هيئات مميزة تختص بالنظر فى المنازعات التى تنشب بين اعضاء القبيلة او تتولى الفصل فى المنازعات ، وانما يشرف على هذه الامور كبار السن ورجال الدين دون ان يكون هناك اشخاص مختصين او منقطعين لهذه المهمة ولهذا كانت الاحكام تتخذ شكل نصائح قد تقبل بها الاطراف المتنازعة او ترفضها ، وان كانت تقبلها فى معظم الاحيان لاسباب اجتماعية او دينية تتعلق بمكانة هؤلاء الشيوخ ورجال الدين ٠

ويتبع المجتمع الطارقى نظام الزواج من الداخل او من الخارج حيث نجد انهم يقومون بتزويج بناتهم الرجال من خارج القبيلة بنسبة تبلغ (٤٠٪) ذلك من اجل تدعيم القبيلة بأفراد جدد خاصة ونحن نعلم ان الانتساب لخط الاناث هو السائد لديهم ٠ فالفرد ينسب الى أمة ويعود ليعيش معها داخل قبيلتها (كما تمت الاشارة الى ذلك من قبل) اما حجم الاسرة المفضلة لديهم فهى التى يتراوح الاطفال فيها بين خمسة أطفال ٠ والاسرة التى يقل عدد الاطفال فيها عن خمسة فهى فى نظرهم أسرة صغيرة او قليلة العدد ٠

القيم المرتبطة بارتداء اللثام لدى الطوارق :

يرى (رالف لنتون) R. Linton انه حينما يعترف المجتمع بالعشيرة تجد وسائل للابقاء على صلة القرابة ماثله امام عين الفرد وللتشديد على

(٢) السويدى نفس المرجع ص ١٢٠

أهميتها فأن الوحدة العشائرية يكون لها (اسم خاص) وكثيرا ما تتخذ لنفسها رمزا كحيوان او شيء معين ينظر اليه اعضاؤها نظرة ملؤها الاحترام ، بل وكثيرا مايحدث أن تتخذ لنفسها شعارات مميزة من لباس او خزف حتى انه بمجرد النظر اليهم يمكن تمييز العشيرة التى ينتمون اليها (١) .

وعند قبائل الطوارق سواء كانوا من طبقة (النبلاء) أو الاتباع يمثل ارتداء اللثام المظهر العام بين الذكور البالغين ، فالشاب عند سن السادسة عشرة يبدأ فى ارتداء (اللثام) وحمل (السيف) اى يصبح رجلا كامل العضوية فى قبيلته . وترتبط عملية ارتداء اللثام فى المجتمع التقليدى للطوارق بمظهرين اساسيين هما :

(أ) مرحلة العمر التى يصل اليها الطارقى لكى يصبح من حقه ارتداء اللثام .

(ب) الطقوس المصاحبة لعملية ارتداء اللثام (٢) .

ويسمى اللثام فى الطوارق بالتاجلموست وهو عبارة عن قطعة من القماش الازرق اللامع (عند النبلاء) المصنوع فى (مالى والنيجر) او الابيض عند (الاتباع) وتتالف أحسن أنواعه (اللون الازرق) من شرطة طويلة كل شريط منها حوالى ثلاثة سنتيمترات . يخاط بعضها الى بعض . بحيث يترك فراغ بين كل شريط وآخر يتيح لصاحب اللثام التنفس وعادة يصل طول اللثام الى اربعة امتار ونصف المتر . وتعود اهمية اللثام الازرق الى أنهم يرون انه يساعد على تكوين طبقة من الشحم أو الدهن على وجه صاحبه تجنبه (التشقق) الذى قد يحدث لشدة جفاف الصحراء ، ولهذا لايغسل الا بعد استعماله مدة طويلة .

---

(١) رالف لنتون ـ دراسة الانسان ـ ترجمة عبد الملك الناشف مرجع سابق ص ٢٠٩ .

(١) السويدى : نفس المرجع ص ١٢٢ .

أما اللثام الابيض فتشير بعض الروايات الى انه انتشر بين الطوارق عن طريق (العرب) وهو الذى يستعمله (الاتباع) والملاحظ ان طريقة ارتداء اللثام تشير الى القبيلة التى ينتمى اليها الفرد • ولذا فمن الصعب التعرف على قبيلة الشخص التى ينتمى اليها اذا نزع اللثام لانه يشكل جزءا من شخصيته ولهذا لايمكن التنازل عنه او التساهل فى نزعة • ومن ينزع لثام طارقى فى المجتمع التقليدى معناه (الموت) والعلامة التى تميز الطارقى (السيد) عن بقية الفئات الاخرى فى المجتمع التقليدى هو (اللثام) فالعبيد القدماء والخدم والمزارعون لايرتدون اللثام وللثام قيم اجتماعية خاصة اذ لايمكن لطارقى ان يتكلم مع طارقى آخر اكبر منه سنا وقد نزل لثامه الى ارنبة انفه • فمثل هذا الموقف يحتم عليه ان يرفعه بحيث لايظهر الا عيناه ، وذلك احتراما لمحدثه ، كما ان الطارقى لاينزع لثامه حتى اثناء النوم او الاكل او حين العمل •

ومن جانب آخر فان المراة لاترتدى اللثام مهما بلغت من السن متزوجة كانت او غير ذلك ، وهى تفتخر بزوجها الذى لاينزع اللثام امامها • وقد تمتدحه عند النساء بقولها (عشت مع زوجى عشرين سنة دون ان ارى فمه اى انه فى نظرها كان طوال هذه الفترة زوجا محترما، طاهرا نظيفا • وقد ارتبطت بظاهرة ارتداء اللثام عدة (فروض) لبعض الرحالة الانثروبولوجيين اختلفت فى تفسيرها حول سبب تمسك الطوارق باللثام نلخص اهمها فيما يلى :

(١) سهولة التحفى اثناء الحرب وعند القيام بعمليات الغزو على القبائل الاخرى والقوافل •

(٢) تجنيب الوجه رمال الصحراء وحرارة شمسها المحرقة •

(٣) اخفاء الجروح الناتجة عن الحرب التى يشترك فيها الطارقى حتى لاتحتقره زوجته عند العودة وبالتالى فلن تعزف له موسيقى (الامزاد) •

(٤) الخوف من اتصال الارواح الشريرة بنفس الانسان عن طريق الفم والانف . ويرى (السويدى) بانه نتيجة للاسئلة التى وجهها الى كبار السن فى الطوارق الذين ينتمون لعدة قبائل التقت اجاباتهم حول تفسير واحد مؤداه ان روايات الاسلاف تتفق على أن ارتداء اللثام يراد منه تغطية الفم بشكل اساسى لانه بواسطة الفم قد يورط الانسان نفسه وبالتالى عشيرته ، ولان كل كلمة يقولها البدوى لها مدلولها ومغزاها (كما أوضح آخرون بان اللثام) ستر للفم الذى يعتبر عورة والمتلثم رجل طاهر وتقى (١) .

ولكن عندما سئلوا عن عدم ارتداء المرأة اللثام اجابوا بان مكان المرأة هو المخيم ، فهى لاتتفاوض مع الغير . ولاترحل من منطقة الى أخرى . ولاتعطى عهدا ، ولاتعقد اتفاقية ولهذا فلا ضرورة لارتدائها اللثام ومع هذا يبقى لغز اللثام تتضارب حوله أقوال الاخباريين وكبار السن .

وفى مجتمع الواحة (المتغير) أصبح اللثام يشكل عقبة فى طريق الطارقى نحو التكيف للحياة الجديدة ، خصوصا فى ميدان (العمل الحديث) فقد تسبب صمود الطارقى على عدم نزع اللثام فى حدوث مشكلات عديدة للطارقى نفسه وللمؤسسات التى يعمل بها ، فشركات التنقيب عن البترول والمعادن عانت منذ بداية الخمسينات من ظاهرة (الرجل الملثم) الذى يلتحق بها ليعمل اسبوعيا أو أسبوعين ، ثم ينقطع عن عمله ، أو عندما تريد المؤسسة دفع أجره يصعب عليها التعرف على شخصيته لانه لايحمل بطاقة شخصية ولانه ملثم لاتظهر ملامحه الكافية للاستدلال على شخصيته .

ولم تتغلب هذه الشركات على مثل هذه المشكلات الا بعد ان

---

(١) السويدى : نفس المرجع ص ٣٤٧ .

عينت رؤساء للعمال من الطوارق انفسهم بعد تدريبهم ، ومع ذلك بقيت مشكلة الرجل المجهول تتحدى العمل الحديث .

وهناك حاليا اتجاه للتخلى عن اللثام تدريجيا اثناء العمل عند البعض من الشباب ، وفى المنزل عند البعض من الكهول .

ويورد الباحث عند حديثه عن العلاقة بين فئات السن ومناسبات نزع اللثام قوله (بأن فئات السن فوق (٦٠) سنة لاينزعون اللثام ابدا ، بينما تزيد نسبة الذين لايرتدون اللثام الا فى مناسبات هامة كحفلات الزواج ومناسبة البلوغ والاعياد (٢٦٪) وهذه النسبة تتركز فى فئات الشباب الذين يرون ان اللثام اصبح يضايقهم اثناء العمل ، وانه لم يعد يتناسب مع الحياة الحديثة فى الواحة . وان الهدف الاساسى من اللثام زال بعد زوال الترحال والتنقل فى الصحراء .

ونلاحظ هنا أنه على الرغم من أن الباحث قد اقر بوجود تضارب فى الاقوال حول سبب ارتداء اللثام واورد عدة آراء وفروض لعدد من الباحثين ، فسرت الظاهرة بأراء مختلفة فانه لم يوضح رايه أو تفسيره لهذه الظاهرة على اعتبار انه مواطن جزائرى اقرب الى معرفة الحقيقة من غيره .. كما اننا لانوافق على ما أورد الباحث حول سبب ارتداء اللثام عندما قال (ان روايات الاسلاف .. الخ) اذ انه فى اعتقادنا ان اللثام لايمنع صاحبه من النطق بل انه يستطيع أن ينطق بما يشاء من خلف اللثام والذى يمنع الانسان من التورط فى مثل هذه الامور هى (القيم والمثل التى تعلمها فى مجتمعه وليس اللثام) . واذا علمنا ان الرجل هو الذى يضع اللثام على وجهه بخلاف المراة لدى مجتمع الطوارق . نميل عند ذلك الى الراى الذى يقول بأن السبب فى وضع اللثام على الوجه انما هو لوقاية الوجه من الاتربة التى تثيرها الرياح فى الصحراء ـ وللوقاية من حرارة الشمس المحرقة ، ذلك بالنسبة للرجل الدائم التجوال عكس المراة الطارقية التى تقيم دائما فى دارها ولاتتعرض للاتربة وحرارة الشمس ، ولذا فلا ضرورة من أن ترتدى اللثام .

ومع مرور الزمن اصبح وضع اللثام على وجه الرجل الطارقى عادة وتقليدا توارثه الخلف عن السلف ، واصبح شعارا لعدد من القبائل يميزها عن غيرها .. .وفى هذا المعنى تحدث (رالف لنتون) فى كتابه (دراسة الانسان) ص ٢٦٥ الذى سبقت الاشارة اليه فى هذه الدراسة ... ومما يزيد تاكيد ماذهبنا اليه هو اختلاف حجم اللثام ولونه بين طبقتى الاتباع والنبلاء فى مجتمع الطوارق .

واما عن قول السويدى بأن سبب ارتداء اللثام يعود الى انهم يعتبرون الفم (عورة) يجب سترها ، فهو قول غير دقيق ، واذا سلمنا بذلك قبل ظهور الاسلام واعتناق سكان المنطقة للدين الاسلامى بعد ظهوره فانه لايجوز التسليم بذلك بعده لان الاسلام جعل العورة فى المرأة وليس فى الرجل بدليل انه أمرها بالحجاب . ولم يامر الرجل بذلك .. وعلى هذا نرى ان هناك قيمة أخرى للثام فى المجتمعات البدوية فى الجزيرة العربية تختلف اختلافا بينا عما ذهب اليه السويدى وحيث يلازم الحجاب المرأة دون الرجل فى المجتمعات البدوية على الاقل فى الجزيرة العربية .

ثانيا : دراسة للبناء القبلى فى المملكة العربية السعودية

(بنـــى كبـــير)

نبـــــذة تاريخيـــة :

تقول المصادر التاريخية فيما يختص باصل قبائل غامد بان اصـل هذه القبائل يعود الى (١) عبد الله بن كعب بن الحارث بن عبـد الله بن مالك بن نصر الملقب بشنوده بن الازد عمرو وهو غامد الاب الاكبر لقبائل غامد . وغامد هذا ولد له سعد منـاة وظبيان ومالك ومحميـة وولد سعد مناة . (مناة الدؤل) (وثعلبة) وولد الدؤل سعد ابن منـاه (مازن ـ وكبير ـ وواليه) ومن مازن عبـد الرحمن بن مخنف ابـن سليمان بن الحارث بن عوف بن ثعلبة بن عامر بن ذهل بن مازن ابـن دبيان بن ثعلبه بن الدؤل بن سـعد بن مناه بن غائـد وهم بيت الازد بالكوفة . ومن غامد ابو ظبيان الاعرج وهو عبد شمس بن الحارث ابن كبير بن جشم بن سبيع بن مالك بن مازن بن ذبيان بن ثعلبة بن الدؤل بن سعد مناة بن غامد وفد على رسول الله ﷺ . وهو صاحب راية قومه يوم القادسية ، وابنه طارق وكان من الاشراف ، وابن اخيه جندب بن زهير بن الحارث بن الكبير كان على الرجالة يوم صفين مع على بـن ابى طالب كرم الله وجهه وبها قتل . ومنهم أبو زينب زهير بن عـوف بن الحارث الكبير الذى شهد على الوليد ابن عقبة بشرب الخمر ، قتـل يوم صفين . ومنهم عبد الرحمن بن ابن زهير بن شهر بن رزيق بن غامد بن ذهل بن التؤم بن بكر بن ثعلبة بن الدؤل سعد مناة بن غامد والى خراسان . ومنهم عبد الله ابن عائد بن الهبه (٢) بن عوف بن قربع بن

---

* لمزيد من التفصيل انظر كتابنا (البناء القبلى والتحضر فى المملكة العربية السعودية) توزيع دار الشروق ـ جدة ١٩٨٠ .

(١) أبو العباس امد القلقشندى . نهاية الارب فى معرفة انساب العرب تحقيق ابراهيم الابيارى الطبعة الاولى ١٩٥٩م القاهرة الشركـة العربية للطباعة ص ١٠٨ ، ص ١٠٩ ، ص ١١٠ .

(٢) من بطون غامد بتهامة .

بكر بن ثعله كان مع معاوية بن ابى سفيان . ومنهم الحجن بن المرقع بن سعد بن عبد الحارث بن الحارث بن عبد الرحمن بن مازن بن الدؤل بن سعد مناه بن غامد من أصحاب على رضى الله عنه وله رواية فى الحديث . ومنهم الحارث بن لفظ بن مهنه بن عامر بن كبير بن الدؤل بن سعد مناه كان مع الامام على كرم الله وجهه يوم موقعة (الجمل) فلقى عمرو بن الاشرف الفنكى والد مسعود وزياد وكان مع أم المؤمنين ـ عائشة رضى الله عنها فقتل كل منهما الاخر . وسفيان بن عوف بن مغفل بن عجير بن كليب ذهل بن سيار بن الدؤل بن سعد مناة بن غامد صاحب الصوايف الى أرض الروم . ومنهم قيس وزهير ويزيد والحكم بن المغفل اعمام سفيان الذكور وقتل قيس وزهير يوم القادسية وقتل يزيد والحكم يوم النخيلة . ومن غامد أيضا جندب ابن كعب بن عبد الله بن جزاء بن عامر بن مالك بن عامر بن ذهل الملقب (بجندب الخير) وهو الذى ينسب اليه قتل الساحر بن يدى الوليد ابن عتبه . ومنهم الشعراء مثل. عبد شمس بن الحارث بن كبير . والشاعر عبد الله بن سلمة .

بطـون غامـد القديمـــة :

بطن غامد القديمة ذكر منها ابن حزم فى كتاب الاسباب وكذا أبو العباس فى كتاب نهاية الارب مايلى :

بنو ظبيان . بنو مالك . بنو محمية بن الدؤل ثعلبة بن مازن بنو كبير ولم يبق من هذه الاسماء من هذه البطون القديمة سوى بنو ثعلبة وبنو كبير وبنو ظبيان .

ومن البطون القديمة أيضا بنى واليه التى تعتبر الان داخلة ضمن بنى كبير واصبحت قرية من قرى هذه القبيلة وفيها رئاسة القبيلة حاليا.

بطـون غــامد الحاليـــة :

اصبحت بطون غامد حاليا تتكون من القبائل الاتية : بنو ثعلبة ومنهم (ابو عبد الله وبنو خثيم والزهران فى البادية) وبنو كبير .

(وقد دخلت اليهم بطن واليه وشكر فى البادية) وبالجرشى . وآل الرهوة والشهم وغائد الزناد فى تهامة . ثم آل عطوة وبنو هلال آل مسودة والبادية رفاعة والقناعة والزهران . ويبلغ تعداد السكان حالياً مائة وخمسة وعشرين الف نسمة .

قبيلة بنى كبير :

نلاحظ من النبذة التاريخية السابقة ان اسم (بنى كبير) ورد ذكرها مرات عديدة ، وان مصادر التاريخ تقول انها بطن من البطون الباقية من قبائل غامد بعد ان انقرض معظم البطون عبر التاريخ . ولم تعد بنى كبير بطنا بالمفهوم الاجتماعى الذى يعنى تبعيتها لقبيلة اخرى تتبع نظامها وقانونها تخضع لسلطة شيخها وتدخل اراضيها ضمن اراضى اخرى . بل انها اصبحت قبيلة لها نظمها الخاصة وحدودها الاقليمية وتتميز عن غيرها من القبائل الاخرى .

ونلاحظ انه يطلق على هذه القبيلة اسم (قبائل بنى كبير) ونرجح ان هذه التسمية جاءت بعد انضمام (بنى واليه وشكر) الى قبيلة بنى كبير الاصلية فعرفت بقبائل بنى كبير .

والاسم الرسمى المعتمد لدى امارة المنطقة هو قبائل بنى كبير وشيخها يطلق عليه (شيخ قبائل بنى كبير) .. والمتداول بين الناس هو اسم (بنى كبير او بنى قابوس) .

الموقع واقسام القبيلة :

تقع اراضى بنى كبير جنوب (الباحة) وهى العاصمة الادارية لقبائل غامد وزهران . ومدينة الباحة تقع جنوب الطائف على بعد (٢٥٠) كم على امتداد سلسلة جبال السروات او مايسمى بالحجاز ، وهى المنطقة الحاجزة بين البحر الاحمر فى غرب المملكة العربية السعودية ومنطقة نجد فى الشرق وتبعد اراضى بنى كبير عن مدينة

الباحة (٢٠) كم الى جنوبها . وتمتد اراضى القبيلة على امتداد وادى بنى كبير من الشمال الى الجنوب وتتوزع القرى التي تشكل قبيلة بنى كبير على ضفتى الوادى من الشرق والغرب . وتنقسم بنى كبير الى قسمين رئيسيين هما (الحاضرة والبادية) وعدد السكان فيهما (٢٦ الف نسمة) منهم ثمانية عشر الف نسمة يسكنون اراضى بنى كبير الحاضرة، وثمانية الاف سكان البادية .

ويحد قبيلة بنى كبير من الشمال الحلة وبنى ظبيان . ومن الغرب بنى ظبيان ومن الشرق وادى تراد ووادى بيشة والعقيق ، ومن الجنوب بنى خثيم وبلاد خشعم .

وتتراوح التضاريس فى بنى كبير مابين سهول خصبة وجبال مرتفعة يخترقها وادى بنى كبير الذى يلتقى مع وادى بيشة فى نهايته .

بنـى كبير الحاضرة :

قلنا ان قبيلة بنى كبير تنقسم الى قسمين هما الحاضرة والباديـة والحاضرة تطلق على المنطقة الواقعة على ضفتى الوادى وتتكون مـن ثمان عشرة قرية هى : الغير العليا والغير السفلى ، والجيس ، والحدب والظفير ، والعبادل ، والقليته ، والدهامشة ، وبنى والبة ، والزرقاء، الكدفة ، والسيار ، والفلاح ، وآل سالـم ، وآل سرور ، والنعيـم ، وميسان ، المرزوق .

واطلاق اسم الحاضرة على هذه القرى جـاء نتيجة لان السـكان فيها عرفوا حياة الاستقرار بدل الترحـال ، وزاولوا مهنة الزراعـة ، وسكنوا المنازل . وزاولوا ايضا انشطة اقتصادية مختلفـة كالصناعات اليدوية بالاضافة الى رعى الاغنام على عكس البادية الذين لم يعرفوا حياة الاستقرار بعد . ولعل مصدر هذه التسمية جاء من سكان الباديـة انفسهم الذى راوا ان سكان القرى اصبحوا حضريين بمجرد استقرارهم فى منازلهم وممارستهم لانشطة مختلفة .

هذه القرى الثمان عشرة تشكل بدنات ثلاث وهى البدنات التـى تشكل قبيلة بنى كبير ٠ وهى :

بدنة الحارث وبدنة الجابر وبدنة العلى ويرجع هـذا التقسـيم الى النسق القرابى ٠ فحارث وجابر وعلى كل منهم الجد الاكبر لابناء البدنة والية ينتسب كل افرادها ثم يلتقى هؤلاء الثلاثة عند جد واحـد هو الذى سميت قبيلة بنى كبير باسمه ٠

وتشمل كل بدنه على مجموعة من القرى فى الحاضرة وفخوذ فى البادية فبالحارث تتشكل من ثلاث قرى فى الحاضرة هى : العبادل ، والجيس ، والفلاح وفخذهم فى البادية يسمى (العطا) ٠

أما الجابر فتتكون حاضرتهم من عشر قرى هـى : الغير العليا والغير السفلى والظفير ، وبن والبة ، والزرقاء وآل سرور ، النعيم ، وميسان ، وآل مرزوق ٠ وتتبع آل جابر اربعة فخوذ اخرى فى الباديـة ليس لهم اسم خاص ٠

بينما آل على تتكون حاضرتهـم من خمس قرى هـى : الحدب الكدفة ، الدهامشة ، اليسار ، القرية الخامسة تقع وسطا بـين الحاضرة والبادية وهى المزرعة ويتبع هؤلاء أربعة فخوذ فى البادية آيضا ٠

وكل بدنة من هذه البدنات الثلاث الرئيسيـة التى تتفـرع الى فخوذ تتفرع بعد ذلك الى مجموعة من (اللحام) وهـو ما يعرف لدى الكتاب الاجتماعيين بالعائلات الكبيرة الممتدة ٠٠ ويزداد النسق القرابى تعقيدا اذا علمنا ان لكل (لحمة) فى الحاضرة لحمة اخرى فى الباديـة يدخلون مع بعضهم البعض فى علاقات مباشرة ويؤلفون وحدة اجتماعية متماسكة ٠

والبدنة فى بنى كبير وحدة متماسكة فجماعة البدنة الاكسوجامية لديهم خاصية الانتماء الى شخص واحد سميت البدنة باسمه وهـذا عامل اولى من عوامل التماسك والوحدة بين الأفراد ٠

بنـى كبير الباديــة :

يحتل سكان بنى كبير الباديـة مساحة جغرافيـة أوسع ويسكنهـا ثمانية آلاف نسمة تقريبا ، لهم حرية الحركة والتنقل بماشيتهم خـلف المرعى والماء دون الخروج عن أراضى القبيلة .. وهؤلاء يشكلون فخوذ بنى كبير الحاضرة لبدناتها الثلاثة فبدنة بالحارث لها فى البادية فخـذ العطا الذى ينقسم الى ست لحام هى : النواعمة ، الرشدة ، الحنوثة ، آل مشحن ، وآل عائض ، وآل جمعان .

أما بدنة الجابر فيتبعها الخنافرة ، السلاليب الطلحات ، شـكر واخيرا آل على ويتبعهم اربع لحام هى : الثمرة ، والصنادلة والمتاعبة ، والمداهشة . والملاحظة البارزة لدى سكان البادية هى التلاحم القوى بين اللحام التى تشكل الفخذ الواحد ، فالمراعى الخاصة بكل فخذ يمكن ان ترعى فيها اللحام التى تشكل هذا الفخذ ، كمـا أن منازلها متجـاورة باستمرار ، عندما ترحل احدى اللحام فان البقية ترحل معها بمعنى انه فى حالة الترحال لاتتخلف احدى اللحام او تخرج عن راى المجموعة .

وكما هو الحال ايضا لدى اللحام فى الحاضرة التى تنتهى الى عائلات أصغر فان البادية كذلك .

والملاحظة العامة ان العلاقات الاجتماعية تقوى كلما زادت البدنات واللحام تفرعا واستقلالا ، فتصبح كالهرم قاعدته تمثل قوة فى العلاقات الاجتماعية وكلما صعدنا نحو القمة كلما لاحظنا ضعفا فى هذه العلاقات بصرف النظر عن التلاحم القوى الذى كان يحدث فور شعور القبيلـة بخطر عام ، والذى يمكن أيضا ان نرجعه الى تلاحم يبدأ من القاعـدة وينتهى الى القبيلة كلها .

البنـــاء السياسى لقبيلـة بنى كبير :

كانت القبائل فى الجزيرة العربية تعيش حالة مستمرة من النزاع على الارض والماء والكلا وحوادث القتل والثأر والخطف . وكأنها أمور

عادية لابد أن تعيشها ، ولايزال كبار السن يروون لنا كيف كانت حياتهم تعتمد على (القوة) ويكتنفها الصراع . وكيف كانت تنشب الحروب بين القبائل بل انه فى احيان كثيرة كانت تنشب معارك بين البدنات المختلفة داخل القبيلة الواحد اما لصراع على الارض واما لحادث قتل وطلب الثار والاعتداء على الارض من طرف آخر جريمـة تستحق العقـاب والاعتداء على فرد من اى وحدة اجتماعية يستلزم من وحدته الاجتماعية ان تطلب الثار .. وهكذا ونتيجة لهذا الصراع المستمر والخوف عـلى القبيلة من الفناء عن طريق التفكك الذى ياتى نتيجة للنزاع والتناحـر المستمر . لابد من ايجاد طريقة تحفظ التوازن داخل القبيلة وترعـى مصالحها . فكان منصب شيخ القبيلة هو اخطـر المناصب واهمهـا . ويعاونه فى تطبيق القانون وتحقيق الضبط الاجتماعى فى القبيلة عدد من عرفاء القرى يشكلون (مجلس القبيلة) فعندما تحدث مشكلة طارئة يجمعهم الشيخ فى داره ويعرض عليهم الامر . وبعد مشاورات بين اعضاء المجلس يبلغون شيخ القبيلة برايهم فاذا استحسنه بدأ تنفيذه على الفور.

سلطات الشيخ ومجلس القبيـلة (١) :

لابد أن يستعين شيخ القبيلة باهل الحكمة والراى لمساعدته فى حل المشكلات والقضايا ، ولابداء المشورة والراى فى أى أمر طارىء ، وكان مجلس القبيلة يتالف من عرفاء القرى وكبار السن فيها المشهود لهـم بالحكمة وسداد الراى ويشترط فى اعضاء المجلس التواجد فور طـلب الشيخ . ومساعدته ايضا فى فرض الاحكام وتطبيق القوانين على الافراد الذين يصدر المجلس بحقهم العقوبات بمعنى ان هذا المجلس كان يسـن القوانين ويساعد على تطبيقها . لان اعضاء المجلس يتم انتخابهم من

---

(١) نعنى بهذه السلطة تلك التى كان يمارسها شيخ القبيلة فى غيـاب الحكومة المركزية اما بعد وجود هذه الحكومة بدخول المنطقة فى الحكم السعودى، ووجود النظام الذى يسير دفة الامور وينظم الحياة الاجتماعية وفقا لاحكام الدين فقد تلاشت هذه السلطات .

القرى وهم أقدر على تطبيق العقوبة على الجانى مباشرة أو تحويله الى الشيخ لتطبيقها . وكانت العقوبات تتراوح حسب الجرم تبد أمن الاعدام وتنتهى بالتشهير والغرامة المادية . فعندما تقع جريمة قتل فانهـا اذا كانت داخل الوحدة الاجتماعية بمعنى ان يكون القاتل والقتيل من وحدة اجتماعية واحدة فانها غالبا ماتنتهى بالعفو والسماح وفى أحيـان قليلة بقبول الدية لكن الامر يختلف عندما يقع الحادث بين وحدتين متباعدتين. الامر الذى يستدعى من شيخ القبيلة ومجلسها القيام بنشاط اكبر مـن أجل تقريب وجهات النظر . وغالبا ما يسوى الامر بالقصاص وفى أحيان قليلة كان يتم قبول الدية .

(واللحية) لديهم لها قيمة اجتماعية كبيرة ، فحلق اللحية مـن العقوبات الشديدة التى تطبق على الجناة ، فكان الرجل الذى يشهـد زورا أو يتهم امرأة فى عرضها وشرفها أو يسرق ، أو يتلفظ على أحـد المشايخ بألفاظ نابية يعاقب بحلق لحيته ، وفى ذلك تشهيرا به واهدارا لكرامته وقد حث الاسلام على مخالفة المشركين وعدم حلق اللحية حيث جاء فى الخبر عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال، قال رسول الله ﷺ :

«خالفوا المشركين وفروا اللحى واحفوا الشوارب » متفق عليه . وفى رواية (احفوا الشوارب واعفوا اللحى) .. ومعنى احفوا الشوارب خذوا مازاد عن الحافة فيها ، اما حلق الشوارب كاملة فهى بدعة لم تكن فى عهد الرسول ﷺ .

وهكذا نلاحظ ان تكريم اللحية واحترامها يرجع الى ان الديـن الاسلامى حث على بقائها وعدم الاستهانة بها . ولان اللحية لديهم تمثل الشرف والكرامة والرجولة ، كانت من السمات التى تميز الرجال فالمثل الشعبى يقول (سبحـان من زين الجـبال بحياها والرجال بلحاها) والحيا هنا مقصود به العشب الذى ينبت عـلى سفوح الجبـل فيعطى

للجبال منظرا جميلا ، وكثيرا ماكان يشتم الرجال ويهزأ بالقول (ازلق الدقن) بمعنى حليق أو عديم الدقن . واقل العقوبات فى القانون القبلى هى (الغرامة) التى كانت توقع من أجل المخالفات الصغيرة كالاعتداء على منطقة رعى او ارض زراعية بماشية ترعى فيها . وليست سلطـات شيخ القبيلة محصورة فقط فى اصدار الاحكام بالعقوبات لكنـه ـ كـان صاحب الراى النهائى فى الاحكام التى يصدرها مجلس القبيلة وله حق الإعتراض عليها اما بزيادتها او التخفيف منها حسب ماتمليه المصلحة العامة كما انه هو الذى كان يصدر اوامره باعلان الحرب أو السلم ، وهو الذى كان يقر او يرفض الحلف مع قبائل اخرى .. وبمعرفة الشيخ كان يتم اختيار الشباب وتدريبهم للحروب ، وكان منزلـه هو الوحيد الذى تعقد فيه الاجتماعات الخاصة بالقبيلة او عندما يفد احد من خارج القبيلة لابرام صلح او التفاهم حول أمر من الامور ، وكان من سلطتـه انه هو الذى يوزع المراعى بين الوحدات الاجتماعية المختلفة فى القبيلة، وكان من حقه أيضا ان يسمح لاى قبيلة أخرى بالرعى فى أراضى قبيلة فى حالة اصابة أرض الاولى بالجدب .

ويقول الاخباريون انه كان لدى شيخ القبيلة السجن الخاص للجناة والخارجين على القانون يقـوم عليه مجموعـة من العبيد كسجانـين ومنفذين للعقوبات التى يصدرها مجلس القبيلة وشيخها .. ولذلك فقد كان الفرد الذى تسول له نفسه بأرتكاب جرم يخرج به على القـانون يتراجع عندما يتذكر بأن سجن الشيخ ينتظـره وبأن العقوبـة ستنفذ بصرامة متناهية .

وكانت تحال الى شيخ القبيلة كل مشكلات الطلاق والفقه والميراث وتوزيع التركات والديات ويستعين الشيخ فيما خفى عليه من هذه الامور بـ (الفقيه) وهو الرجل الذى عنده المام بأمور الدين فيستشير الفقيه فى ذلك وينفذ الشيخ مايحكم به الفقيه . ويشترط فى هذا ان يكون عـلى

قدر من الصلاح والعلم والعدالة وهو الدور الذى يقوم به القاضى اليوم وتنفذه السلطة الادارية الرسمية فى الحكومة .

وليست سلطات شيخ القبيلة قاصرة على الامـور الداخلية اذ ربما اقترف شخص من قبيلته جريمة وقـع ضررها عـلى شخص من قبيلة اخرى وعندها فان الواجب يقضى على الشيخ بأن يلقى القبض عـلى الجانى يسلمه الى القبيلة الاخرى للقصاص منـه وبعد أن يقـوم بهذا الواجب يبذل وساطته الى نظيره الاخر للتخفيف على الجانى ، لكـن الامور فى بعض الاحيان ليست سهلة اذ ربما قامت الوحدة الاجتماعيـة التى ينتمى اليها الجانى بأخفائه والتستر عليه والتمرد على أوامر الشيخ

بتسليمه وعندها يرسل الشيخ عبيده لاحضار الجانى فتدور معركة بين أفراد الوحدة الاجتماعية وبين مندوبى الشيخ . لكن الشيخ فى النهايـة يصل الى الجانى وذلك عن طريق القـاء القبض عـلى أحد اقاربـــه والاحتفاظ به «كرهينة» لحين تسليم الجانى الحقيقى ، وعلى الرغم من كل ذلك ، فان الامور كانت تسوى غالبا ، خاصة اذا ادرك أفـراد الوحدة الاجتماعية ان تسليم الجانى يعود عليهم بالهدوء والطمأنينة والا اصبحوا تحت التهديد باختطاف احد منهم وانزال العقوبة عليه .

وكان الشيخ – احيانا – يحاول التستر على الجانى من الرجـال الذين يمارسون أدوارا هامة فى القبيلة كأن يكون محاربا شجاعا فيختار رجلا آخر اقل منه شانا ويسلمه للوحدة الاجتماعية المعتدى عليها على اساس انه هو الجانى الحقيقى ويطلب ايقاع العقاب عليه . ويمر هـذا التصرف على القبيلة الاخرى التى لاتكون على يقين من شخصية الجانى الحقيقى ..

ولهذا الدور المهم الذى يلعبه شيـخ القبيلة كان لابـد أن يخضع منصب المشيخة لعدة اعتبارات هى :

(١) ان يكون الشيخ من عصبة أقوى من غيرها فى القبيلة وغالبا كان هذا الامر يؤخذ فى الاعتبار اذا كانت القبيلة فى حالة حرب أو فى انتظار وقوع حرب جديدة مع قبائل أخرى ، ذلك لان هذه العصبة القوية لديها أكبر عدد من الافراد الذين سيشاركون فى الحرب بحماس شديد اذا كان الشيخ من عصبتهم .

(٢) أن يكون الشيخ من افضل أفراد القبيلة حكمة وحسن قول وبعدا عن التهور ، خاصة وأنه هو الذى ينوب عن القبيلة لدى القبائل الاخرى للتفاوض فى الشؤون العامة وحل المشكلات الطارئة . حيث كان يستدعى شيخ القبيلة من طرف شيوخ القبائل الاخرى ليشرك بالاسهام بالرأى فى حل مشكلات تخص القبيلة ، وبما انه يمثل القبيلة كلها ، فان الواقع يفرض اختياره ان يكون على قدر كبير من المعرفة وان يحسن التحدث بطلاقة وان يكون ملما بأمور الدين والقانون القبلى .

(٣) ان يكون شيخ القبيلة ممن لديهم فائضا ماديا ، ذلك لان منصبه يحتم عليه القيام بادوار معينة ، منها أن يستقبل الوفود من القبائل الاخرى لاى غرض كان ، فلابد أن يكرم هؤلاء الضيوف . والا اتهمت القبيلة بالبخل والتقصير .

على أن هذه الاعتبارات ان توفرت فى شخص وانتخب لشغل منصب شيخ القبيلة فان ذلك لايكون مبررا له أمام مجلس القبيلة لارتكاب اعمال مخالفة ضد اى فرد قام بعمل غير لائق فان للمجلس الحق فى تنحيته واختيار البديل كما أشرنا الى هذه الحادثة عند الحديث عن الضبط الاجتماعى فى الفصل الثانى من الباب الاول .

وحدات البناء السياسى فى بنى كبير :

تعرفنا فى الصفحات السابقة الى الدور الذى يمارسه شيخ القبيلة، وعلينا الانتقال الى دراسة البناء السياسى نفسه الذى يقودنا بالتالى الى

فهم طبيعة النسق السياسى .. ومن غير شك فان الدراسات السابقة عن النسق السياسى افادتنى الى حد كبير ، عندما تعرفت على الاراء المتضاربة سواء فى تعريف النسق السياسى نفسه او اشكاله وصوره المختلفة ...

ولست بحاجة الى ترديد تلك الاقوال التى تزخر بها كتب الانثروبولجيا وعلم الاجتماع .. وفى اعتقادى بأن هؤلاء لم يتوصلوا بعد الى اتفاق على راى محدد فى هذا المجال ، وان كنت اعتقد بأن التركيز على الدراسات الحلقية هو الذى سيقود فى النهاية الى الراى المنشود فى النسق السياسى غير انه تبقى هناك مشكلة اخرى لاتزال قائمة وهى «اختلاف المجتمعات الانسانية السائدة فى كل منها وحاجة كل مجتمع من هذه المجتمعات الى وجود تنظيم سياسى او نسق للتحكم فى العلاقات بين الجماعات المختلفة وتوجيه علاقات اعضاء كل جماعة من تلك الجماعات التى تؤلف المجتمع الكبير ومجتمع بنى كبير ، مجتمع (انقسامى) تتعدد فيه الوحدات الاجتماعية وتتفرع الى فروع أصغر كلما اتجهنا نحو القاعدة . ويرتبط بذلك انقسام مكانى ايضا .

وتيسيرا للدراسة والفهم اخترت (بدنة بالحارث) لتفصيل هذا البناء ..

فقد سبق ان قلنا ان بدنة بالحارث احدى البدنات الثلاث التى تشكل قبيلة بنى كبير ، وقلنا انها تتشكل من ثلاث قرى فى بنى كبير الحاضرة هى (العبادل ـ الجيس ـ الفلاح) فاذا بدانا بالفرد فى القرية نجد انه يحتل مكانة هامة ذلك لان الاهتمام بالافراد انما هو اهتمام بوحدة القبيلة وتماسكها .. فعلى الرغم من الانقسام الذى سنشير اليه ، ووجود الصراع بين الوحدات الاجتماعية فان فكرة الاسرة والعائلة تتضمن فى الوقت نفسه فكرة التضامن والتعاون . وهما امران يحتمان على الافراد السرعة فى تسوية الخلافات والقضاء على أسباب الصراع . دون تدخل طرف خارجى .

وليس من الصعب الى درجـة كبيرة التفريق بين دائرة القرابـة والسياسة فى مجتمع بنى كبير ، وذلك على الرغـم من ان العلاقـات - القرابية تميل الى الامتداد والتشعب بطريقة معقدة .

فاذا حددنا موقع هذه البدنة على خارطة بنى كبير نجد أن القرى الثلاث التى تشكل هذه البدنة تقع على مسافات متباعـدة قياسا الى خارطة بنى كبير الكلية فقريتى الجيس والفـلاح تبعدان عـن قريـة العبادل التى تقع بينهما بمسافة تتراوح بين ٢ : ٣ كم مما يؤكـد حدوث انقسام مكانى بهذه البدنة بعد أن تكاثر افرادها عبر التاريخ فاقتضـت المصلحة ان يحدث ذلك الانقسام .

هذه القرى الثلاث تقوم بين الافراد فيها علاقات اجتماعية قويـة اذا قيست بالعلاقات بينها وبين القرى الاخـرى . التى تشكل بدنتى العلى والجابر .

وتزداد هذه العلاقات قوة داخل القرية نفسـها ، ثم تزيد قـوة ايضا داخل اللحام نفسها ثم داخل العائلات الاصغر فالاصغر ... واذا امعنا النظر نجد أن العلاقات الاجتماعية تقوى وتضعف تبعا لقرب أو بعد الانتساب لجد واحد ، فقرية العبادل تنقسم داخليا الى (أربـع لحام) تنتسب كل لحمة الى جد واحد وهذه اللحام هى (العطا - العلى بن عبادل - العاقيب -الشعبة) ويقوم بين اللحام الاربع علاقات قويـة تتمثل فى التعاون المطلق بين افرادهـا .

ولو اخذنا (لحمة العطا) لنتعـرف الى تقسيمها الداخلى نجـد انها تتكون من وحدات قرابية ترجع الى حد واحد هـو الجد الخامس أو السادس ، بمعنى أن هذا التقسيم لايتجاوز الخمس الى ست طبقات عمرية . وهم (آل احمد - آل صالح - آل هيال - آل هندى) . ثـم تنقسم بعد ذلك هذه الوحدات الى عائلات - أصغر نسبيا فاذا أخذنـا (آل احمد) كمثال نجد انهم ينقسمون الى عائلات فرعية ينتمون الـى

الجد الثانى أو الثالث وهم (القذران ـ المسفر العلى ـ المارق المليحة ـ آل عبيد الله) .

ثم انقسمت هذه العائلات مكانيا كل منها الى قسمين ما عدا الاولى فقد انقسمت الى اسر ثلاث ليصبح التقسيم على التوالى : آل فالح . آل صالح . آل ابراهيم . ثم آل سعد وآل حترى ، ثم آل ناصر وآل سالم . ثم آل احمد وآل سعد ، ثم آل عبد الغنى وآل عبد الرحمن ، واخير آل ابراهيم وآل عبد الله وهنا ملاحظة هامة وهى ان التقسيم الاخير معدل افراد الاسرة الواحدة فيه يزيد عن خمسة افراد يعيشون عيشة مشتركة .. واتبع هذا التقسيم خروج عن نطاق العائلة المركبة الممتدة الاكبر الى عائلات ممتدة أيضا ولكنها اصغر نسبيا من سابقاتها . وتبعا لذلك فقد حدث استقلال بالارض واستقلال اقتصادى .. ومن عند هذه العائلات أو الاسر الاصغر تبدأ القاعدة فى العلاقات الاجتماعية وهى التى وصفناها بالقوة وكلما صعدنا الى أعلى كلما قلت شدة وقوة هذه العلاقة . وهكذا ...

وما ينطبق على قرية العبادل من تقسيم ينسحب على القرى الاخرى من بدنة ، بل تزداد العلاقات الاجتماعية تعقيدا اذا علمنا ان لكل وحده من هذه الوحدات وحدة قرابية أخرى فى قريتى الفلاح والجيس تلتقى معها فى الجد السابع أو الثامن . وهذا التطابق ينسحب على البدنتين الاخريين اللعمى والجابر ، وبطبيعة الحال فان هذا التقسيم يمتد الى بنى كبير البادية . ونخلص من كل هذا الى القول بأن البناء السياسى فى بنى كبير يبدأ من الفرد الى الاسرة الى العائلة .. الى كل الاشكال والصور التى أوردناها حتى ينتهى الى القبيلة الام .

بمعنى أن الاجزاء تكون التنظيم الكلى ضمن اطار اقليمى محدد أو بعبارة اخرى يمكن ان نقول « بأن البناء السياسى لقبيلة بنى كبير يرتبط فى اساسه بثلاث مقومات رئيسية هى النظام القرابى ،

والاطار الاقليمى ، والمصالح المشتركة » هذه المقومات بطبيعة الحال استدعت ترتيب الادوار التى يقوم بها الافراد ، فلكل وحدة قرابية كبير او رئيس يرجع اليه الافراد عند حدوث اى طارىء ليفصل فى المشكلات ويقدم الحلول • وهو الذى يتم اختياره من قبل رؤوساء العائلات لينوب عن القرية فى مجلس شيخ القبيلة الذى اشرنا اليه فى بداية هذا الفصل •

والعائلة تقوم بدور هام فى فض المنازعات التى تقوم بين الافراد قبل أن يتدخل احد من (اللحمة) او القرية أو الفخذ او البدنة أو شيخ القبيلة • وهكذا نلاحظ ترتيبا فى التدخل فى حل المنازعات تبعا لترتيب دور الافراد •

وعلى الرغم من هذا فأن العائلة نفسها نعتبرها جزءا من النسق القرابى وليست جزءا من النسق السياسى نفسه هذا النسق الذى يهدف الى المحافظة على نظام المجتمع بالتعاون مع الانساق والنظم الاخرى •

وهذا النسق لايمكن ان يقوم من فراغ فلابد من وجود حدود اقليمية ويرتبط بالافراد الذين يعيشون فى هذا الاقليم (الوطن) وبنى كبير تعرف حدودها الاقليمية منذ تاريخ قديم • وأما المصالح المشتركة فأنها تقتضى فى احيان كثيرة استخدام (القوة) للدفاع عنها أو لتحقيقها ، هذه القوة تستمد من البناء نفسه الذى يتالف من هيئات ومجموعة ووحدات سياسية متخصصة وليس معنى القوة هنا القوة الفيزيقية بل قد تتخذ اشكالا مادية او معنوية أو أدبية يمارسها الرؤساء بهدف المحافظة على النظام الاجتماعى ككل •

اما عن طريق القانون أو العرف القبلى أو عن طريق الحرب فى حالة الاحساس بالخطر وقد تضطر القبيلة كما هو الحال فى المجتمعات الانسانية الى اللجوء الى القوة للمحافظة على هذا النظام وخاصة اذا تكرر خرق القانون وقد رأينا كيف أن شيخ القبيلة قد يدخل فى

صراع مع بعض الوحدات ـ الاجتماعية عندما يريد ان يطبق القـانون ويقتص من المعتدى ٠

وبما أن منصب الشيخ فى بنى كبير لم يؤخذ عنوة وقهرا ٠ وانمـا يتم اختيار الشيخ ، ويمكن تنحيته ، فهو كمـا اسلفنا سلطة سياسيـة مختارة لتنفيذ القانون والمحافظة على النظام الاجتماعى وعلى كيـان القبيلة واستمراريته وذلك على الاقل فى المائة سنة الماضية التى استطـاع الاخباريون تاكيد عملية انتخاب شيخ القبيلة ٠

فاننا نرى أن النسق السياسى فى بنى كبير ليس مستقلا عن البنـاء الاجتماعى للقبيلة نفسها ، بل انه نسق متفاعل مع الانساق الاجتماعية الاخرى وهذه الانساق كلها لها دور سياسى الى جـانب الوظائـف التى تمارسها والمتعلقة بطبيعة العلاقات القائمة ٠

الفئـات الاجتماعيـة فى بنى كبير :

قلنا فى بداية الفصل الثانى من هذه الدراسة بأن مجتمع بنى كبير يعرف نوعا من الفوارق الطبقية بين فئاته المختلفة ٠ وقد أشرنا الى شىء من ذلك فى حينه ٠ واذا قارنا هذا المجتمع بغيره من المجتمعات الاخرى التى درسناها كالنوير والطوارق نجد أن الفـروق الطبقيـة هنا شىء لايذكر ـ لكن ذلك لايعنى عدم وجود فوارق بين الفئات المختلفة داخل المجتمع ٠٠ وقد ذكرنا فى أول هذا الفصل بان مجتمع قبيلـة بنى كبير يتكون من قسمين رئيسيين هما بنى كبير الحاضرة وبنى كبير البادية ، والبدو جميعا يمارسون مهنة واحدة هى (الرعى) بينما نجد ان الحاضرة يعرفون عدة مناشط اقتصادية كالتجارة والزراعة ودباغة الجلود وصناعة الفخار بالاضافة الى حرف اخرى (انظر تفصيل ذلك فى الفصل الثانى من هذا ـ الباب ـ النسق الاقتصادى) ٠

والتقسيم الطبقى فى مجتمع بنى كبير جاء بناء على هـذه المناشط

فاصبح فى المجتمع اربع فئات بالاضافـة الى فئـة العبيد التى كانـت معروفة وقائمة حتى وقت ليس ببعيد وهذه الفئات هى :

(أ) فئة التجارة والمزارعين ٠
(ب) فئة دابغى الجلود ٠
(جـ) فئة صناع الحديد ٠
(د) فئة صانعى الفخار ٠
(هـ) فئة العبيـد ٠

والفئة الاولى التى تضم التجار والمزارعين تأتى فى أعلى مرتبـة فى السلم الاجتماعى ، ولم يخرج منصب شيخ القبيلة عن هاتين الفئتين الى احدى الفئات الاخرى ٠ ولهؤلاء نظرة خاصة الى الفئات «جـ،د،هـ»٠

اما فئة دابغى الجلـود فتأتى فى المرتبـة الثانية بعـد التجـار والمزارعين والنظرة اليهم ليست كالنظرة الى الفئات الثلاث جـ ، د ، هـ وتقوم علاقات المصاهرة بين افراد هذه الفئة والفئة الاولى اى أنه يمكن أن يتزوج افراد من أ ، ب كأن يتزوج الفتى من الفئة (أ) من فتاة مـن الفئة (ب) ـ والعكس ٠ وتفسير ذلك رجع الى أن افـراد الفئـة (ب) ليسوا مهاجرين أو دخلاء على القبيلة بل ان نسبهم يلتقى مـع نسـب افراد الفئة (أ) وتتركز مهنة الدباغة بشكل أكثر فى قرية (الحدب) وهى أحد القرى التابعة لبدنة العلى ٠

فئة الصناع ٠ وتأتى فى المرتبة الثالثة فى السلم الاجتماعى ويمارس ـ افراد هذه الفئة صناعـة الحديد كالسكاكـين والالات التى تستخدم لتكسير الصخور وكل ما يستخدمه افراد القبيلة فى حياتهم اليومية مـن أدوات ـ حديدية ٠ وافراد هذه الفئة لاتنشأ بينهم وبين افراد الفئـة أ ، ب اية علاقة مصاهرة فلا يتزوج افراد أ و ب من بنات (جـ) كما أن بنات أ أو ب لايتزوجن من افراد من (جـ) وتتوزع منازل افراد هـذه

الفئة فى عدد من قرى القبيلة ولاتزيد عن عشرين منزلا فى القبيلة كلها ، ويميل لونهم الى السواد ولهم ملامح خاصة .

فئة صانعى الفخار : يقول الاخباريون عن هذه الفئة انهم اصلا ليسو من ابناء القبيلة ولاينتمون اليها من حيث انسابهم ، ويتركز هؤلاء فى قرية تقع فى منتصف وادى بنى كبير اسمها (المشاطية) ولهم اسرة واحدة فى قرية الحدب . (ويمارس افراد هذه الفئة وخاصة النساء صناعة الفخار بالطرق التقليدية . وينتجون الانية التى يطهى فيها الطعام والتى كانت شائعة الاستخدام فى القبيلة حتى عهد قريب ، حين عرف السكان آنية الطعام الحديثة قبل حوالى خمس عشرة سنة ، وقبل هذا التاريخ كان من النادر جدا ان نجد (حلة) فى بيت فى القبيلة ماعدا القدور الكبيرة التى تطهى فيها الذبائح فى اوقات المناسبات التى تحتاج الى ولائم كالاعراس والختان وما شبه ذلك . وينتج هؤلاء آنية مختلفة الاحجام متعددة الاغراض (انظر شرح ذلك فى فصل الانساق ـ النسق الاقتصادى) . ولاتقوم بين هذه الفئة وفئتى أ ، ب اية روابط مصاهرة.

فئة العبيد : كان تملك العبيد أمرا ميسورا لمن يمتلك المال وكانت ظاهرة الرق منتشرة حتى عهد قريب الىان كان العام ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م حين أصدرت حكومة المملكة العربية السعودية فى عهد الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود أمرا بتحرير الرق والغائه من المجتمع العربى السعودى ، وكانت بعض الاسر فى مجتمع بنى كبير تمتلك أعداد من العبيد يؤدون الخدمات العامة كالزراعة والرعى واعداد الاطعمة وجلب المياه والحطب الى غير ذلك من الخدمات التى تانف الفئات أ ، ب من القيام بها ، وياتى هؤلاء فى ادنى مرتبة فى السلم الاجتماعى .

ويمكن ان نقول بصفة عامة ان الفرد فى البناء الاجتماعى القبلى يحتل مكانة هامة يستمدها من الدور الذى يمارسه فى البناء القبلى ، وهذا لايعنى اننا نقول باهمية الفرد فى البناء القبلى ونغفل اهمية

الجماعة أو أن اهمية الفرد تأتى على حساب اهمية الجماعة ، بل اننا نرى أن ـ الاهتمام بالفرد انما هو اهتمام بالجماعة نفسهـا وبالتالى بالقبيلة كلها ٠ والاهمية التى يكتسبها الفرد تعود فى الاصل الى قدرته على المساهمة بشكل أو بآخر فى المحافظة على استمرارية بنـاء ووحدة القبيلة والدفاع عنها ٠ فبقدر ما يمارسه الفرد من أدوار ، وما يحتـله من مكانة اجتماعية تبعا لهذه الادوار ، بالاضافة الى الفئة التى ينتمى اليها بقدر ما يكتسب اهمية وبالمقابل فان الفرد الـذى لايمارس دورا هاما ، وبالتالى لايحتل مكانة اجتماعية ، ولاينتمى الى فئة قوية تتمتع بمركز اجتماعى جيد ، ولايتمتع بأهمية تذكر فى البناء القبلى ٠ اذن فالاهتمام بالفرد أو عدمه يتعلق بالدور والوضع والمكانة والانتماء لوحدة أو لجماعة معينة ٠ ذلك ان اهتمام القبيلة ينصب بالدرجة الاولى على بقائها وحدة متماسكة قوية ، ولايحقق لها هذا المطمع الا الافراد الذيـن يشكلون الجماعات وهذه الجماعات هى التى تشكل البناء القبلى كله ٠

المراجـع العربيـة والاجنبيـة

أولا : المراجـع العربيـــة

١ ـ أبو العباس امد القلقشندى . نهاية الارب فى معرفة انساب العرب تحقيق ابراهيم الابيارى الطبعة الاولى ١٩٥٩م القاهرة الشركة العربية للطباعة .

٢ ـ احمد ابو زيد .. المفهومات .. الهيئة المصرية العامة للكتـاب الطبعة الثامنة ١٩٨٢ .

٣ ـ احمد الخشاب : التفكير الاجتمـاعى : دراسة تكاملية للنظريـة الاجتماعية ، دار النهضة العربية بيروت ١٩٨١ .

٤ ـ احمد خاطر ، على البيك : القياس فى المجـال الرياضى .. دار المعارف ١٩٧٨ .

٥ ـ اندرية لانجانتى : معطيات حديثة حول أصول الجماعات البشرية وتنوعها : دور الوراثة : مجلة ديوجين نوفمبر ١٩٨٦ يناير ١٩٨٧ العدد الخامس والسبعون .

٦ ـ اشلى مونتاجيو : البدائية ترجمة محمد عصفور ـ عالم المعرفة ـ الكويت ١٩٨٢ .

٧ ـ اثر جريجورى : الانسان عبر التاريـخ .. ترجمـة انـور الدين الزرارى ، القاهرة ١٩٧٨ .

٨ ـ أنظر : ايفانز برتشارد . الانثروبولوجيا الاجتماعيـة . ترجمـة الدكتور احمد ابو زيد ١٩٦٥ .

٩ ـ بندكيت روث ـ الوان من ثقافات الشعوب ـ ترجمة محمد الدسوقى وآخرون لجنة البيان العربى ـ القاهرة .

١٠ ـ بيتر فارب .. بنو الانسان . ترجمة زهير الكرمى عالم المعرفة..
الكويت ١٩٨٣ .

١١ ـ جاك روفييه : نمو فكرة التطور . مجلة ديوجين . نوفمبر ١٩٨٦
يناير ١٩٨٧ ـ العدد الخامس والسبعون .

١٢ ـ هارى شابيرد : الانثروبولوجيا الفيزيقية..مجالات الانثروبولوجيا
ترجمة علية حسين ، السيد حامد ، دار القلم ..
الكويت ١٩٨٥ .

١٣ ـ د. باودر ماكر . الدراسة الحقلية . مجالات الانثروبولوجيا
ترجمة علية حسين والسيد حامد . دار العلم ـ
الكويت ١٩٨٥ .

١٤ ـ د. لاجير كرانتس ، ت . أ سلوتكين . كرب لمولود .. مجلة
العلوم ـ الترجمة العربية لمجلة العلوم الامريكية ،
مارس ١٩٨٧ الكويت .

١٥ ـ ولتون مارتون كروجمان .. مفهوم العرق .. معالم بكتاب
الانثروبولوجيا والعالم الحديث .

١٦ ـ وحيد الدين خان : الدين فى مواجهة العالم ، ترجمة ظفر الاسلام
خان . المختار الاسلامى للطباعة والنشر والتوزيع ـ
القاهرة ـ الطبعة الثانية ـ ١٩٧٣ .

١٧ ـ حامد عبد السلام زهران ـ علم النفس الاجتماعى ـ عالم الكتب
ـ القاهرة ط٣ ١٩٧٤ .

١٨ ـ حسين فهيم : قصة الانثروبولوجيا : فصول فى تاريخ علم الانسان
سلسلة عالم المعرفة ، الكويت : فبراير ١٩٨٦ .

١٩ ـ حسن شحاته سعفان : تاريخ الفكر الاجتماعى .. دار النهضة العربية . القاهرة ١٩٧١ .

٢٠ ـ كلود ليفى ستروس : الانثروبولوجيا .. مجلة ديوجين .. العدد الثانى والاربعون .. أغسطس ١٩٧٨ .

٢١ ـ لوسيى مير . مقدمة فى الانثروبولوجيا العامة . ترجمة د. شاكر مصطفى سليم دائرة الشؤون الثقافية والنشر . الطبعة ١٩٨٣ .

٢٢ ـ ماهر خليل : سقوط نظرية داروين . المركز العربى للنشر والتوزيع جدة .

٢٣ ـ مارسيل بلان : داروين ومندل ومورجان . ومولد علم الوراثة . مجلة ديوجين نوفمبر ٨٦ ـ يناير ١٩٨٧ .

٢٤ ـ محمد الجوهرى ، الانثروبولوجيا ، نظرية وتطبيقات عملية . دار المعرفة الجامعية الاسكندرية ١٩٨٨

٢٥ ـ محمد حسن آل ياسين : فى رحاب الاسلام . بيروت ـ منشورات مكتبة الحياة ١٩٨٤

٢٦ ـ محمد عاطف غيث . قاموس علم الاجتماع . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٩ .

٢٧ ـ محمد على محمد : تاريخ علم الاجتماع : الرواد والاتجاهات المعاصرة ، دار المعرفة الجامعية ـ الاسكندرية ١٩٨٠

٢٨ ـ محمد فؤاد حجازى : التغير الاجتماعى مكتبة وهبة ـ القاهرة ١٩٧٨ .

٢٩ ـ محمود عودة : تاريخ علم الاجتماع (الجزء الاول : مرحلة الرواد)
دار النهضة العربية بيروت : بدون تاريخ

٣٠ ـ عباس احمد ، الانثروبولوجيا الاجتماعية : مقدمة عامة مكتبة المكتبة ، العين ١٩٨١ ٠

٣١ ـ عاطف وصفى : الانثروبولوجيا الاجتماعية ، دار المعارف بمصر ١٩٧٧ ٠

٣٢ ـ عبد الحميد لطفى : الانثروبولوجيا الاجتماعية ، دار المعارف بمصر ١٩٧١ ٠

٣٣ ـ على محمود اسلام الفار : الانثروبولوجيا الاجتماعية ـ الشركة القومية للتوزيع القاهرة ١٩٦٨ ٠

٣٤ ـ شاكر عبد السلام ٠٠ المدخل الى الانثروبولوجيا بغداد ١٩٧٥

٣٥ ـ رالف لنتون الانثروبولوجيا ٠٠ ترجمة عبد الملك الناشف ، المكتبة العصرية بيروت ١٩٦٧ ٠

٣٦ ـ فلاديمر بروب : مورفولوجيا الحكاية الخرافية ٠ ترجمة بكر باقادر ، احمد عبد الرحيم نصر ٠٠ النادى الادبى الثقافى ، جدة ١٩٨٩ ٠

٣٧ ـ قبارى محمد اسماعيل ٠ علم الاجتماع الثقافى ٠ منشاة المعارف بالاسكندرية ١٩٨٢ ٠

٣٨ ـ قبارى محمد اسماعيل ، الانثروبولوجيا العامة ٠ منشاة المعارف الاسكندرية غير مبين سنة النشر ٠

ثانيا : المراجـع الاجنبيـة

1 — A.J. Kelso, Physical Anthropology P.B. Lppuncott, 1976.

2 — A.J. Kelso, Physical Anthropology Blppincott comp., New York, 1974.

3 — Abdullu Lutfy, & Charles Charles Chaurchill, Reading (Arab middle eastern 1976.

4 — Alexender Alland : Adaptation in cultural evolution New York Columbia universty Press 1970.

5 — Aly Isa, Social Anthropology, Darelmaraf. Cario, 1960.

6 — Beals, Ralph « Acculturation » in TAX, Solcedx Anthropology Today : University of chicago Press.

7 — Bernard S. Philips, Sociol research strategy and tactic , collier macmillan publishing, London 1976.

8 — Broce. C. History of Anthropology. Mennecpiolis U.S.A. 1973.

9 — Carol M. Counihon, Bread as world food hatuts as world relation in modermizing Sardinia, in Anthropological quarterlly.

10 — Carol R. Ember & Melvin Ember, Anthropology Appleton Century Crofts, New York, 1975.

11 — Clark, Grahame, D. « Archaeological Theories and interpretation : old world» in TAX, Sol (ed.).

12 — Cuff, E.G. and Payne, G.C. (eds.), Perspective in sociology George Allen and Unwiv, London, 1979.

13 — Daniel Bertaux, The life story approach; A continenal view, in Ann Rev. social, 1984.

14 — Durkheim & Mouss, Primitive classification, Translated by Ronald Medham, Colier west, London, 1963., (VII).

15 — Ernestm, Fried : Vasilika Avillage in madern Greese. by Rinehart and winston. Inc. New York. 1982.

16 — Elvin Hatch, Theories of man and Culture, Colombia University Press, New York, 1973.

17 — Gearge Peter Murdock, Africa, Ncgraw - hill book Co., in., New York, 1959.

18 — George M. Foster, Medical Anthropology. John wiley & Sons, New York, 1978.

19 — Geza Rohiem, Psycho : analysis and anthrepolcgy, international unversity Press, New, 1969.

20 — Ginsberg., Sociology, the homem of university library of modern Knowledge, No 1761.

21 — Harris, C.C. The Family : George Allen and Unwin, London, 1970.

22 — Harris, M. «The Rise ot Anthropological Theary » Routledge and Kegan paul, London.

23 — Lucy Mairer, Applied Anthropology in Encyclopedia Praitanca, Part 1-2.

24 — Luise Margolies, Problem of Anthopological resarcl in latine America, in Current anthropology Vol 23, No 4 august 1982.

25 — Mainstream Scientists repond to creationsts, in physics to day February 1982. Vol 35 No (2).

26 — Marvin Harris, The Rise of Anthropological theory, Routledge and Kegan poul, London, 1968.

27 — Martin Shubik, game Theory, in Incyclopidia of Social Science.

28 — Michael Kenny, Evolution, The english universties press ltd, London, 1966.

29 — Monique Borgroff Mulder and T.M. Caro, The us of quantitative obsevational Techniques in Anthropology, in Current anthrology vol 26 No3 June 1985.

30 — N. Srinivos and André lieteille, Network in Indian social stru cture, in Man November - December 1964.

31 — Partha Majumdar and J Roy, Distrbution of ABO blood groups on the Indian subocontlinent : A cluster - Analytic approach, in Current antropology, vol 23 N. (5) October, 1982.

32 — Paul Benjamin : Human heterography R.F. New York 1972.

33 — Paul Albert Place of physiological studies in Anthropology Physiological Anthropology, London, 1974.

34 — Pelto, P. Anthropological ressarch. New Yourk 1970.

35 — R. Bellse, H., Hager, Alan Beals; Anthropology London, 1967.

36 — Reinhard Mann, quantification and methods in Social Science resarch in social science information vol 17-no 2, 1978

37 — Sahlins, Marshall, D., « Evolution : Specitic and General » in : Mannrers, R.A. and Kaplan, D. (eds) Theory in Anthropology, Routledge and Kegan Panl, London, 1968.

38 — S.N. Eisenshtadt, Anthropological studies of complex societes, in Man, November 1967.

39 — Theresa Tsung Tzu louie : Explanatory Thinking in chinese Amenicune, in Micheal Bottz, urban enveronment, 1978.

40 — Wiliam C. Boyd, The Blood group and tyes, in phsical Anthropology and Race, New York 1976.

41 — Zliot D., Chapple, Anthopological engineering .... in Neoble, reading in anthropology, T.S. Hill book New York, 1955

المحتويـات

تـم بحمـــد الله

